

خالد محمد خالد
من العلماء

لَكِنِّ لَا تَخْزُونَا فِي الْبَحْرِ

« اعْرِفُوا الْحَقَّ ، ثُمَّ اتَّبِعُوهُ »
« وَسَيَجْعَلُكُمُ الْحَقُّ أَحْرَارًا »

الناشر
مكتبة الانجبلوالمصرية
١٦٥ شارع محمد فريد
القاهرة

مارس ١٩٥٥

اهداءات ١٩٩٩

مكتبة

ا.د محمد الحميد بدوي

القاضي بمحكمة العدل الدولية

خالد محمد خالد
مِنَ الْعُلَمَاءِ

لَا تَخْزُونَا فِي الْبَحْرِ

.. اعْرِفُوا الْحَقَّ ، ثُمَّ اتَّبِعُوهُ ..
.. وَسَيَجْعَلُكُمُ الْحَقُّ أَحْرَارًا ..

الناشر
مكتبة الانجبلو المصرية
١٦٥ شارع محمد نوري
القاهرة

مارس ١٩٥٥

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مطبعة مخيمر
٢٩ شارع الجبش ت ٤٧١٩٢

الإهداء

إلى الرجل الذي كان لي أستاذًا قبل أن يكون أبا...
من علمتني شمائله القويّة. أن الواجب أبقى من المنفعة
وما دام هذا، أول كتاب يصدر بعد رحيله..
فأذنوا لي، أن أقدمه لروحه وذكراه..
في خيشوع وتقوى

فصول الكتاب

الفصل الأول — الديمقراطية ، ضرورة خلقية ص (١١)

« يتحدث عن الطغيان كزرعة للرذيلة ، ويكشف عن مسئولية الحكم المطلق تجاه الرذائل التي يثمرها وجوده . وينادى بديمقراطية راسخة ، كبداية لكل تجديد خلقى »

الفصل الثانى — الواجب ، لا القوة . . ص (٨١)

« يكشف عن آفتنا الكبرى ، المتمثلة فى التوسل بالقوة والقسر لتقويم السلوك . ويعرض دور المنزل ، والمدرسة والقانون ، والسجن ، والرأى العام ، والصحافة فى تعويق المسلك الخلقى للمجتمع ، ويبشر بالواجب كقيمة »

الفصل الثالث — أخلاق المدنية أهدى . . ص (١٦٧)

« يفصل بين الأخلاق الدينية ، والدين . . ويناقش قدسية التقاليد ، والأيمان بالقدر . وقيم البرهان على استنفاد الأخلاق الدينية أغراضها . كاشفا عن خصائصها ، وداعيا إلى الأخذ بأخلاق المدنية فى عزم وثقة »

مقدمة

أريد أن أعرف :

وقف إنسان فوق قمة جبل « ولسن » بكاليفورنيا أمام أكبر منظر
في العالم ، ليرى عجائب السموات ، ويصير السديم والشموس والكواكب
التي تملأ رحاب الفضاء . .

وبعد أن بصر بما لا عين رأت ، واستشرف من وراء زجاج المنظار
ملا يخطر بقلب بشر . ، قال لرفيقه والرغبة تملأ رُوعه :

— أعتقد أنه من العسير علينا أن نرى النهاية . . . ؟

فأجابه :

— نعم ، لأنه ليس هناك نهاية . . .

ولقد رأيتني أقف ونفسي هذا الموقف عندما زاملت النفس البشرية
في رحلة سريعة . نفسي . . ، ونفسك . . ، وأنفس الآخرين . .

وانبعث في روعي هممة سؤال متردد يقول :

— أعتقد أنه من العسير علينا أن نبصر النهاية . .

وفي أعقابها رنت إجابة حاسمة :

— نعم ، لأنه ليس ثمة نهاية . . .

إن أنفسنا التي بين جنوبنا أكوان آخر . تعج بالخواف والأسرار . .

ولقد نتسمع أصداء أجرامها الهادرة ، ونلح بریق غازاتها المتوهجة . .

يبد أن ذلك لايعنى أننا عرفنا السكون العجيب وكشفناه . ؛ فلا يزال

مبلغ جهد العقل تجاهه أنه واقف على أبوابه يقرعها . . .
ولقد عرفت بعد ، كنه الومضة العلوية التي التعت في القلوب الذكية
لأنبياء الصين وحكامها الأفديمين فقالوا بآلهم المضيئة الجامعة : — « من
عرف كل شيء . . ، غفر كل شيء » . . . ١١

أولئك قوم وضعوا بصائرهم على المظار ساعة من نهار . ؛ فوجدوا
الحقيقة التي أهلتهم لأن يتحدثوا عن الإنسان ، ويتحدثوا إلى الإنسان . .
وكذلك عرفت بعد ، لماذا تذهب صرخات الداعين إلى الفضيلة
في بلادنا مع الريح . .

ذلك أنهم ينادون الناس من مكان بعيد . . ويتراءى لهم أنهم
يخاطبون دمي خشية لا أناساً يمدرون مورا بانفعالات وجودهم
والحياة . .

أجل . . ماذا نعرف عن اللفز الذي نحمله ، ونسميه نفساً . . ؟
وماذا نعرف عن الوعاء الذي نعيش داخله ، ونسميه مجتمعا . . ؟
ماذا يعرف أهل الفضيلة عن الرذيلة . . ؟
وماذا يعرف أهل الرذيلة عن الفضيلة . . ؟
وكما قال شاعر الإنجليز « كبلنج » :
— ماذا يعرف عن أفلاطون ، من لا يعرف غير أفلاطون . . ؟؟ ١١
أريد أن أعرف . .

هذا هو الهتاف المجلجل الذي كان يقرع في نفس يسوع ، وهو
هائم على روابي الجليل . .
وفي نفس محمد ، وهو ثاو في غار حراء . .

وفي وعى بوذا ، وهو يتوائب وراء الحقيقة بين سهول الهند
ونجودها ..

وإذا ذهبت تفتى الناس قبل أن تعرف ؛ فقد ظلمتهم ولو كنت مصيبا ..

وإذا أفنتهم بعد أن تعرف ؛ فقد أنصفتهم ولو كنت مخطئا ..

فهل عرف الآمرون بالفضيلة — فى بلادنا — شيئا عن قساوة
الفضيلة .. ؟

وهل عرف الناهون عن الرذيلة — فى بلادنا — شيئا عن ضراوة
الرذيلة .. ؟

وقبل هذا وذاك . ، هل عرفوا المفاهيم الصحيحة والصادقة للفضيلة
وللرذيلة .. ؟

الحق أن مسافة الخلف بعيدة جداً بين الأمرين بالعرف والعازفين
عن المعروف . . بين الناهين عن الشر ، والوالغين فى الشر . .

وحتى يقوم بين الفريقين جسر من المعرفة الحقة والأدراك السليم
سيظل المعروف فى ديارنا غريب الوجه واليد واللسان . .

ذلك أن النتائج الموضوعية التى نحصل عليها من تجارب واقعنا
وخبراته هى وحدها التى تهبنا الثقة بما نخطه من مناهج ، وما ننتهى إليه
من أحكام . .

وقد قال حكيم صينى : « من غير الحكمة أن يكون الإنسان حكيماً
لم تساهم التجربة فى تكوينه . ، وإذا ركن إنسان لحكم أنجبته المصادفة ؛
فمعناه أنه قد ضلّ سواء السبيل . . »

وإذن ، فلكي تتمكن من تطوير سلوكنا وتعليته يجب أن نملك قبل البدء في العمل معرفة وثيقة .

أما نظرتنا المائلة للأخلاق ، هذه التي ورثناها عن أجيال أدمنت الإيمان بالغيب ، ووضعت حياة الناس وسلوكهم داخل إطار لاهوتي جامد ، وامتهنت التجربة الانسانية ، والمعرفة العقلية ؛ فلم تصنع لرأيهما في المشكلة - فهي نظرة غير سديدة بقدر ما هي غير مجدية . .

من أجل ذلك نخطأ كثيراً ولا نزال . ، ولم نعرف كيف نعمل . لأننا قبل هذا لم نعرف كيف نعرف
ادكروا هذا جيداً . .

إن المعرفة الكاملة اللاحقة ، هي سبيل العاملين لكي يظفروا بعمل كامل ناجح .

والبرهان المبين على أن معرفتنا بمشكلة الأخلاق في بلادنا ناقصة وداكنة - هو أن جهادنا المبذول في هذا السبيل ضائع وذاهب مع الريح . .

فبقدر ما نشاهد كدح الغيورين على الفضيلة والداعين لأن تقوم في ضمائر الناس مقام القانون . ، بقدر ما نشهد أيضاً إخفاقهم للوصول ، وخيبة أملهم المتساوقة . . . ١١

أفليس ذلك جديراً بلفت أنظارنا ، وحث انتباهنا . . ؟
بلى . . ولقد كان هذا الأمر على رأس الحوافز التي ألهمت الكتاب تفكيره ، وهدت إلى الحقيقة خطاه . .

لقد وجدت أننا في هذه المشكلة كما في غيرها من المشاكل نعمل
بغير دليل . .

وإذن فنقطة البدء أن نجد دليلاً للعمل . .

والدليل ، ماذا يكون . . ؟

إنه المعرفة . . المعرفة التي تتكوّن من فحص الواقع الإنساني فحصاً
بصيراً نافذاً .

أما الاكتفاء بمشاعرنا الذاتية ، والاهتداء بانفعالاتنا العارضة ،
وتقليدنا الضمير لآراء لاندري كيف تكوّنّت . فأسباب لا تمنحنا الدليل
لعمل ناجح أو إصلاح ناجح . .

إنما يمنحنا ذلك ، التبع اليقظ لنتائج النشاط الحيّ للفرد
والمجتمع والتاريخ . .

فمن خلال التحامنا بالأشياء ، واتصالنا بالأحياء تنبثق إمكانية استشراف
الحقيقة وكشف المعرفة .

وإذا ما سئلت : أينبغي على المصلحين أن يتمرّسوا بالردائل كالسرقة ،
والغش وهتك العرض مثلاً ، لكي يستطيعوا أن يعرفوها ثم يرموها طريق
الخلاص منها . . ؟ ؟

أجيب قائلاً :

إن الأمر لا يتطلب ذلك إذا كنا سنختبر ردائل تقرر وضعها
الاجتماعي . عن طريق التجربة الطويلة للإنسان .

يبد أن الأمر يتطلب التجربة غير المباشرة ، أعني الاندماج في الواقع

وجعله موضع البحث والفحص والتفكير ، إذا أردنا أن نكشف عوامل انتعاش الرذائل ، وأسرار سيطرتها على النفس وتحكمها في السلوك .
وحين يازمنا تعقب جرائمها القاتلة للقضاء عليها . . هنا تهيب بنا الحكمة القائلة : « لكي تصيد أشبال النمر ، لابد من أن تنفذ إلى عرينه » .
والوصول إلى العرين لا يكلفك أن تنقلب نمرأ . .

فليس من الضروري إذن لكي تصل إلى تفسير صحيح ووثيق لبواعث الرذيلة أن تمارسها ، وإن كان لابد من السير في دروبها ، ودراسة أصحابها ، وكشف الغطاء عن السلوك المقنع الذي يخفي وراء وداعة الحمل ، شراسة الوحش . .

ومن النقص الويل في بلاد تدير الأخلاق بالمواعظ ، ألا يوجد أقوام يفعلون هذا . . يدرسون سلوك الانسان في الانسان ، ويمشون في مناكب المجتمع ، ليعرفوا مآتي الانطباعات الرديئة والانعكاسات الشريرة التي يتركها في أفرادهم . ، ويندمجون في فطنة وذكاء بواقع الحياة ليوائموا بين الناس وبينها مواءمة تهدي إلى الفضيلة والمعرفة . . الأمر الذي حاول كتابنا هذا أن يفعله متحما جهد سلفه « هذا . . أو الطوفان »

لقد نفذ إلى أعماق المشكلة الحية . . ولم يدرس الناس في الكتب . بل في أنفسهم ، وفي شهواتهم . ما يسرون منها وما يعلنون . والتقى بهم عند المنبع الذي يصب فيهم ، ويصوغ نماذجهم ، واستكنة جاهدا بواطن الدين استهواهم الشر فساروا في موكبه نشاوى ثملين . . وقبل أن يسير في الطريق ، ويسبر غور الدرب المجهول كان مبلغ وعيه بالمأساة أنه مجهلها . . أما الآن فإنه يعرفها . . كان يسمع بها . ، أما الآن فقد رآها . .

كان يتلظ مع الأتقياء العاجزين بـ « لا حول ولا قوة إلا بالله »
أما الآن ، فهو يحمل مشعلا ينير الطريق . ويسلب محترفي الغيرة على
الفضيلة تظاهريهم الأجوف . ويدعو جميع المناضلين ضد الكذب
والهتان ، وضد الرذيلة والشر ليضربوا بسواعدهم البارة في أرض
للعرفة والخير والجمال . .

ولقد سألتني كثيرون من القراء في رسائل ودودة تليقيها منهم بعد
ظهور كتابنا السابق عما إذا كان سراختياري لعنوانه « هذا . .
أو الطوفان » هو مجرد الرغبة في الأثارة وشد زناد الانتباه . أم أنا
أعنى بالفعل مدلول هذا العنوان الخطير . . ؟

والحق أقول لأصدقائي هؤلاء : إن المفهوم القوي والمتزن والمحدد
لهذا العنوان هو الذي جعلني أوتر اختياريه . ولقد أفاء علينا اختبارنا
الوثيق للمشكلة التي نعالجها ، بصيرة بالمصير الذي يسوقنا إليه تجاهلنا
القيم الصحيحة للحياة ، وإدعائنا الضاري للغو الخرافة وضغط التقاليد . .
وهو مصير أخطر من الطوفان . . . ١١

إن الطوفان الهادر على ظهر الأرض ، والمتبدى أمام العيون ،
قد يجد مقاومة تقف سعيه أو تعناق زحفه . . أما ذلك السيل الذي
يجري في جوف الأرض خلسة . . ذلك الذي لا تقع عليه العين ، ومن
ثم فلا تتقي أخطاره ؛ فهو الذي يحمل نعي كل مكان يمر به .

ألا وإن رذائل هذا المجتمع لمن ذلك الطراز الويل . إنها من حيث
الكم ومن حيث النوع ، لا تكاد تجذب الانتباه فضلا عن أن تهيب
بأرادة المقاومة ، إنها تسبح وتسرح في استخفاء كالسيول الجوفية . تأكل

مناعة الأرض من قواعدها ، وتمتص ثباتها ورسوخها ، حتى إذا جاء
ميقاتها المعلوم ، ألفتها تميد على حين غفلة . . فتترنح وتهوي ، وتنادى
الذين فوقها فيلبون النداء نداء الأغوار التي خسفت ، ثم أغرقت
ثم بادت . .

إن هذا الكتاب يحىء في أوانه ليأخذ انتباه قومه إلى قضية جليلة
لم يتعودوا أن يتحدثوا عنها إلا تفكها ، أو تبذخا ، أو رثاء الناس . .
ولقد مرّ بكم منذ عام (هذا . . أو الطوفان) واليوم يأتيكم تنمة
البحث في هذا الكتاب .

ولست أنصح أحداً بأن يقرأ أحدهما ويدع الآخر . ؛ فإن فعل ،
فسيظل إدراكه لوجهة النظر المبسطة في كلا الكتابين إدراكاً مبتوراً .
وأيضاً ، لا أنصح أحداً بأن يتوآب بين الصفحات ، ويختطف
الكلمات اختطف العجلان . .

وكما قلت لكم في مقدمة الجزء الأول ، أقول لكم هنا أيضاً . .
اقرأوه كله ، أو اتركوه كله . ومن لم يفعل ؛ فلست أحمل معه مسئولية
الأحكام المبتسرة التي تجهضها القراءة الناقصة .

لقد عني الكتاب السالف ، بأرجاع الانسان إلى مكانه . داعياً إلى
فحص سلوكه بوصفه إنساناً ، لا إلهاً . . وناصحاً بأن نعتمد في تعلية نزعاته
وتقوم شخصيته على طبيعته الحرة ، لا المصفدة ، وكاشفاً عن المضلات
الرهيبية التي أحالت حياتنا إلى فتنة غامضة ، ومضطرب خافت الحيلة ،
مزعج الحوار . .

وهنا نستأنف رحلتنا ، ونترك على هذه الصفحات كلمتنا الوثقى فيما

ينبغي أن نلتزمه من نهج إذا أردنا أن نمكن الآخرين من فضيلة نامية وسلوك قويم ونرجو أن تفرغ لمساته الواقعية نوراً وهدى على المشكلة التي يعالجها ، والتي يناط بها مصير الناس حيث يوجدون .

وماذا هناك أيضا لأقوله لكم قبل أن أغادر هذه المقدمة . ؟
عبارة أخيرة . ؟ نخذوها مشكورين . .

إن هذا البحث لا يزعم أنه قطف نجوم السماء . . ولكنه يرجو بما أبلى من جهد ، وما استورى من بينة أن يكون مشعلا فوق الظلمات الخائفة . ظلمات المجتمع الذي يقتات بالكذب والنفاق والعجز ؛ فمن كان معه كلمة تزيد المشعل ضوءاً فليقلها ولو كانت مضادة ومغايرة . . ، ومن كان معه مشعل آخر فليرفعه فوق الظلمة . .

فلست أعرف سبيلا أهدى من هذه لنعرف كل الحقيقة وكل البهتان .

فالحمد

الديمقراطية ، ضرورة خُلُفِيَّة

« الحكومة المستبدة ،
أخطر على روح الإنسان
« من الوحش المتمدن . . »
— كنفوشوس —

في هذا الفصل

- بلاد السمع والطاعة
- الطغيان ، مزرعة الرذيلة
- الإشاعة ، هي العادة السرية للمجتمع المضطهد .
- الانحطاط الخلقى ، ابن شرعى للانحطاط العقلى . .
- مصرع الباعث الخلقى
- اضرب لهم مثلاً

بهرد السمع والطاعة

في هذه الرقعة من الأرض — مصر وما حولها — تستلقى شعوب.
مرت بها مواكب الغزاة والفاطحين . ، ثم ولت عنها تاركة فيها بصمات.
أصابعها ، وآثار أقدامها . . أو قل : آثار سياطها . .
وكما أنك قادر إذا اهتديت إلى مفتاح الدار أن تفض مغاليقها ،
وتجوس خلالها ، وتكتشف محتوياتها ؛ فكذلك الشعب — أى شعب —
تستطيع إذا اهتديت إلى مفتاح شخصيته أن تفض مغاليق حياته ، وتبلو
أخباره ، وتستبطن أسرارهِ وبعبارة واحدة ، تستطيع أن تكتشف
هذا الشعب . . .

أمن اليسير على كاتب بالغاً ما بلغ من الفطنة ، وما جمع من البيانات
أن يحقق وحده الغاية ، ويجد المفتاح . . ؟ ؟
أحسب ذلك ممكناً لك ولاغيرك ، إذا كنت من الذين أوتوا موهبة
الاخلاص العقلي . . الذين يمضون مع الحقيقة إلى حيث تقودهم دون تردد . ،
ثم يعلنونها للناس في غير تهيب . . وبعدئذ يتحتم عليك أن تتجه شطر
الشعب الذي تزمع استكناه حقيقته وتبلوه بجماعة . ثم تحسن اختيار
خليق من نماذجه بحيث تمثل هذا النماذج إلى حدٍّ ممكن . جميع خصائص
الشعب ، ورواسب شخصيته ، وتحاول جاهداً أن تلمس الصخرة
التي في القاع . وتسبر الأغوار الموعلة في اليعبد ، وتقرأ التاريخ لتبصر
السمات الحقة لخصائل الجماعة وسلوكها . .
ولو أننا فعلنا ذلك بالنسبة لبلادنا وأمتنا . .

لو أننا حاولنا رؤية القاع ، واكتشاف المفتاح الذى يفض لنا مغاليق شخصيتنا بجماعة وكأمة ، لوجدناه يتلخص فى كلمتين : « السمع والطاعة » .. فإذا ما سئلت ، مصرىا كنت ، أم عراقيا ، أم يمنيا ، أم حجازيا ، من أى بلاد الله أنت — ؟ ؟ فلا تجهد قريحتك فى التذكر . وأجب من فورك :

— « محسوبكم » من بلاد السمع والطاعة . . . ! !

فالسمع والطاعة هما القدر الذى يتعبدنا ويصوغ كل تصرفاتنا ، ويحدد نوع حياتنا وسلوكنا .

ولا يزال سلطان الكلمة المنحدرة من أعلى متفوقا على كل سلطان . وفى غمرة إذعانتنا لها ، وانبهارنا بها نتخلى فى غيبوبة ممتعة عن زمام أنفسنا وعن كل ما امتلكه الإنسان عبر تطوره المديد من عزم ، ورشد ، واختيار . . .

وقبل أن أسترسل معكم فى هذا الحديث دعونى أتلى عليكم نبأ مصور « برومتيوس » ..

فقد ذكروا أن مصورا إغريقيا شهيرا اتخذ أحد عبدانه نموذجا حيا ليصور « برومتيوس » الآله اليوناني الذى عذب به « زيس » كبير الآلهة . . . وأراد الفنان العبقرى أن يرسم العذاب ، وكأنه يلنقط بعدسة لاقطة مشهده الحقيقى . بل أراد أن يجعل لوحه المرسومة وكأنها المشهد الواقعى ، والحادثة ذاتها صورتها المنقولة ، ورسمه المتخيل . . . فأزل بعبدته عذابا ويلا ، ومدد جسده العريان فوق حديد مستعر ، تماما كما تصور الأسطورة فعل كبير الآلهة بغيره « برومتيوس » ..

واستطار نبأ ذلك العمل الوحشى بين صفوف الشعب فاهتاج ،
ونادى بالقصاص . وولت جموعه الزاحفة شطر متحف الفنان القاسى . .
وهناك تحت نوافذه المرتجفة من هول صراخ الحائقين . زأر الجمهور
كالأعصار : الموت للجلاد . .

وفى ثبات العارفين بمشاعر الجماهير تقدم المصور من نافذته وأطل
على الناس وبين يديه اللوحة التى رسمها تنتفض حياة ، وفتنة ، وتعيرا . .
أتدرون ماذا حدث . . ؟ ؟

تحوات الجماهير الغاضبة الباسرة الباسحة إلى مهرجان تهزه الحماسة
والأعجاب والنشوة . .

وهكذا أنسيت القصاص الذى جاءت تدعوه ، والحق الذى كانت
تهتف به ، وانطلقت من بين شفاهاها الغيبة صيحات الأعجاب تسبح بحمد
الفنان العبقري الموهوب

أسمعكم تتساءلون : ما علاقة هذه الأسطورة بموضوعنا . . ؟
وأنا مثلكم أتساءل . .

فلنرجى* الأجابة قليلا ، ولنعد لموضوعنا . .

كننا نقول ، إن السمع الطاعة هما السميت المميز لشخصيتنا ، وهما القدر
المهيمن على مصائرنا ، والمحدد لنوع سلوكنا ، فالغزاة الدين مروا بنا ،
وثوى حكمهم المطلق طويلا بيننا ، لم يتركوا لإرادتنا حق التمرس
والتدريب بل ربطوها بمشيئتهم ، وطوّعوا لكلماتهم ، وساموها كل
ما كان فى جيبهم من خسف وهوان .

وكأى من دخیل محتل ، وحاكم مذل جعل من ظهور قومنا مرعى

لسياطه المسعورة وكان ، كلما تنادوا ليدافعوا بغيره يتقدم إليهم وبين يديه لوحة تفتهم وتنسبهم . .

لوحة تتمثل في هرم باذخ يشيده وبينه ، أو طريق لاحب يعهده ويرسيه ، أو مصارف يشقها ، أو ظفر رخيص في حرب عدوانية يشنها . وأحيانا ، كانت اللوحة جنة يمد بها المؤمنين . فيها أنهار من لبن وعسل وخمر . أعدت لكل أشعث أغبر مستسلم مظلوم . . . ١١

أعرقتم العلاقة - إذن - بين أسطورة المصور وبين مأساتنا . . ١٢ ؟ ذات يوم أعلن حاكم مجنون أنه صار للناس إلها . ، فذهب آلاف من أبناءنا الطيبين إلى قصره يعلنون أنهم سمعوا ، وأطاعوا . . .

ولقد اختفى من على الأرض الحكام الذين يدعون الألوهية ولكن لا يزال هناك حكام يدعون العصمة . ويشعرون بها في ذات أنفسهم شعورا ينسبهم كل ما للآخرين من حقوق ومن ثم فهم يطالبون الناس بأذعان مطلق لأهوائهم وما يفعلون . . .

ولقد ران على الوعي الناشئ الجمهيرنا هذا الطراز من الحكماء ، وران عليه ما هو أثقل وطأة وأشد بطشاً . . العالم والتقاليد . . وهكذا خلقت الأحداث العارمة الدخيلة على حياته . . خلقت عدداً في شخصيته تفرز الأذعان والاستسلام . تفرز السمع والطاعة . . ١١

وإنا لنظلم أنفسنا ، ونقص التاريخ من أطرافه . إذا زعمنا أننا وحيدون في هذا المجال .

فالمجتمع الانساني كله سار عبر هذه الطريق . وكان السمع والطاعة شرعته ومنهاجه . . ولعل اختراع الانسان للديمقراطية لم يكن إلا ثمرة

حاجته الملحة للتخلص من هذه المهانة وذلك العجز ، وفي سبيل استنقاذ وجوده وتأمين مستقبله ابتدع النظام الذى يرد للجماعة اعتبارها ويرفع عنها آصار السمع والطاعة ، ويبعث فى ضمير المجتمع إحساسه بالكرامة ذلك الأحساس الذى تنبثق منه كل فضائل الانسان ومزاياه .

كل مجتمع إنسانى مر إذن بهذا الدور . دور السخرة المضروبة عليه من أناس أذكىاء كانوا ينزلون أوامرهم ويثنون زواجهم فى كوكبة من النذر والنهاويل ؛ فينتلقاها العبيد سجدا وهم صاغرون . . ١٢ .

وبمقدار الآثار الباقية فى معاصم الأمم والجماعات من قيود ذلك الوضع الدابر يتحدد نصيب كل من الحضارة والارتقاء .

فعلى ظهر الأرض اليوم أمم انمحت من على معاصمها كل أثر للقيود الرجيم .

ألا فاعلم عندما تسمع كلمات التقدم ، والحياة ، والارتقاء أنها نعوت تلك الأمم وصفاتها .

وثمة أمم أخرى لا تزال تستيقظ من نومها كل يوم على صلصلة القيود تملاً أرجلها وأيديها . . تلك هى بلاد السمع والطاعة . وبالتالى فهى بلاد النمو البطيء ، والسلوك الردىء ، والرذيلة المترعرة ، مهما يرتفع فى سمائها من مآدن ، ومهما تفرع فى أرجائها أجراس الكنائس ، ومهما يتبختر على أرضها من أناس يلوحون بيد الفناء ويقولون : يا عباد الله . . اتقوا الله . . ١١ .

ولقد يبدو لنا أن نسأل : لماذا يحول السمع والطاعة بين الناس والخلق القويم . . ؟

ولكن قبل هذا ، ماذا نعني بالسمع والطاعة ، وما الظروف التي أُلزمتنا هذا الأذعان . ؟

إننا نعني بالسمع والطاعة هنا ، غلبة غريزة القطيع على صوت الألهام والعقل . .

نعني تلك الحالة الانسلاخية ، التي ينسلخ المجتمع فيها عن إرادته ومشيئته . بل عن ذاته . .

ونعني بالتالي الانصياع المطلق لأمر لم يساهم في إبرامها ، وخطط لم يشترك في وضعها . .

أما الظروف التي أركستنا في غيابهما فكثيرة ، ومن المحتوم أن نكون على وعى بها ونحن نندرس مشكلة السلوك والخلق . بيد أننا نستطيع بصورة مبدئية أن نلخصها في كلمة واحدة « الطغيان » .
طغيان الحكومة . .

وطغيان التقاليد . .

وطغيان المجتمع على نفسه كانعكاس محتوم لطغيان الحكم ،
وطغيان العادة . .

ومن وراء هذه جميعا كانت التعاليم المتلفعة بأزياء الدين تزكي الطغيان وتعبد له القلوب والعقول . . ١

فيوم كان هذا المجتمع منسيحيا ، كانت تفرع في فجاجة هذه التعاليم :
« أيها العبيد ، فلتخضعوا لأسيادكم والخوف يملأ نفوسكم . .
ولا يكونن هذا الخضوع للخيرين منهم فحسب . ، بل وللشريرين
أيضا . » . . ١١

« أيها العبيد ، أطيعوا ساداتكم في خوف ورعدة » . . .
« على جميع من يخضعون لنير الرق أن يعتبروا أسيادهم جديرين
بكل تبجيل . » . . . ١١

وعندما نزل الأسلام بوادينا ، عاث في الأرض أناس تحدثوا باسمه
وقالوا للناس إن رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول :
« استمع لأمرك وأطعه ، وإن جلد ظهرك وأخذ مالك » . . .
« كن عبد الله المغلوب ، ولا تكن عبد الله الغالب » . . . ١١
« الزموا طاعة أمراءكم وإن ظلموا . . . فإن الله مبتليكم بهم » . . . ١١
ولما أنخم مجتمعنا من هذا العلف الصالح حتى بشم . . .
وإذ صار الأذعان العميق جزءا من كيانه شبرع يفلسف حياته على
هذا النمط التعس . . .

ولملك الآن ، وأنت تطالع هذا الكتاب ، تسمع صوت الرجل
العابر تحت نافذتك يقول لزميله :

— وأنا مالي . . . اللي يجوز أحمى . أقول له يا عمى . . . ١١
إن هذا المثل ونظائره السكثيرة تمثل الحقيقة الحية في وجودنا الميت . . .
تصور الحياة المؤتسكة التي رزأنا بها الأذعان المثل والطاعة العمياء .
أرانا بعد في حاجة لأدراك الخطر الذي يهدد أخلاق الناس عندما
يسودهم الأذعان الغي ، والسمع الداهل . . . ؟
إن بلاد السمع والطاعة تعني تلك الحظائر التي يعيش أهلها تحت
مستوى حقوق الانسان .

وحقوق الانسان لم تعد عبارة إنشائية ، ولا اصطلاحا رومانتيكيا . . .

بل حقيقة تدل على ذات الانسان ، وايس على مجرد حقوقه . بمعنى أن
الانسان يفقد ذاته إذا فقدها . . . وعندما يفقد الانسان حريته ، يفقد
سيادته على نفسه ، وحين يفقد هذه السيادة يحرم الوسيلة المجدية للاكتمال
الخلقى ، ويمسى كل إجحاء له بالفضيلة والتسامى مجرد رطانة أعجمية لا يناله
منها سوى التلمظ بها ، كما يفعل أى حيوان مجترّ بملء فمه من
علف لذيذ . . . ١١

ولقد يكون للناس عجباً أن تربط الفضيلة بالحرية على هذا النحو
الذى يبصرون .

ألا فليعلموا أن السلوك الفاضل والسوى للأنسان وللجماعة لم يرتبط
ولن يرتبط بشيء أوثق من رباطه بالحرية .

ولئن كان الرائد السياسى يتخذ شعاره وشعار قومه « الحرية . .
أو الموت » . ؛

فأن الرائد الأخلاقى لا يكون إلا صادقاً حين يجعل شعاره « الحرية ،
أو العار . . »

من أجل هذا نبدأ حديثنا بنذير نزجيه لبلاد السمع والطاعة . هنا
وفيما حولنا من أمم وجماعات . لنعلم ، ويعلموا أن الفضيلة والطغيان
لا يجتمعان — طغيان الحكم ، وطغيان التقاليد ، وطغيان التعاليم . . .
وكل الجهود التى تبذل لأخذ الناس إلى مكارم الأخلاق فى ظل
التسلط الذى يسلبهم اختيارهم ، والطغيان الذى يعطل إرادتهم ، فليست
أكثر فوزاً ، ولا أدنى عبثاً من جهود الذى يحترث فى البحر ، ويزرع
فى المحيط . . . ١١

أجل ، وإن أول حقيقة راسخة تقدمها لنا تجارب الانسان عبر
القرون والأجيال لهى ذى . .

الطغيان مزرعة الرذيلة :

يلعب الطغيان دوراً بشما فى إعدام الحاسة الخلقية لدى
الفرد والجماعة . .

واقعد ألف الناس أن يحذروا الطغيان كمقوض للقيم الوطنية ،
بيد أنهم حين يبلغون من الوعى درجة كافية ، فأنهم يحذرونه كمقوض
خلقى كذلك .

وللطغيان كما ذكرنا مصادر شتى ، فليس هو — فيما نعينه — طغيان
الحاكم فحسب ، بل طغيان المجتمع ، وطغيان القانون ، وطغيان التقاليد .
وإن كان طغيان الحكم واستبداده يمثل العنوان الضخم لكل
هذه الأثافى .

ماذا يفعل الحاكم الطاغية فى أخلاق الدين يرزءون بحكمه . . ؟
وأى أثر عارم له فى تشويه الفضيلة الإنسانية ، ووتفالنمو الحاقى للناس . . ؟
إنه لأمر نافع أن نقرأ القصة التالية : —

ذات يوم مر حاكم الصين « كنفوشيوس » ومعه بعض تلامذته
بامرأة هالوع . تبتحب فوق قبر أو دعت ثراه عزيزا عليها . .

واقترب منها الشيخ الحكيم مواسيا ، وسألها : ما شأنك . . ؟
فأجابته : الوحش يا سيدى . . سلبنى زوجى وأبى . . ! !

منذ يومين خطف أبى والتمه . ، واليوم أدركت زوجى وهو بين
أنياه هالكا مصروعا . . . ا

وافتها نظرة فاحصة من « كنفوشيوس » الذى عاد يسألها : —
— وماذا يلجئك للحياة فى هذا الخلاء الموحش ، ولماذا لا ترحلين
عن ذلك الوحش الضارى . . ؟
فأجابته قائلة :

— لأنه يا سيدى لا توجد هنا حكومة مستبدة . . . ا قتل
وجه كنفوشيوس . ، حتى لكأن الشمس تشرق من خلاله . . . وابتسم
ابتسامة تعبر عن فرحه بهذه الحكمة الجليلة . والتفت إلى تلامذته وقال :
— أسمعتم يا أبنائى . ؟ إن الحكومة المستبدة أخطر على روح
الإنسان من الوحش المفترس . . . ا

أجل ؟ يا كنفوشيوس . إن الأمر كذلك . وإن الطغيان ليسلب
من الروح روحها ، وطهرها ، وبسالتها .
إنه يشوه الضمير ، ويعطل الإرادة ، ويبطل القدوة . .

وإذا الناس فقدوا هذه الدواعى والوسائل ، فقد ازاور عنهم الهدى
وصار احتمال مقام الفضيلة فى نفوسهم ، كاحتمال مقام الشهد فى لعب
الغايين . . . ا

والمجتمع الذى يسير خافض الجناح مسلوب المشيئة ميمما وجهه شطر
دواعى فئاته واضمحلاله . لا يزيده الحديث عن الفضيلة إلا إفلاسا منها .
ونحن كأفراد تتأثر بروح الجماعة التى نعيش فيها ، ونحيا داخل
نطاقها . وكما كانت الجماعة صاعدة متفوقة ، يكون أفرادها كذلك .

وإن نزعاتنا كأفراد لتذوب في سيل العرم الهادر من نزعات المجتمع وغرائزه . وهذا يقتضى أن نوفر للجماعة في شخصيتها العامة وسائل الترقى الخلقى ، إذا أردنا لأفرادها مثل هذا الارتقاء . لأنها أى الجماعة المنبع الذى يصب في الأشخاص والأفراد .

والجماعة أخلاق وفضائل جماعية . إذا تكونت ورسخت تصير بمثابة الرصيد الذى يأخذ منه الأفراد وينفقون . وهو رصيد لا يفنى فمثلا — عندما تهيب الظروف للمجتمع ما أن تهيم على أعماله فضيلة الأتقان ، اتقان العمل ، أى عمل . .

فأن عدوى هذه الفضيلة تنتشر حتما من روح المجتمع إلى أفرادها جميعا . حتى انسداد حياة غير المتقن في هذه الجماعة تكون فشلا ماحقا ، إن لم تكن أمرا مستحيلا . .

ومن العسير على إنسان أن يحرز إرادة التفوق والاكتمال الخلقى في مجتمع لا يحترم هذه الإرادة فضلا من السعى لأحرازها . كما أنه من العسير عليك أن تكون قنوعا في جماعة جشعة مسعورة . .

فلكي تزود الأفراد بأمكانيات الفضيلة ، علينا أن نصل الوشائج المقطوعة بين روح الجماعة ومقومات الفضيلة . ولقد قلنا : إن على رأس هذه المقومات ثلاثا ، الضمير . والأرادة . والقدوة .

ففي أى مناخ يترعرع هذا الثلاث الرافع : . ؟
ما البيئة الصالحة لأنماء الضمير ، وإرباء الأرادة ، وتألق القدوة . ؟
الحق أن المرأة التى أثارت إعجاب « كنفشيوس » لتشير إعجابنا أيضا

ولقد عبرت في صدق وفطنة عن حاجتنا المحتومة لحرية لا يخنقها طغيان ،
وحياة لا تضدها السقوف عن الارتفاع . إذا أردنا أن نحلق مع مواهب
الله المعطاة لنا إلى سماء القدرة البشرية ، والكمال الميسور . وإذا أردنا
أن نحوز الوسائل المفضية لهذه الغاية الفاضلة ، ألا وهي — الضمير الناجز
والأرادة المتفوقة ، والقدوة الهادية .

وسنبصر الآن ، كيف يصعب استعلاء الضمير ، والأرادة ، والقدوة في
أمة يحكمها طاغية . ولكن بعد أن نبصر أولاً الارتباط الوثيق ، والتآزر
القائم بين هذه الثلاثة والسلوك السوي القويم .

عندما يريد الناس أن ينعتوا واحداً منهم رديء السلوك . يقولون
بأسلوب عفوى بدهى : لا ضمير له . . أو يقولون : ضعيف الأرادة . .
أو يقولون : فلان . ؟ إنه تافه . .

وهم بهذا المنطق البدهى يلتقون مع الكشف العلمي لقاءً سعيداً .
فالعلم ببحوته وتجاربه . بل والدين بفراسته وإلهامه يدعمان مركز الضمير
والأرادة والقدوة في مجال الأخلاق كطاقة حاثية جاذبة . . فلتعرف إلى
هذه الطاقة إذن مبتدئين بالضمير ، ما هو . . !

إنه بعبارة بعيدة عن التعقيد العلمي — الاحتجاج الذي يصلصل
داخل ذواتنا عندما يستهويننا الشر وتعودنا الرذيلة . ولذا فحاجة الشرير
إلى الضمير ترجع حاجة الخير . إذ الثاني قد راض نفسه فاستقامت
على الطريق ولم يعد في تصرفاته ما يستحق الاحتجاج والنذير ، وهما
وظيفة الضمير ومظهر نشاطه . .

وعلماء الأخلاق يفسرون الضمير هكذا . فواحد منهم وهو العالم

الجليل « هادفيلد » يقول : — « الضمير لسان الخير المقموع عندما يكون الشر هو المسيطر وهو السائد . . ونحن لا يمكن أن نتعرض لوخز الضمير إلا حين يسود الشر ويغلب . »

إذن حاجة الفرد الذي يغلب شره خيره إلى الضمير قوية وعارمة ، وأيضا تشتد حاجة المجتمع الشرير إلى ضمير جماعي يعظه ويزجره ويذكره . والضمير ليس جزءاً من تركيبنا العضوى . ليس قطعة لحم ومضغة دم . بل هو وظيفة ، كالعواية سواء بسواء . وهو بهذه المثابة يحيا بالمران المستمر فاذا أخلد إلى السكون تحلل ومات .

أتعلمون أن « نيرون » عندما ولى الملك بكى بكاء مرا إذا جاءوه بأمر إعدام أحد الذين يستحقون الإعدام كي يمهره بتوقيعه . . أجل ، بكى وصاح : ليتنى ما تعلمت الكتابة . ١ .

ولكن هذا الضمير الذى تترقرق فيه الحياة والورع لم يلبث حين شلّ عن العمل أن تيبس وتحجر ، وتحول إلى قطعة من رخام . ولم يعد له وجود عندما أحرق « نيرون » روما وسفك دم أمه وأرهق الأرض بظلمه وفساده . .

قلنا إن الضمير ليس عضواً فى أجسامنا ، ولكنه وظيفة . وقلنا إنه صوت الخير للقموع حين يسيطر الشر ويسود . . أى أنه قد واحتجاج ونذير .

وقلنا إنه من العسير على الأفراد أن يظفروا بفضائل ليس لها فى روح الجماعة وجود . فإذا كان الضمير موضع حفاوة المجتمع وإجلاله انتشر هذا الشعور الكريم بين أفرادهِ ، فيصغون لصوت الضمير العام

الذى يعمل في كيان الجماعة ويبيها رؤاه . ، وبالتالي تستيقظ ضمائر الأفراد وتهب للعمل الشريف في سبيل الحق والخير والجمال .

فكيف يتأتى للضمير إذن وهو احتجاج ونقد أن ينمو ويعمل في مجتمع يحظر فيه الاحتجاج ويحرم النقد . . ؟ ؟

أجل ، إن الطغيان مزرعة الرذيلة . ، فهو يحجره على النقد ووصايته على الحرية يلاشى قوى الاحتجاج ويخرسها وهكذا يعطل وظيفة الضمير وما الضمير سوى جرس الأذار الذى لا يكف عن القرق موقظا اتجاهاتنا الحيرة النبيلة .

ونفادر الضمير إلى الأرادة . فالضمير الذى يهيب بنا لتتقدم إذا كان الذى أمامنا خيرا ، ونحجم إذا يكون شرا ، تذهب لمحاولاته سدى إذا لم يجد أرادة تنتظره فتلقفه وتجعل من توجيهه ونذارته خطة ماضية ، وسلوكا نافذا .

والأرادة كالضمير ، ليست جزءا من جسدنا الحى ينمو بالغذاء ويعيش بالدم . . بل هى وظيفة تنمو بالمران وتعيش بالعمل .

يقول « هادفيلد » — « الأرادة وظيفة الذات ، والذات لا تحقق تماسكها ووجودها إلا ما دامت تعمل ، وهى تماسك ويلتحم بعضها ببعض حين يكون لها نشاط عام ، وغرض مشترك . مثل الكائنات الحية تماما . فإذا توقف إنسان عن استخدام أرادته ، تأخذ ذاته في الانحلال فورا ، وتساقط كسفا على الفور » . .

إذن فالأرادة وظيفة الذات . وهى تنمو وتبلغ رشدتها بالمران والتدريب . ولو تصورنا إنسانا يعيش في هزيمة دائمة أمام رغباته

الشريرة ، واندفاعاته الرديئة . دون أن يصمد في وجهها مرة وثلاثاً وعشر مرات حتى تتكون له إرادة شاحخة . . . يكون في استطاعتنا بعدئذ أن نتصور المجتمع الانهزامى الذى يمثل أمام قوي الطغيان نفس الدور . والذى يمزق الخنوع والأذعان إرادته شرممق .

إن مجتمعا كهذا تنص ذاكرته مع الأيام بذكريات إخفاقه وفشله فتتلاشى ذاته ، وتتحلل إرادته . وبسرعة تنتقل العدوى منه إلى أفرادها فيتحولون إلى حطام تنص . . حطام يطفو فوق الغباب . . .

ولا يقف الخطر عند ثلم الإرادة وتعطيلها . فالطبيعة الانسانية لا تعرف البطالة ، وهى حين تجد الطريق موصدا أمام وظيفة خيرة من وظائفها ، لا تلقى عصاها وتستريح . بل تتحول من فورها إلى النقيض فتقوض ، وتعيث ، وتنتقم . .

إن الشعوب المريدة هى التى تأخذ الفضيلة بكلمات يديها . وهى تلك التى تحيا عزيزة لا ذليلة ، آمرة لا مأمورة ، مطاعة بقدر ما هى مطيعة . وإنا لنقارن خطأ كبيراً حين نخال النضال لأحراز الإرادة عملاً فردياً محضاً . بمعنى أن الفرد الذى يلتزم نهجاً معيناً يسوق نفسه إليه ، ويلتزم بها به لا يلبث أن تتكون له إرادة قوية تعصمه وتصونه . .

أجل . إن هذا صحيح إذا كنا نريد أفراداً يبرزون في غرض من الأغراض . . كهذه العشرات من الناس الذين يتفوقون على الملايين في الرياضة والفن بيد أن الأمر مختلف جداً بالنسبة للأخلاق .

فالأمة لا يضرها ، ولا يعطل نموها ويحبس عنها مستقبلها أن يبرز من بين ملايينها العديدة عشرة فقط متفوقون في المصارعة أو الملاكمة

أو السباحة . . ولكن يضيدها ويعطل نموها أن يتفوق عشرة أو عشرون أو مائة تفوقاً أخلاقياً يرفعهم إلى السماء بما بذلوه من رياضات قاسية بينما الجماهير كلها هناك تتدحرج على أرض الشر وتتمضخ بوحل الرذيلة . ! !

فإذا كنا نريد سلوكاً فاضلاً للكافة ، فعلياً إدراك ظاهرة هامة . هي أن الناس يتصرفون دائماً أو غالباً وفق القواعد والقيم التي تسود بيئتهم ومجتمعهم . ويكاد يكون من المستحيل أن نجد ناساً أعزة كراماً في مجتمع يرزح تحت وطأة المهانة والدل . . وأيضاً ، يكاد يكون مستحيلاً وجود جمهور يتمتع أفرادُهُ بأرادة حادثة حازمة إذا كان هذا الجمهور يعيش داخل إطار بشع من الحكم المطلق ، أو القوانين المطلقة ، أو التقاليد المطلقة . . كما أن دخل الفرد وثيق الارتباط بالدخل القومي يرتفع بارتفاعه ويهبط بهبوطه ، كذلك دخل الفرد من الأخلاق وحظه من الفضيلة مرتبط بدخل الجماعة وحظها . . وكلما خلت روح الجماعة من مناجم الخير وخاماته ، كلما كان حظ الأفراد من الأفلاس الخلق عظمياً .

ونحن نعلم أن الطغيان تحدّد وقع لأرادة الجماعة . وهو حين يكون طغياناً ظاهراً يسبب لهذه الأرادة متاعب قاسية قد تفضي بها إلى الجحيم الخطير . أو تنزل بها إلى الهوة الفاعرة . . وكلاهما تعطيل لأهم مقومات الفضيلة في الأمة . ألا وهي الأرادة التي تحقق جمال الذات وخيرها وتفوقها . .

وتعادر الأرادة إلى القدوة . فنجد الارتباط بين الاثنين وطيداً ، والعروة بينهما وثيقة . ذلك أن الأرادة لا تهبط للعمل وحدها . بل لا بد

لها من باعث ومنبه . . لا بد لها من مثل أعلى ينادى بها ، وقدوة تتعلق
بها وتحاكبها .

أجل ، فكما تنشط قوة الأبصار بواسطة منبه خاص هي موجات
الأثير الموصلة للضوء ، وكما تنشط غريزة الهرب بواسطة منبه خاص هو
وقوع خطر . . كذلك الإرادة لا تنشط إلا بواسطة منبه ومثير هو
المثل والقدوة .

فالقدوة تجمع شمل حياتنا المبعثرة الحائرة ، وتنظمها حول القيمة
العليا التي تمثلها . وتمنحنا فوق هذا تركيزاً قويا لبواعثنا وأهدافنا ولقد
كان « امرسون » صادقا وحصيفا حين جعل وصيته الرابعة لمن يريد أن
يكون رجلا حقا هذه العبارة المضيئة :

— « تذكر غيرك . . فالعواطف معدية » . . .

أجل ، إننا نذوق طعم العظمة عندما نتذكر رجلا عظيما ، ونعيش
ولو لحظات قصار داخل حياته البهيجة ، وسجاياه الدافئة المشرقة .
وهذه النفوس الشائخة التي حققت أقصى درجات الكمال الميسور
لبنى الانسان . .

هذه التي سجلت ارتفاعا قياسيا في الشجاعة والتسامح والبذل والقوة
والتواضع والدكاء والأخلاص . .

هؤلاء الأفذاذ الذين نراهم ، أو قل نرى أحدهم ؛ فنحب الإنسانية
كلها ونجلها لأنها أنجبتهم . .

هؤلاء الذي تتمثل فيهم القدوة الصالحة ، هل يبيع الطغيان لهم أن
يظهروا ويشرقوا ويضيئوا . . ؟

نحن نعلم أن بعض هؤلاء قد يجيء ظهوره في قومه وفي الناس بمثابة رد فعل للطغيان والقهر . ولكن علينا أن نذكر أن الطغيان إلى جانب هذا لا يمكن القدوة من بلوغ أوجها العظم وانتشارها الرحيب .

إن إنكار « بطرس » للمسيح ، قد ضاعل من جلال قدوته ولو قليلا . . ورجوع « جاليليو » عن القول بدوران الأرض وكريتها تحت وطأة التعذيب اللاحق قد ضاعل من تأثرنا بعظمته . . والمال الذي ألهى به الطغيان رجلا مثل « فولتير » قد أخذ منه كقدوة ما كان وكنا معه في حاجة إلى بقائه وتفوقه . وإن ما تركه العظماء الإنسانيون من أثر وما طبعوا به البشرية من نشاطهم رغم الظروف التي كانت تعمل دائبة لعرقلة عظمتهم ، وتقليص قدوتهم — ليصور لنا المغام الفذة المضاعفة التي كنا سننالها منهم لو تركهم الطغيان ينمون ، وينتشرون ، ولو لم يكن يتعقب عبقرياتهم الخلاقة بالأذى والتشويه . .

حيث يوجد الطغيان إذن يكون حظ الناس من القدوة الملهمة الحافزة ضئيلا . فالطاغية بوسائله الكثيرة يحاول مسح العظمة الناشئة التي ستكون قدوة سامقة .

فهو يرشو بالمال ، ويضرب بالسوط ، فإذا خاب سعيه وفل سلاحه . أطلق الأكاذيب في أعقاب القدوة ليشوه بهاها ، ويطمس معالم عظمتها . وحين تراجع سيل الأراجيف التي انطلقت وراء الأنبياء ، والفلاسفة والمصلحين ، ورواد الفكر . تجد ظاهرة تثير الضحك وتدعو للفتنة . . ولا يقف بأس الطاغية ومكره السيء عند هذا الحد .

بل إنه يفعل ما يفعله الاستعمار ، فيصطنع قدوة زائفة يقرع لها

الطبول والأجراس حتى يلقي في روع الناس أنها النور الذي هبط إليهم من ملكوت السماء . وعليهم أن يسروا إلى حيث تقودهم وتهديهم .

والويل للجماعات التي ترتفع في سمائها مثل عليا زائفة ، وزائفة ، وباطلة . إنها الفجر الكاذب الذي يضل العابدين عن فجرهم الصادق المرقوب . فالطاغية لا ينبغي له أن يصطنع القدوة الفاضلة ، وحتى لو شاء ذلك لا يستطيع سبيلا . فيولى وجهه شطر الغوغاء في أخلاقهم ، والغوغاء في تفكيرهم .

أولئك الذين يسمون النفاق أدبا ، والحياة دهاء ، والنفس إنقاذا ، والسرقة تضحية . . (١٩)

يعمد الطاغية إلى هؤلاء ؛ فيصطنع منهم حاشيته ، ويصطنع القدوة التي يفتن بها الجماهير التي يبرها طلاء الصنم ويشجها خواره ، فتضيع الكثير من وقتها ، ومن أمنها وإيمانها ، مطوفة حول هذا الغبار الباطل . . وهناك في أركانها القصية يسير روادها الحقيقيون وحدهم . .

وبعد حين تفيق الجماعة من الغيبوبة التي أوقعها فيها مكر الطاغية ، تفيق كلية خائرة العقل والقلب والعزم ، وتمضي تبحث عن الشموس فلا تجدها . . لقد ازاورت عنها . وهكذا نحرم الانتفاع بعظمائنا الرواد وهم أحياء . فإذا ذهبوا ومالت شمسهم للمغيب . ذهبنا نقنات من ذكراهم

كان « نوم بين » سكيلا عريدا سافلا أقدر من أن يطهر ، فلما مات صار « شيخ المحررين » و « أعظم مجاهد في سبيل العقل » و « آية الله الكبرى » إلى آخر النعوت الفاضلة والصفات الحميدة . .

وما قيل عن « توم بين » بعد موته هو الحق وأما الذى نسج حوله وألقى فوق رأسه حيا فقد كان ثمن صموده ضد الطغيان ، وتأليب الناس عليه ... طغيان الحكم الذى كان بعض زعماء الولايات المتحدة يريد فرضه فى ثياب تسكرية ، والذى طعنه طعنة قاتلة فى كتابه « حقوق الإنسان » . وطغيان التقاليد الذى شن « بين » عليه هجوما مدمما فى كتابه « عصر العقل » .

فمن أجل ذلك ألحف المعوقون لحركة التاريخ فى النيل منه حتى لا يؤمن الناس بآرائه ، ويمضون ضد مصالحهم تحت لوائه . . . ومحمد عبده وأستاذه الأفغانى ، شنت عليهما اشاعات دنيئة ، أيسرها أنهما كانا فاجرين يجمعان الأموال لمجلة العروة الوثقى ، ثم ينفقانها على اللذات الرخيصة فى باريس . . .

ومحمد عبده بالذات — كما سمعت أذنائى — فى قلب الجامع الأزهر ، مات ولسانه مدلى على صدره . . .

قلت يومئذ للرجل الذى يروى هذا ، ولماذا تدلى لسانه هكذا . . ؟ فأجاب : هذه علامة يفضح الله بها السكارى عند الموت . . . ولقد صدقته يومها ، وملأت الجوف تعوزا بالله من الشيطان الرجيم . . . لا شئ يرسى قواعد الفضيلة فى أمة مثل القدوة المتمثلة فى عظمائها الصامدين . . . وأرجو القارىء أن يدرك مفهوم العظمة فى حديثنا . . . إنها شئ مختلف تمام الاختلاف عن المفهوم الترابى الذى يقصده الناس فى حديثهم العادى . . .

فالعظيم الذى نعينه بكلمة عظيم ، ليس هو صاحب المنصب الرفيع ،

أو الجاه العريض ، أو المال الوفير . بل في بلاد كبلادنا لا يكاد يبلغ هذه الثلاثة من الناس إلا الذين يتخلون عن كافة عناصر العظمة الحقيقية ومقوماتها .

نحن نعى العظمة الصامدة الجليلة التي تتحدّى مواضعات عرفها المنحل ، وتتفوق على وصولية البيئة ، ونفعيتها ، وجهالها ، وعجزها .. إن عظميا واحداً من هذا الطراز يفعل في أمة ما تفعله عشر جامعات . .

عندما فرغ « ماوتسى تونج » قبل أن يعرف طريقه ، ويختار هدفه عندما فرغ من قراءة كتاب عن « بطرس الأكبر ، ووشنطن ، ولنكولن وروسو ، وتوم بين . » ، قال وعينه تدور على مشاكل بلاده : « إن الصين في حاجة لمثل هؤلاء العظماء . ولقد عرفت الطريق الآن » . . . أى طريق عرفه ماوتسى من هؤلاء . . ؟

إنه طريق الكدح النحيل من أجل التقدم الانسانى الظافر . والقبس الذى مس « تونج » من سيرة أولئك الأفذاذ ، هو الذى رفعه من فرد عادى إلى رجل يعكف على تحرير نفسه . ثم على تحرير أمته . ومثل آخر لماوتسى نفسه يظهر أثر القدوة العارم فى خلق النماذج الفاضلة والجماعات المؤمنة . فذات يوم وقع أحد جنود جيشه المحارب أسيراً فى يد الجيش الوطنى الذى كانت تقوده حكومة « كاي شيك » كان حطاماً دامياً ، يرتجف من البرد ويلعق جراحه من الجوع . وشرعوا يستجوبونه ؟ فسألوه :

— هل تعرف ماوتسى تونج ؟ . .

فبدلاً من أن يتجاهل وينكر تحت وطأة العذاب الذي يعانيه تهلل وجهه وأشرقت أساريره . حتى لكأنه وقد سمع كلمة « تونج » قد سمع نداء النجدة وأجابهم قائلاً :

— « نعم أعرفه . . هو رجل عظيم البساطة ، عظيم العذوبة إذا تكلم فهمه بسطاء الناس ، وليس عليه إلا أن يدعو فنسير وراءه إلى أى مكان نريد . . . »

« إنه دائم الاهتمام بالآخرين ، بينما لا يهتم بنفسه أبداً . . »
« إنه ينام معنا على الأرض دائماً أثناء الحملات ، ويأكل من طعامنا نحن الجنود ، ويعطينا ما يهدى إليه من ثياب وأحذية . وفي آخر معركة خضناها معه رأيتُه بنفسى منبطحاً على الأرض يطلق النار من بندقيته . . »

« نعم أعرف ماوتسى تونج . إنه الرجل الذى أعطانى بعظمة نفسه ، وجيل كفاحه ، وبأخلاصه وتواضعه — غرضاً أعيش من أجله ، وقدوة أسير فى ضيائها . بعد أن كنت تائها ، وتافها . . . »
جندى هذا . . أم فيلسوف . . ؟

لكن القدوة العظيمة حين تمس الناس تفعل فيهم المعجزات وعندما نصافح قدوة أمينة تتحول فى اللحظة والتو إلى ما لم نكنه قبل أن نصافحها ونراها .

ألا إن الطاغية — أى طاغية — ليعبى كل مواهبه الشريرة الجارحة فى معركة دائبة وحشية ضد كل عظيم صادق العظمة . وليس يبالى فى سبيل الاستئثار بالأمر . وبالسلطة أن يحرم أمته أجل وسائل

رقبها المادى والأدبى . وهى القدوة المتألفة الهادية .
ولماذا يهتم الطاغية بالقدوة وبالفضيلة . وهو — مهما يبدأ طاهراً
وقاضلاً — لا يلبث أن يتحول إلى قطب عظيم من أقطاب الضلال
والأفك . . . ؟ !

لنقرأ الآن للراهب الجليل « سافونارولا » يحدثنا عن أخلاق
الطاغية ، ويصف نكبته الماحقة على الفضيلة وعلى الأخلاق :
— « إن كلمة طاغية معناها : رجل من أكثر الناس شراً . يعمل
على ابتزاز كل شيء لنفسه ، ولا يعطى شيئاً للآخرين . وهو عدو الله
وعدو الناس . .

« والطاغية متكبر جشع محب لشهواته . .
« ولما كانت هذه أسس الرذائل كلها ؛ فإن فيه كل الرذائل التى
يمكن أن توجد عند إنسان . وعلى ذلك النحو تصبح كل حواسه ملتوية . .
تفسد عيناه بالتطلع إلى الفسوق . وتفسد أذناه بسماع التملق . .
« وهو يرشو القضاة ، ويسرق الأرامل والأيتام ، ويظلم الشعب ،
ويحارب أولئك الذين يزينون له الاحتيال على الجماعة . .
« ويقتله الشك فيصطنع الجواسيس فى كل مكان ويرغب فى أن
يبدو الجميع أمامه وعلى وجوههم الخجل والعبودية . .
« ولذا فحيث يوجد طاغية لا يستطيع الناس أن يعملوا ،
أو يتكلموا بحرية . .
— لا يزال « سافونارولا » هو الذى يتكلم . .

« والطاغية يريد أن يحكم غيره بالقوة . يريد أن يرتفع فوق أقرانه . وحتى فوق من هم أفضل منه . . »

« وإذا هو لا يستطيع أن يستمر في مثل تلك الحالة ، ولا يستطيع أن يحصل على رغباته بغير أموال كثيرة ؛ فإن كل طاغية جشع ولص . . »
« ولما كان غرض الطاغية سيئاً ؛ فإن كل ما يصدر عنه لا بد أن يكون سيئاً . . ولذا فهو لا يستطيع أن يفكر في غير السوء ، ولا يفعل إلا سوءاً . وحتى إذا أخطأ ففعل خيراً ، لا يفعله لوجه الخير . . بل لينال الشهرة ويكتسب الأنصار ليظل محتفظاً بالحالة الشاذة التي هو عليها . . »

ثم يختم الراهب الجليل حديثه عن الطاغية محذراً فيقول :
— « احذى يا فلورنسا أن يظهر فيك طاغية . ؛ فإنه سبب كل الآثام التي يرتكبها الشعب . . »
إذا كان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . . ، وإذا كان الناس على دين ساداتهم وحكامهم . . ، فكم يكون الظلام وييلا إذا كان السلطان الحاكم طاغية . . ؟ !

ماذا يمكن أن تلتبس الأمة منه من فضيلة وخير . . ؟
لا تصدقوا أبداً أن الطاغية يستطيع أن يكون فاضلاً . وحتى لو بدأ كذلك . بل لو بدأ قديساً لن يلبث حتى يتحول إلى شيطان رجيم . ولقد صدق « نهرو » حين قال : « السلطة المطلقة ، مفسدة مطلقة » أجل ، إنها مفسدة لا منهاج الطاغية فحسب ، بل ولروحه وأخلاقه . . وإذا كان يمكن أن يجتمع الماء واللهب في إناء واحد ،

فعمى أن يمكن اجتماع الفضيلة والطغيان في فرد . . . ! !
فالأمر كما يقول الفيلسوف الفرنسي « حويو » في كتابه
« التربية والوراثة » :

— « إن الأرادة باستعمالها القسوة تنتهي إلى اختلال عميق ؛
فهى إذ تعتاد على ألا تلاقى في الخارج أى عائق ، كما يتفق للطغاة المستبدن ،
تصبح عاجزة عن مقاومة اندفاعاتها وعندئذ تتعاقب عليها ميول
متناقضة أشد التناقض ويصيبها عطب حقيقى ؛ فيرتد الطاغى طفلا ،
ويستسلم لنزوات طائشة متناقضة . فتكون قدرته العظيمة في الخارج عجزاً
حقيقياً في الداخل » .

ألم يحدث ذلك التناقض والعطب للدوتشى الذى مضى يلقى بزعماء
الشوار المسلمين من الطائرات المحلقة في جو السماء ، ويدك المساجد دكا
على آلاف من الساجدين والراكعين . . وفي نفس الوقت منح نفسه لقب
« حامي حمى الاسلام » . . ؟ ؟ ! !

إن أنفاس الساعين لتقطع إعياء قبل أن يظفروا بطاغية واحد .
واحد فقط ، كان فاضلاً وشريفاً .

عرفنا إذن ، كيف يحرم المجتمع الخاضع لنير الطغيان من مقومات
الفضيلة . وهى ، الضمير ، والأرادة ، والقدوة . فهل هذا هو كل
الحسran الذى يلحق بسلوك الأمة ويشوه روحها من جراء الحكم
المطلق . . ؟

لا . فبفقدان هذا الثالوث أو ضعفه وإنهاكه . تتحلل مناعة الجماعة
وترعى في كيانها كافة الموبقات التى تنجم عن هذا اللون من الحكم .

والتي تتعامل معه طردا وعكساً . فيوجد حيث توجد . وتوحد حيث يوجد . فما هذه اللويقات ، وما خطرهما على أخلاق الجماعة ؟ . .

الأشياء ، هي المادة السرية للمجتمع المضطهر . .

عندما تشند وطأة الكبت على المجتمع يفعل مثلما يفعل المراهق المكبوت تماما فكما يتجه الأخير في صيدل تعويض عجزه وتوكيد ذاته وإعلان شغفه بها إلى العادة السرية ، حيث يتخذ منها شاشة سحرية يعرض عليها من مشاهد الواقع المتخيلة ، ما يشبع رغبته المريضة المكبلة يفعل ذلك أيضا المجتمع المضطهد المكظوم ، فيتجه شطر عادة سرية يسرب خلالها كبته ، ويهرب إليها من الواقع المرير الذي بعدت عنه شقته ، وعز عليه مناله . . وهذه العادة السرية للمجتمع المكبوت الذي تسلط عليه طائية هي : الأشاعة . .

وا شاعة بما تتضمنه من كذب ، ولغو ، وبهتان ، تمثل عرضاً لمرض خلقي .

ألم تر إلى مريض يشكو آلاما في معدته ، أو في مفاصله بينما يقرر الكشف الطبي الواعي سلامة المعدة ، ووثاقة المفاصل . ؟

إن العلة الحقيقية لصاحبنا ليست عضوية . بل نفسية ولقد تجول الاضطراب الانفعالي إلى اضطراب جسماني فكانت آلام معدته ومفاصله . كذلك تشيع في المجتمع أمراض خلقية . لا تكون في حقيقتها أكثر من اضطراب انفعالي ، وقلق جاثم ، يتسللان في كيان الجماعة ، فيدمران سكينتها ، ويثيران هداها . .

ويربو هذا الاضطراب وذاك القلق كلما أضنى الشعب إلى المنطق التسويغى الذى يررب به الطغيان وجوده دائماً . وهو حاجة الأمة إليه لتربيتها ، وتأهيلها للحرية . . فبمثل هذا الأفك الباطل ينبعث فى شعور الجماعة إحساس ناجح بالذنب وبالخطيئة ، وشعور طافح بالدونية والضعفة . إن هذا القول يحرك الرواسب الدفينة فى المجتمع المستعبد أو الذى طال عليه الأمد يجرجر سلاسله وأغلاله ، ويوقظ إحساساً ضاراً يلح عليه بأنه شئء تافه . . ويرد سعيه الحثيث فى سبيل النمو الصاعد ، يرد هذا السعى المبارك تراباً فى تراب . .

وانتزاع الثقة من وجدان الجماعة على هذا النحو ، وإرباء شكها فى قدرتها وفى استعدادها ، يسلبها الأمن الانفعالى . ؛ فتسبم وجهها شطر الأشاعة تنسج منها هيكلاً لأحققادها التى تصير مقدسة . وتسلى نفسها ، بالكذب على نفسها ، وبخداع ذاتها . وتعيش فى أخطبوط معتم من هذه العادة السرية التى تنهش عافية عقلها وعافية عواطفها ، وهى لاتدرى . . والعجيب أن الطغيان أصلح البيئات والحقول التى يترعرع فيها ميكروب الأشاعة ، مهما يتظاهر الطاغية بمقته للأشاعة وتحديه لها . . إنه يكافح الأشاعة المضادة فحسب ، بينما هو يشد بأشاعاته الخاصة أزر حكمه وسلطانه . .

انظروا . . لقد بلغ عدد الذين حوكموا وسجنوا فى ألمانيا النازية بتهمة « الأشاعات المخربة للريخ » ثلاثمائة فى أعقاب حريق الريخستاج . عدا الذين سبقوهم والذين لحقوا بهم . . ومع هذا فقد كان للنازى وزارة خاصة للأشاعات ، ووزير مختص بها هو « جوبلز » .

والعجيب أن هذه الأشاعات كادت تخضع أفئدة الناس في كل مكان لهتلر . حتى بعد موته وهزيمته ، وبعد اكتشاف الدور البشع الذى مثله وأداه . ولعل إحدى الأذاعات الشرقية العربية لا تأخذها العزة بالأثم إذا ضربناها مثلا لهذا الافتتان الساذج الأبله بأشاعات جوبلز عن سيده الراحل هتلر . ففي مساء الثلاثاء الموافق — ٨ سبتمبر ١٩٥٤ — قال المذيع معلقا على برنامج خاص عن ألمانيا « إن هتلر هو ذلك الرجل العظيم الذى تدخلت الدنيا في مشيئته فأفسدتها » . . . ١١١

والمجتمعات المريضة الواجفة تتسلى كما ذكرنا بالأشاعة ، وتلتهمس منها العزاء والأمل ، ومن ثم فهي لا ترحب بها بحسب ، بل وتضيف إليها الكثير الطيب من خزائن غيظها الموهوب ، حتى حين تكون الأشاعة ضدها ، وضد صوالحها . . ١٢٠

والأشاعة تفسد العقل وتلبس الحق بالباطل ، فيضل الناس بها ضلالا بعيداً . . فمثلا في تلك الأيام — خلال الحرب العالمية الماضية — حيث كنا شديدي الحاجة إلى دعم قضية الديمقراطية وشحن الإيمان بالنظام النيابي السليم ، انرجح بهذا الإيمان المعركة من القصر الذى كان يشاغبنا ويؤذينا . . في تلك الأيام ، حيث كان واجبنا يتمثل في الاهتداء بمثل أعلى تتجسد فيه الديمقراطية وتتمثل ، ذهبنا نحن مخدرين بالأشاعات النازية ، فاتخذنا عدو الديمقراطية وجلادها قدوة وإماما . . « ١١٩ »

وإني لأتصور نفسى يومئذ وأنا فى غض العقل حدث السن ، بل وأتصور الدين كانوا أنضج عقلا ، وأكبر سنا . كيف كانوا متيمين

بهتلر . . كنا نجده في كل شيء . في النسيم الذي نشمه ، في الموسيقى التي نسمعها ، في الأحلام التي نراها . .

وفي صفوف الجماهير الصالحة الورعة : انطلقت كالريح الأشاغات التي تطوعت بها علتنا واضطرابنا . .

والرؤى الصالحة التي رأى فيها خيار الأمة ومؤمنوها ، رأوا النبي عليه السلام يعانق « هتلر » . . ورأوه أيضا يمسح صدره يمينه ويسميه « محمد هتلر » . . . !

إن الأشاعة عندما تصير غذاء عاما وعلفاً دائماً لوجدان الجماعة تفسد فيها ملكة الإدراك ، والنفاذ الصادق إلى بواطن الأمور وحقائقها ، وهذا هدف أساسي للطاغية — أي طاغية يكون — فتحويل الطاقة الذهنية للجماعة إلى لغو وهذر يكفل له البقاء والسلامة .

وهل نستطيع أن نزرع الفضيلة في جماعة فسد إدراكها وضاع يقينها . . ؟؟

إن مثل هذه الجماعة لم تعد تسمع وتبصر وتقدر إلا من خلال أكاذيب الطغيان وإشاعاته . . والطاغية كما رأينا قبلا ، لا يمكن أن يكون فاضلا ، والتالي لا يمكن أن يصدر عنه عمل فاضل . ومن باب أولى أكاذيبه . لن تكون فاضلة أبدا . . . ! ! !

إن نبأ « سافونارولا » يأخذ بخطامنا إلى الحقيقة في هذا الموضوع . فذلك الراهب الجليل صنع من أجل الحرية والفضيلة ما يفتن الألباب . . بث في روح قومه ولاء دينيا للديمقراطية ، وللعدل ، وللفضيلة . وآمن

به الناس كأنه نبي ورسول ، ومع هذا ، فقد تحول إلى زنديق ، ومفسد للأخلاق ، ومثير للفتن والحراب . .
هل تحول حقيقة أم بهتاننا . . ؟

بل بهتاننا ؛ فقد كان هناك « بابا » من آل بورجيا بذ جميع فجار زمانه ، أطلق الأشاعات الكاذبة في أعقاب الرجل الفاضل تعاونه في هذا قوى الاستبداد والشر وضلل القطيع الذي يسمى الشعب (١) فاندفع يهتف بالموت للكافر . . لم يكن الكافر الذي يعنونه ذلك ، البابا الذي عاشر بنته معاشرة الزوجات . . ، بل كان « سافونارولا » الزاهد العابد الذي علمهم الفضيلة وأحيأها في نفوسهم . .

وتحت المشنقة التي أعدت له . نظر إلى بعض تلامذته وقال :
« لم أكن أنظر أن تتحول المدينة كلها ضدى بهذه السرعة . . اجعلوا الايمان ، والصبر ، والصلاة أسلحتكم » .

وأصيبت « فلورنسا » بردة خلقية لم يكن منها بد . . ورأى الدين هدام « سافونارولا » من قبل . الذين أخذهم من المواخير وموائد القمار إلى المسيح وإلى ملسكوت السماء . رأى هؤلاء ، وكم كانوا كثيرين ، الويك الذي صب على معلمهم وهاديتهم ؛ فشكوا واسترابوا ؛ ثم كفروا . ثم ازدادوا كفرا . . وسرعان ما حملتهم أقدامهم وأنفسهم إلى ما ضيهم الذي حررهم منه « سافونارولا » وعادت « فلورنسا » من جديد ترقص على أنغام الضلال في مأتم الفضيلة . . .

في الحياة الحرة الطلقة تموت الأشاعات فور ميلادها . وبذلك ينحلو السبيل بين المجتمع وبين الحياة العقلية الرفيعة التي يبصر بها رؤى الجمال

والعظمة . . . ومثل هذه الحياة العقلية ضرورية . بل لا شيء يبلغ مبلغها من الحتمية لوجود مجتمع فاضل ذي سلوك سوى رشيد . وهذا ينقلنا إلى حلقة هامة من حلقات الحديث .

المخططات الخلقية ، ابن شرعى للمخططات العقلية

أنتعرفون العبارة الجليلة التى استهلّت بها مؤسسة الأمم المتحدة للتربية والثقافة دستورها . . . ؟

ربما يكون من المفيد أن نبدأ بها هذا الجزء من الحديث .
— « تصرّح حكومات الدول المشتركة فى هذا الدستور بالنيابة عن شعوبها ، أنه ما دامت الحرب تبدأ فى عقول الرجال ؛ فإنه ينبغى أن توطد دعائم الدفاع عن السلم فى عقول الرجال أيضا » . . .
انظر . ١ ، ما دامت الحرب تبدأ فى عقول الرجال ؛ فدعائم السلام يجب أن توطد فى نفس العقول أيضا . وهذا حق . ، ومثله فى الصدق أن نقول :
— « ما دامت الرذيلة تبدأ فى عقول الرجال ؛ فإن دعائم الفضيلة يجب أن توطد فى عقول الرجال أيضا . »
وهنا يلقانا سؤال :

— هل تبدأ الرذيلة فى عقول الناس . . ؟

وقبل الإجابة على سؤالنا هذا ، يطيب لى أن أتخيل مفارقة طريفة فى ملكوت الله الرحيب . .

أتخيل علماء الأرض وعيونهم على المنظار الشاخص إلى الرحاب القصية فى الفضاء ، متطلعة إلى المريع فى تمنن وفحص . ثم أسمعهم يقولون :
« ليس فى قدرة الأحياء أن يعيشوا على سطح المريع لأن رطوبته كفيّلة

بقتلهم . . ولذا نرجح — نحن علماء الأرض — أنه كوكب غير مسكون . ١
وأتخيل علماء المريخ ، في نفس للشهد تشخص أبصارهم إلى كوكبنا ،
ويقولون : « ليس في قدرة الأحياء أن يعيشوا على سطح الأرض . لأن
حرّها كفيل بأن يقتلهم . ، ولذا نرجح — نحن علماء المريخ — أن
الأرض كوكب غير مسكون . ١١

إن مثل هذه التخمينات يتبادلها الأخيار والأشرار . . يتبادلها سكان
كوكب الفضيلة . ، وسكان كوكب الرذيلة . .
فالأولون يستبعدون أن يكون أصحاب الرذيلة أحياء ، لأن حرّها
كفيل بقتل أرواحهم . . ١
والآخرون يستبعدون أن يكون أصحاب الفضيلة أحياء ، لأن رطوبتها
كفيلة بأن تهرأ وجودهم . . ١
وكلا الفريقين مقبل على هوايته . شغوف بها ، فمن الذي يفصل
بالحق ، ويقضى باليقين ؟ . من الذي يدلنا على الفضيلة الصحيحة ،
والرذيلة الصحيحة ؟ .

الحق أننا نحن سكان هذا الشرق العربي أحوج ما نكون إلى إدراك
صحيح وجديد للأخلاق . في حاجة إلى تحديد واضح لمفاهيم الفضيلة
والرذيلة . والخير والشر . فليس هنا شيء التبس فيه الحق بالباطل .
وكثر حوله اللغط وقل الفهم الصحيح . كما حدث للأخلاق والسلوك . .
عندما أفرغ « المحضر عثمان حموده » رصاصاته الست في حياة
ضحيته فأرداها . استدعى من فوره إحدى قريباته ، ليستودعها بعض
متاعه وآخر كلماته ووصاياها . .

أتدرون ماذا قال لها . . ؟ كلكم يامن طالتم قصته في الصحف
وقعت أعينكم على وصيته . . ولكنى أحسب أن قلة نادرة منكم هي التي
وقفت أمام هذه الوصية في تأمل واعتبار .

لقد قال ، وهو يعلم أنه ذاهب إلى القصاص . تاركا الحياة والأحياء
وراء ظهره المدير . . قال وهو يعيش في الساعة التي تقرر له أبواب
النهاية . . قال العبارة التي يقولها المدفون إلى الكفن ، فياخصون بها
حياتهم وثقافتهم وكيانهم جميعا . . فإذا كانت العبارة التي لحصت حياة
« عثمان » وثقافته وكيانه . ؟

إنها أصدق ممت — في رأيي — للمجتمع الذي نعيش فيه . المجتمع
الآبله ، المنافق ، السطحي . .

قال القاتل وقريبته تسأله : هل تريد أن أقول لأهلك شيئا . ؟
— « نعم ، سلمى على خالتي وأختي ، وقول لهم أوعوا تبصنوا من

الشباك » . . ١١١

احذرى يا أخته أن تنظري من النافذة . . ١

هذه هي الوصية الخلقية الفاضلة التي يزجها وهو ذاهب إلى ربه
شاب أنهك الرذيلة وأضناها . . فهو باعترافه ، قارف خيانة بشعة لرجل
في مكانة خاله . . قارف خيانتته مع الأم أمام بنتها . ، ثم مع البنت الطفلة
أمام أمها . . ثم سفك الدم ، وأزهق الروح ، وقتل النفس التي حرم
الله قتلها . . ثم أطلق خوار الفضيحة في غير حياء أو أناة . .

ثم ماذا . . . — لا تنظري من النافذة يا أخته . . فتلك هي
الرذيلة ، تلك هي اللوبقة ، تلك هي الخطيئة التي لا تطهرها مياه البحار !

مجتمع عفن يفكر تفكيراً عفناً ، ويشيش داخل تقاليد عفنة . .
ولماذا هو كذلك . . ؟ الطفيان . . فالطفاة الذين تواكبوا على حياته من
قديم الزمان ، وتعاقبوا على أرضه لم يتيحوا لعقله فرصة التبصر والتألق .
بل شحنوه شحناً ممتاً بخرافاتهم وخذاعهم .

إن « عثمان حموده » هذا حفيد للرجل الطيب الذي عاصر
« السلطان سليمان » وكلنا مثله حفدة أولئك الآباء الذين أصدر فيهم
« سليمان المذكور » مرسوماً من مادتين .

الأولى ، تجعل جميع الأرض المزروعة ملكاً له . وأصحابها أجراء
عاديين وملزمين لا مالكيين . .

والثانية ، تحرم على المرأة أن تخرج في الطريق العام غير متنقبة . فمن
تفعل وتخرج سافرة . تزد في شوارع المدينة ممتطية حمراً بالملقوب
أى أنه يسرق شعباً ، ويغتال أمة . . هذه فضيلة (١)

أما الرذيلة ؛ فهي أن تسير المرأة وائس على وجهها حجاب . . (١)
تماماً كما فعل « المحضر القاتل عثمان » فهو يمرح ويرعى في أعراض
الناس . ؛ ويقتل في استخفاف ، ثم يتجشأ وصية كبرسوم السلطان
سليمان ، فينهى أخته عن النظر من . . « الشباك »

ألم أقل لكم إننا أبناء الدين لفهم تقاليد الطغاة في مثل الضباب . ١٤
العقل وحده هو الذي يستطيع أن يعطى مفاهيم صادقة واعية لما
هو فاضل ، ولما هو مردول .

وحيث يوجد التفكير الحر للتألق . . تستطيع أن تبصر موكب
الفضيلة يحتشد ويتجمع ليبدأ في هذا المكان رحلة الاكتمال الصاعد

والسلوك القويم . . وأما الانحطاط العقلي فهو الأب الشرعي للانحطاط الخلق . . هو أبوه وأمه وحاضنته وحامي حماه . .
فلنر الآن كيف هو كذلك . . ثم لنر أثر الطغيان في انحطاط العقل وعرقلة نموه ومسعاها .

في الكتاب المقدس . نلتقي يسوع يقول :
— « . . وأنا أطلب من الأب ؛ فيعطيك معزيا آخر ليحكث معكم إلى الأبد . روح الحق . . »

ما هو روح الحق الذي سيمكث معنا إلى الأبد ؟ . .
إنه العقل ، وليس هناك شيء سواه يستطيع أن يملأ رحاب هذه الآية المقدسة . .

وفي القرآن الكريم . تبهرنا الآيات الهاتفة بالاستقامة والسعي والتفوق إذ تراها مختومة غالباً بقول الله سبحانه « لعلكم تعقلون » ،
« لعلهم يفقهون » ، « لعلهم يعلمون » .

ويصور الرسول قيمة العقل في حديث طريف فيقول :
— « عندما خلق الله العقل . قال له : أقبل ، فأقبل . . ثم قال له : أدبر ؛ فأدبر . ؛ ثم دعاه وقال له : اذهب ؛ فأنت لعبادي سلطان وعليهم شهيد . إياك أسأل ، وإياك أعطى ، وبك أحاسب » . . .

ثم يبين في وضوح أكبر ، الارتباط الوثيق بين العقل والسلوك ؛ فيرفع للسؤولية عن الناس في الحالات التي يتوقف العقل فيها عن أداء وظيفته سواء كان ذلك طارئاً كالأغماء ، أم مقبلاً كالجنون . . ولقد كان « توما الاكوينى » يقول :

— « إنه لما كان كل من العقل والایمان هبة من هبات الله . فهما بالضرورة متوافقان . » ومثل هذا نقول : « إنه لما كان كل من العقل والفضيلة ضرورى لسعادة الانسان ؛ فهما بالضرورة متوافقان . »

الآن إذن نعلم الأجابة عن السؤال الذى طرحناه آنفا إذ قلنا : أصبح أن الرذيلة تبدأ فى عقول الرجال . . ؟

أجل إنه صحيح . وعندما يذهب عقلك فى إجازة (١) يرفع الله عنك جميع المسئوليات . . وما دام العقل مناط المسئولية الأخلاقية ؛ فلنبداً منه المنهج الفاضل لمسئلة السلوك والأخلاق .

فمنذ بدأ الانسان والأمر كذلك . والعقل هو الذى كان يعين لنا فضائلنا ورذائلنا . . فيوم لم يكن مع البشرية وحى ودين ، لم تكن بغير أخلاق . بل كان لها فضائلها وأخلاقها التى تهب المجتمع ثباته وأمنه .

فمثلا كان القتل جريمة ورذيلة . . ؟ فمن الذى جعله كذلك . .

العقل . الذى أبنأهم أن التسامح مع هذا العمل سيفنى القبيلة ، ويسبب من المشاق والعطب ما يوقف النمو ويعطل الحياة . وهنالك صار القتل جريمة مرذولة . ثم وضعت التشريعات التى تؤكد ذلك وتنظم له العقوبة والقصاص . فى شريعة حمورابى التى لم يكن فيها حظ من وحى ولا نصيب من دين . تقرأ هذا النص الرائع الذى سبق اليهودية والمسيحية والاسلام . « العين بالعين ، والنفس بالنفس ، والسن بالسن . وفى الأطراف دية » . . . ١١١

والعقل هو الذى اكتشف أخيراً ، ولا يزال يكتشف المنابع الحقة للرذيلة . ويضع الوسائل المجدية الفعالة فى العلاج الخلقى . فصلته بالسلوك ،

وحتميته لتعاليمه وترقيته لا يسكران أبدا . . وكيفما يكون عقلك ، يكون سلوكك أيضا .

وقد يسألنا سائل : أنت ذكرت في - هذا . . أو الطوفان - أن الوصف الحق لخطايانا أنها أمراض .. فهي تبدأ أخطاء في سلوكنا . ؛ فإذا رسخت صفة الأدمان تحولت إلى مرض خلقى .. وما دام ذلك كذلك . أى ما دامت رذائلنا وخطايانا مجرد أمراض ؛ فما صلة العقل إذن بقضية السلوك والأخلاق ؟

أليس يصاب بالأمراض العضوية أناس بلغوا أرفع منازل العقل والدكاء . ، وإذن فقد يكون حالهم مع المرض الخلقى . ؟ ونجيب بأننا لانضع الحالات الفردية ، والمثل الطارئة موضع القاعدة .. هذا أول .

والشئ الثانى ، هو أن الذين يحملون عقولا ذكية حسيفة مسيطرة قلما يصيبهم المرض الجسمى بنفس الضراوة واليسر اللذين يصيب المرض بهما من هم أدنى منزلة فى الدكاء وحظا من العقل . . ذلك أن العقل الدكى الصارم ينأى بأصحابه عن دواعى العلة . من نخمة فى الأكل ، وإفراط فى السهر ، واستسلام للشهوة . شهوة النفس وشهوة الجسد . . وهو بهذا يؤدى دوراً وقائياً هاما يتحاشى به الكثير من أمراض الجسم . وكذلك يستطيع أن يقوم بنفس الدور فى تحامى الأمراض الخلقية .

فالمرض الخلقى يجتاز أدواراً عدة قبل أن يصير مرضا . ويستطيع العقل الصارم البصير أن يحتجزه عند أولى هذه المراحل أو خلالها . . فهو يبدأ رغبة . ، ثم يصير سلوكا . ، ثم يكون عادة . ، ثم يغلب عليه

الأدمان الضاغط . فيصير مرضاً خلقياً مقبلاً . . وهكذا يواجه العقل فرصاً كثيرة يستطيع بها أن ينقذ الضحية من سوء المصير .

ثم إننا نتحدث هنا بصفة أكثر عن عقل الجماعة . . فالمجتمع ما لم يشع فيه نور العقل لا يمكن أن يكون فاضلاً بل ولا يحق له أن يطمع في إحراز الفضيلة .

وعقل المجتمع يعطيك فكرة كاملة عن شخصيته ، وعن سلوكه . . فعندما كان العقل - غائباً - أعنى عقل غابة ، كان هناك سلوك الغابة . . وعندما كان العقل - إقطاعياً - كان تمت سلوك الأقطاع بفضائله ورذائله . . واليوم والعقل صناعي ؛ نجد سلوك الآلة وأخلاق الآلة . .

وعندما يكون العقل - مسيحياً - نجد أخلاقاً مسيحية وحضارة مسيحية . . وعندما يكون - إسلامياً - نجد أخلاقاً إسلامية . .

ولو أن عقل « آل كابوني » وتفكيره توفر لهذا الشيخ الورع الذي ينهى الناس عن تعذيب هرة . ، لصار هو آل كابوني . . ! ومن الخير أن أعترف بأنتى كنت من أكثر الناس جحوداً لهذا الرأي ، وصدأ عنه . . وكنت أقول للناس وأنا أعظمهم . « أكثر أهل الجنة البله » أى أن البله والمغفلين هم أهل الفضيلة والتقوى . بدليل أنهم أكثر أهل الجنة . .

أما الآن ؛ فقد عرفت . ، وكيفما يكون عقل الفرد يكون سلوكه . وكيفما يكون عقل الأمة يكون سلوكها .

ولسنا نغنى بالعقل هنا أن تكون فيلسوفاً ، أو مخترعاً ، أو أديباً كبيراً . إنما نغنى العقل المتزن ، والدهن الثابت نغنى سكينه النفس

وسكينة التفكير ، . نعى العقل الذى عناء ذلك الفيلسوف الصادق الذى دعا ربه قائلاً : — « يارب اجعل نعم الحياة الدنيا جميعها تحت أقدام الحمقى ، وأعطني عقلاً غير مضطرب » . .

وسكينة العقل وسكينة التفكير لا توجدان قط . حيث يفرخ طاغية ويبيض . سواء كان هذا الطاغية فى الدولة ، أو فى المدرسة ، أو فى البيت . وسرى فى الفصل الثانى ، كيف فقدنا المقدرة على حيازة فضائل النفس ، لأننا فقدنا سكينة العقل والنفس . . وكيف فقدنا هذه الأخيرة بسبب القهر والعسف اللذين نلقاهما منذ نعومة أظافرنا فى المنزل وفى المدرسة وفى المجتمع . واللذين يشيعان فى عقولنا الاضطراب وفى قلوبنا المسكنة ، وفى أخلاقنا التشويه .

إن نظرة عابرة إلى أخلاق الإنجليز والفرنسيين مثلاً - تضع بصيرتك على عامل من أهم عوامل الفارق الكبير بين أخلاق الأمتين والشعبين . . فالفكر الفرنسى خصيب جياش . والعقل الفرنسى ذكى ثاقب بيد أنه مضطرب نزق . . ومن هنا طلى سلوك الأمة الفرنسية بالدم ، والفتنة ، والخلاعة . . أما العقل الإنجليزى ؛ فأكثر ثباتاً وطمأنينة وأناة . . ومن ثم اتسم سلوك ذويه بما يناسب عظمة ذلك العقل وهدوءه . وكيف واثت الفرصة العقل الإنجليزى فاكتسب السكينة ونأى عن الاضطراب ؟ من شئ واحد . . هو المناخ الحر الديمقراطي الذى تهيأ لهذه الأمة من زمان بعيد جد بعيد . . والذى تشبث به الإنجليز تشبثاً باهراً على النحو الذى سنبينه على الصفحات القادمة .

إن العلم يقرر اليوم أنه حيث ينحط الذكاء ، ويتقاعماً العقل ، يوجد

حس أخلاقى ناقص ، كما هو الحال بين الجماعات المتوحشة . . وهناك
فارق كبير بين سلوك أوروبا المتبربرة . . وأوروبا المتحضرة بل بين المجتمع
الإنسانى القديم ، والآخر الحديث . وهكذا كلما تقدم العقل وثبتت
أقدامه . تقدم معه السلوك القويم ورسخت دعائمه .

فكيف نتيح للجماعة نمو العقل واتزانه وسيادته ، لتتمكن بالتالى
من تطوير سلوكها ؟ ١ .

إننا بهذا السؤال نبلغ المرحلة التى نجيب فيها عن سؤال ألقيناه آنفا .
وهو : ما مدى تأثير الطغيان على الحركة العقلية فى الجماعة . وهل
يتأتى لعقل الأمة وعقول الأفراد أن تنمو وترعرع فى ضباب حكم
الطاغية — أى طاغية . . ؟

ونجيب بأن ألد أعداء العقل هو الحجر ، والوصاية ، لا سيما حين
تكون الوصاية لسفيه . ، والطاغية دائماً سفيه . . . ١

فالطاغية يقوم سلطانه واستكباره على بغضاء معصوبة العيدين لكل
من يقول له فى جد وحزم ، لم . . ؟ ، ولا . . .

وإذا كان العقل يبدأ رحلته نمائه بتحويله إلى أداة استفهام دائبة ،
فلا يفتأ يسأل ، لم ، وكيف ؟ ولماذا . . ؟ ؛ فإنه إذن يرتطم ارتطاما
مباشرا ، وصعبا بمشيئة الطاغية . سواء كان هذا الطاغية ، حاكما ،
أو نصا ، أو تقليدا من التقاليد . . .

عندما قام رجل من خير أدباء ألمانيا يحذر الأمة من الطريقة الجديدة
التي يربى بها « هتلر » شباب المدارس حيث أحاطها إلى « ثكنات »
ولم يبق لها من سمات المعاهد إلا قليلا . . وحصر دروس الألعاب سببا

مدارس المرحلة الأولى في ألعاب « الجاسوسية » ، و « هجوم الدبابات » إلى آخر هذه الأشياء . . ماذا كان جزاؤه . ؟ لفقت له التهم لينزل ضيفاً عزيزاً على السجن ، لولا أن تمكن الرجل من الهرب إلى سويسرا حيث وضع في خدمة نظامها الحركل مواهبه وفنه . .

فهذه مسألة من مسائل التربية أمدى فيها رأى عابر . فلم يسمح النظام غير الديمقراطية وغير الجرباً بدائه . . وهكذا يصدق قول الفيلسوف الذي قال : « إن العبد لا يستطيع أن تكون له أخلاق لأنه لا يملك اختيار خلق لنفسه إن سيده هو الذي يفرض عليه نوع سلوكه وحياته . »

إن الحياة كما يقولون ، عملية هضم وتمثيل . فكل مافي الجماعة من استبداد وعوز وخرافة يمتزج بكيائها ويشمر سلوكها . وإن جميع العلف الذي يغذيها به الطغيان من آراء يحارها ويفرضها لتتحول وتصير أنت ، وأنا ، والآخرين .

ويبلغ الانحطاط العقلي أوجه البعيد في ظل الطغيان . لماذا . . ؟ ؟ لأن الطاغية يعتمد لدعم سلطانه ، وإرساء دواعي البقاء والاستمرار لحكمه ، يعتمد في هذا دائماً على إحياء غريزة القطيع في الأمة ، وإذا استعلت غريزة القطيع على عقل الجماعة في قوم فماذا يحدث . تستطيع أن تدرك ذلك بموازنة عابرة بين كلمتي غريزة وعقل . . وكلمتي قطيع وجماعة . . ؟ ١

وأرجو أن تدرك إدراكاً واعياً ، أن سيادة غريزة القطيع واستعلاءها ، واضمحلال عقل الجماعة وخفوت صوته أثران محتومان ، وابتان شرعيان

لكل طاغية قام أو سيقوم في هذه الأرض .

إن الأخلاص العقلي لما هو حق . يدعونا للضغط على هذه الكلمات
كما تنطلق مبينة واضحة . ويدعونا للتكرار والتوكيد حتى نمنح الوضع
ما يستحقه من اهتمام .

إن تطويع الأفئدة والعقول لحكم الفرد ديمقضى هذا الفرد أن يسرف في
استعمال الاستهواء والدعاية ، وهو لا ينفك بالليل والنهار . في السر والعلن . ،
بشئ الطرق يبت رأيا واحداً ، هو رأيه . . . ويبشر بوجهة نظر واحدة هي وجهة
نظره . ، وهو يطلق دعاواه ومنهجه المرسوم في طوفان هادر موصول
الموجات متساوق الضربات ، ويجد عقل الجماعة نفسه في دوامة هائلة ،
لا يكاد يخلص منها وينجو حتى تبتله دوامة أخرى . ، ولا يكاد يفيق
من هذه الثانية حتى يكون قد ترشح واستخذى وتدحرج في هدوء الموت
إلى جوف الطوفان . . .

لقد كان الشعب الألماني عظيماً . . شعب العبقرية ، والنبوغ . ، ومع
هذا فإن عقل الجماعة في ذلك الشعب العظيم لم يستطع أن يصمد أمام
وسائل الاستهواء النازي الذي شنته الأذاعة والصحافة ، وخطوات الأوز ،
ومهرجانات العنصر الآري الشريف (١) لم يستطع عقل الجماعة أن
يصمد في شعب كذلك الشعب ، واستسلم لغريزة القطيع . .

ماذا كان الثمن الذي دفعه الألمان ليس فقط من مستقبلهم . بل من
أخلاقهم . . أجل من أخلاقهم فهي المسئلة التي تعنى هذا البحث ؟ .
حدث ما يحدث دائماً عندما تحاصر أمة بطاغية يحكم . وغريزة قطيع

تفكر . . نضع السلوك الألماني ، والحلق الألماني لأبشع رذائل الأرض . ،
ألا وهي التعصب . .

ومن سوء حظ بلادنا أنها لا تضع التعصب في قائمة الرذائل الحلقية . .
إنه ، وعند المثقفين فقط قد يكون رذيلة عقلية لا غير . . لهذا نشعر
بصعوبة موقفنا الآن ونحن نصف التعصب بأبشع رذائل الأرض . . ١١
ذات يوم ذهب إلى الرسول عليه السلام رجل يسأله عن الأثم الذي
إذا تركه ، وتخلي عنه ، انتصر على كل آثام نفسه ونزواتها . . فقال له
الرسول عليه الصلاة والسلام : لا تكذب . .

وقفل الرجل مصمماً على ألا يكذب ، فكان كلما راودته نفسه عن
رذيلة ، وقف مستأنياً يسألها :

— إذا اجترحت هذه الرذيلة ، وسئلت عن فعلها ؛ فأما أن أصدق
أو أكذب . فإذا صدقت نزلت بي عقوبتها البدنية . .
وإذا كذبت أكون قد حنثت بعهدي ، وفقدت عزيقي وتصميمي . .
وهكذا أفضى به إصراره على الصدق وترك الكذب إلى معظم
فضائل النفس ، ومكارم السلوك . .

أى أن الكذب كان حسب تصوير القصة القنطرة التي تعبرها جميع
الرذائل والموبقات . ١١

ألا إن التعصب كذلك . . مضروباً في اثنين . . لأنه كذب ، ولأنه
ظلم . أما كيف هو كذلك ؛ فسنرجى الحديث عنه إلى الفصل الثالث .
وغاية ما نرجوه هنا إدراك أن التعصب قرين الحكم المطلق ، وثمره
الحنظل التي تشمرها شجرته الملعونة . .

ذلك أن كل أمر مطلق ، سواء كان ديناً ، أو دولة لا يؤمن بحق الآخرين في مخالفته . لأن معنى أنه مطلق أنه استوعب جميع عناصر الحق الذى لا يمارى ، والأحقية التى لا تسبق . والدولة فى نظر الطغاة أمر مطلق . . كما عرفها أحدهم ، وهو طيب الذكر جداً . . موسوليني .

وإذن فصاحب هذا الأمر المطلق وسيده لا يعترف للآخرين بحق مخالفته ، ولا يؤمن بتعدد النظر إلى الأشياء . إنه ينظر من جانب واحد ويعتد برأى واحد . . وهكذا إذا تحولت الجماعة المذعنة الطاغية إلى وكر للتعصب المدمر فالجريدة جريسته هو والأمر لا يعدو أن يكون انتقال عدوى من ذلك الذى يتفانى فى التعصب لداته ، ومصالحه وآرائه . . ويلعب الاستهواء الضدى دوراً ناجزاً فى هذه الحالة . ؛ فتسارع الجماعة إلى عكس ما يريد الطغيان أن يروضهم عليه فتفتتح أنفس الأفراد ، ونفسية الجماعة لكل دواعى التعصب المضاد ثم التعصب بصفة عامة فتستجيب سريعاً لكل من يقدم إليها دعوة متعصبة ، أو مذهباً متعصباً لاسيما إذا كانت هذه الأمة أو الجماعة قد قطعت شوطاً طويلاً مبهظاً ينتظم آلاف السنين وهى تعيش تحت وطأة طغيان متنوع ، وغزو متلاحق ، كأمتنا وشعبنا . . أهذا فقط هو كل ما يجنى به الطغيان على العقل وبالتالي على الأخلاق؟؟..

لا ، فهو بطبيعته عدو الثقافة الحرة ، وقاطع الطريق على قافلها المباركة . وإذا نحن علمنا أن الأفكار الكبيرة المضيئة ، هى قبل كل شيء مساوها ، التى تخلق الأمم العظيمة ، أدركنا مدى العرقلة الآثمة التى يبذلها الحكم المطلق ضد النهضة الصادقة للأمة ، نهضة العقل ، ونهضة النفس . . لى تظفر الجماعة بأخلاق كبيرة . ، لا بد من ظفرها أولاً بأفكار

كبيرة . . . ولكي تظفر بهذه يجب أن يتحرر عقلها من الجهالة . . .
والسبيل الوحيد لذلك هو تحرير الضائر من الفزع . ومصدر الفزع هو
الطغيان ، والقسوة والتحكم .

إذن فبداية البدايات لأيجاد مجتمع فاضل مستقيم حتى أن نحرر رقبة
هذا المجتمع من كل حكم مطلق ، . وأن يشعر أفرادهم أنهم لا معقب
لحكمهم ولا سيد فوقهم سوى مشيئتهم بجماعة وكشعب

ألا إن الخلق الأدبي عمل روحي قبل أن يكون شيئا آخر ، وحسبما
تكون روح الأمة يحى ، تفكيرها ، كما أنه كيفما يكون تفكيرها تكون
روحها فكلاهما يعمل في الآخر طرداً وعكساً . . . وإنك لترى المفكرين
الأحرار الذين شرعوا أقلامهم كالسيوف المواضى دفاعاً عن الحرية
قد نشثوا دائماً أو غالباً في أمم وجماعات تهوى أفئدتها للحرية وتطير
أرواحها إليها وتصطك محاولاتها بفرض الزمان لبلوغها .

ولكن الفكر الذي نعتبره خنقا وارتداداً . والذي يعطى الجماعة
نهجا كريما لحياتها ، هبات أن يوجد في ظل طاغية . فالطاغية بدهائه
ونزوعه الدائب إلى السيطرة يعمل ليكسب إلى جانبه جميع الفرص
التي تحقق له نزوعه المسعور . وهذه الفرص تتمثل طبعاً في القوات
الاجتماعية الموجودة في الأمة . وعلى رأس هذه القوات الاجتماعية ،
الفكر

ويبدأ الطاغية متوسلاً بالرغبة ، فيطلق في نفوس المفكرين والمؤلفين
والكتاب أنوا عامن الشهوات ، ويبسط لهم موائد الجاه والمال والشهرة ؛
فيستجيبون له . وعندئذ لا يتساءلون عند ما يحملون أقلامهم : ماذا يجب

أن نكتب لنهدي إلى الحقيقة .. بل ماذا يجب أن نكتب لنرضى الطاغية ..
أجل ، لا يكتبون ليعرفوا وينيروا .. بل يكتبون ليكسبوا ويشهروا .
أقسم ، لو أن أمة من القديسين انحرف فيها الفكر الحرّ عن رسالته ،
وزيف من أجل الغرض والهوى ، لتحول قديسوها من فورهم
إلى شياطين وأبالسة ..

إن كل عمل جليل يتم على هذه الأرض .. كل شجاعة خارقة تتقدم ..
كل رحمة وارفة تسود .. كل ثورة إنسانية تنجح .. كل مرض عضال
يقهر .. كل تقدم إنساني يزحف ..

أقول إن كل شيء من هذا يحدث ، تجد وراءه شيئاً واحداً رائعاً
وملهماً وخالفاً ، ألا وهو : الفكر ..

والكلمة المبطورة هي الأم الرؤوم التي ولدت ولا تزال تلد كل عمل
نبيل وجليل .. وأيضاً هي التي تلد — إذا كانت شريرة كل وزر
وكل ضلال .

نخير ما يهدي إلى الفضيلة أن تعيش الجماعة في كنف الكلمة الطيبة ..
وشر ما يهدي للردية أن تعيش في مستنقع الكلمة الخبيثة ..
ألم يقل الله ذلك .. ؟

« مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء .
تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم
يتذكرون » ..

« ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الأرض
مالها من قرار » .

إن الكلمة الطيبة لها مناخ واحد لا يتبدل ، هو حيث ديمقراطية الحكم ، وحرية الفكر والقول والعمل . .

كما أن للكلمة الخبيثة مناخها المعتم . . حيث يوجد ذلك الصعلوك الذى يسمى طاغية ، فترفع أصوات التافهين الذين يتخذون من الفكر والأدب تجارة ولهوآ . . والذين تضن عليهم الحقيقة بنفسها ؛ فيغمسون أقلامهم فى مداد اللغو والهتان . . بينما ينزوى الذين عندهم علم من الكتاب ، ونور من الحقيقة ، عازفين عن الشهرة التى تمنها الكذب ، وعن المال الذى طريقه التسليم ، وعن الراحة التى تمنها خيانة المعرفة . . بين أدب الأمة وأخلاقها رباط وثيق . .

فمن أدب أثينا ، تعرف أخلاقها . .

ومن أدب الرومان ، تبصر سلوكهم . .

وبين أدب الفرنسيين وأخلاقهم وشيجة . .

وبين أدب الإنجليز وأخلاقهم صهر ونسب . . !

فإذا أراد قوم أن يحدوا فى رفع مستوى الأخلاق ، فعليهم أولاً أن يرفعوا مستوى الفكر والأدب .

والفكر والأدب لا يرتفعان بتنمية نزعة الكسب عند الأدباء

والفكرين . . ولا بفرض الرقابة على الفكر الذى خلق ليخلق فى الفضاء

الحر . . ولا يرتفعان بشحن ضمائر الأدباء بالفزع تارة وبالشهوات تارة

أخرى . . ولا برهم المنابع العذبة الصافية التى تروى الثقافة بالماء الزلال . .

ولا بالخط من شأن الثقافة الحرة . ورفع لواء الهوس الغوغائى . .

وإذا وجد رجل يقترب كل هذه الموبقات التى تهيب الانحطاط العقلى

والانحطاط الخلقى ؛ فلن يكون هذا الرجل سوى الطاغية . ، وكل فكرة يمكن أن تتصورها عن اختناق الفضيلة بالطغيان جديرة بأن تكون دون الحقيقة الواقعة .

مصرع الباعث الخلقى . .

فى « هذا . . أو الطوفان » قلنا إن المحاولة الأخلاقية الرشيدة تبدأ بتعلية الباعث ودعم سلطانه . لأن الأخلاق فى واقعها الحق ليست أكثر من الباعث ، وقلنا إن السلوك الخير بدون باعث يزجيه لا يساوى شيئا . وأعمالنا نفسها لا توصف بالحسن والقبح إلا تجاوزا ، وإنما يوصف بهما أصلا بواعثنا . . وضربنا لهذا مثلا — القتل . . فنحن نراه جريمة فى حالة ، وفضيلة فى أخرى . أى أن صفته تتكيف وفقا لدوافعه .

فهو جريمة إذا كان باعته العدوان . .

وهو فضيلة ، إذا كان باعته الدفاع عن الوطن . .

والآن نريد أن نعرف ، هل يتوفر للناس فى مجتمع مستعبد أغراض صالحة ، وبواعث شريفة تهيشهم لسلوك فاضل مستقيم . . ؟ ؟

سنرى أن ذلك غير موات ولا ممكن . لأن الطغيان يسلب الجماعة إرادتها ، وحريتها واختيارها . . والباعث الخلقى لا وجود له — أدنى وجود — إلا حيث تكون إرادة وحرية واختيار .

لكل سلوك إنسانى باعث ودافع ، أى رغبة توجهنا نحو غاية . .

وعلماء الأخلاق والنفس يقررون أن دوافعنا مزدوجة ، فهناك الدافع
الابتدائي . . وهناك أيضا الدافع الغائي .

فأنت عندما تسلك سلوكا ما ، أو تسير في عمل من الأعمال ، تحتاج
لقوة تدفعك ، وغرض يناديك . . إن القوة الدافعة الحافزة ، تمثل
الدافع الأولي . . والغرض الذي يناديك فتسعى إليه يمثل الدافع الغائي . .
وأعمالنا إنما توصف بالدافع الثاني أي الغائي . فإذا كان شريفا فاضلا ،
كان سلوكنا شريفا فاضلا ، وإذا كان أشرأ رديئا ، كان سلوكنا كذلك
رديئا . .

والباعث الأولي تلقائي ، لأنه ينبعث من غرائزنا وقوانا الفطرية .
أما الثاني فكسبي ، لأننا نختاره كنوع لل غاية وللغرض اللذين يذهبان
غرائزنا ويحفزان قوانا .

ويضرب لنا « هادفيلد » مثلا - رجلا سياسيا يخدم وطنه وبلاده . .
إن الدافع الأولي الذي ينبثق من غرائزه ويمنحه القوة والمغامرة
قد يكون أهمية الذات وحب التفوق والظهور والمجد . ، بيد أن أهمية الذات
وحب الظهور يمكن أن يعبر عنهما تعبيرا رديئا كالزهو والكبرياء
والعدوان . .

فإذا عبر السياسي النظيف عنهما بخدمة بلاده ووطنه . كان ذلك
الدافع الغائي جليلا وكان السلوك عظيمًا . .

ومثلا آخر . . هذه السيدة التي تمنحو على الساقطات من بنات
جنسها ، وتقضى وقتها في العمل الدائب لانتشالهن من الوهدة . .
إن الباعث الأولي بالنسبة إليها قد يكون رغبته اللاشعورية في الاستطلاع

الجنسى . . ولكن هذه الرغبة أيضا كان يمكن أن يعبر عنها تعبيراً فاجراً مستهترا . . فإذا اتجهت به صاحبتنا إلى غرض نبيل كالذى ذكرنا ، كان عملها نبيلاً ومسلكتها حميدة .

وإذن فالدافع الغائى هو الذى يعطى سلوكنا صفة الجمال أو القبح . ، وهو يواتينا بقدر ما معنا من تربية ، وما فى بيئتنا من فرصة . .

أى أن الدوافع الغائية الشريفة إنما توجد وتترعرع وتنطاق للعمل فى الجماعات التى تشيع فيها الأفكار الكبيرة ، والعلاقات الغيرية السليمة . وحيث الأخاء والحب والشجاعة والسلام . . وبعبارة موجزة نقول : إن الدافع الغائى الفاضل يستمد وجوده من القيم الفاضلة المسيطرة على المجتمع . ، كما يستمد الماء وجوده من عناصره المكونة له . .

فهل للجماعة التى يفرخ فيها الطغيان ويبيض قيم عالية سامية . . ؟؟
إن ما تنتظمه الصفحات السالفة كلها من حجج وبراهين تقول : لا ،
وهى أيضاً مقولة الواقع والحق .

فالقيم قد توجد فى جماعة يحكمها طاغية ، ولكنها تكون فى حالة كمون واستخفاء وتوقف عن العمل . لأنها ليست كائنات حية ، تتحرك وحدها وتسعى . ، بل لابد لها من ناس تتقمصهم كى تعمل .

والناس فى حكم طاغ قد لا يسلبون الصفات التى تمكنهم من الاستجابة لتلك القيم . ولكنهم يعجزون عن الأفادة منها والتعبير عنها تعبيراً سوياً قوياً وهذا مما يضاعف الخطر ويدعو للجزع . . فالشجاعة - مثلاً - يختلف عملها فى المجتمع الحر عنه فى المجتمع المضطهد . إنها فى الأولى

خادم مطيع لكل قيم الحياة الفاضلة ، فهي هنا تعبر عن نفسها بالمخاطرة في كشف أرض مجهولة ، أو مكافأة وباء فاتك ، كما تتمثل في استبسال كل فرد في أداء واجبه وقهر دواعي الأخفاق والفشل . .

أما في المجتمع المضطهد ، فالشجاعة تلعب دوراً مغايراً . . لأن خصائصها الفاضلة تختفي وتكمن وتربص حتى تتفجر أخيراً في ثورة عارمة ، أو فتنة مدممة ضد الوضع القاسي الذي ناءت حملة حيناً من الدهر .

وإذا الناس لم يجدوا واجباً يربطهم به دواعي الولاء ، فأنهم سينساقون لقوة تربطهم بها دواعي الفرع . ؛ فهكذا نحن بني الإنسان ، لا مناص لنا من أن نكون عبيد الواجب أو عبيد القوة . .

فإذا أخذت جذوة القيم كما أسلفنا ، وخفت بالتالي صوت الواجب الذي كانت القيم ثمره وتزجيه ؛ فإن الشيء الآخر يهيب بنا فنستجيب له كارهين . . ذلك الشيء هو : القوة .

والقوة في جماعة غير حرة وغير ديمقراطية لا تتمثل في قانون ، ولا في عرف قدر تمثلها في الفرد الذي يحكم . . في الطاغية . . وهكذا يصبح هذا الطاغية هو القيمة العليا للجماعة . ، وتصير شهواته وصلفه ودوافعه الأولية والغائية قدوة تحاكي ، ونهجاً يتبع . .

ولما كانت جميع دوافع الحاكم المطلق شريرة ، وردية . فإن دوافع الدين سيحاً كونه لن تكون إلا كذلك . . وهكذا تلقى البواعث الأخلاقية الفاضلة الخالقة مصرعها الويل في كل مجتمع ودولة تفسح فيهما الديمقراطية مكانها لحكم الفرد وسفاهه وطغيانه .

ولما كانت البواعث الفاضلة تحيا بالتشجيع والأثابة ، فإن بوارها
يصير محققاً في الجماعات التي يسودها طغيان .

كيف يثيت الطاغية على الشجاعة ، وهي عدوه ؟ ؟

كيف يشجع الكلمة الحرة الشريفة وفيها نهايته ومصيره ؟ ؟

كيف يكافح الكذب والخيانة وهما حليفاه ؟ ؟

إن حرصه على الثناء يشيع خلق النفاق والملق في الناس .

ولقد كان رجل ملهم كعمر بن الخطاب يدرك الخطر الذي يتهدد
روح الأمة كلها عندما تنقلب مرآة مداجية . فكان يرفض أى مظهر
من مظاهر التبعية ولو كان ضئيلاً .

رأى ذات يوم - عبد الله بن مسعود - صاحب رسول الله عليه السلام
يسير ومن ورائه كوكبة من المسلمين ؛ فما إن بصر به حتى أقرب منه وهو
يقول في تقرير لاذع : - ما شاء الله يا ابن أم عبد . . . ١١

ثم صاح في الدين يمشون خلفه فقرقهم ، وقال : لا تفعلوا ذلك مرة
أخرى ؛ فإنه فتنة للمتبعين وذلة للتابع . . . ١١

ورجل آخر عظيم جد عظيم ، هو عمر بن عبد العزيز قصدته امرأة
من العراق ، ولما ولجت بيته أدارت بصرها خلاله فلم ترفيه شيئاً ، فقالت :
لقد جئت لأعمر بيتي من بيت أمير المؤمنين ؛ فإذا بيت أمير المؤمنين
خراب . . . ١١١

فأجابها زوجة عمر : إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت الناس . .
ودخل عمر بن عبد العزيز ، وأقبل على المرأة يسألها عن حاجتها
فقالت : - أنا امرأة من أهل العراق . لي خمس بنات كسل كسد . .

وحثتك أبتغى حسن نظرك لمن . فأخذ الدواة والقرطاس . ليكتب إلى
والى العراق وقال للمرأة : سمى كبراهن . . فسمتها ، ففرض لها .
فقالت المرأة : الحمد لله . .

ثم سأل عن اسم الثانية والثالثة والرابعة والمرأة تحمد الله في كل مرة .
فلما هم ليكتب اسم الخامسة ، صاحت من فرحتها : حمداً لك يا أمير المؤمنين . .
فسقط القلم من يد عمر وقال لها : كنا نفرض لمن حين كنت تولين
الحمد أهله . وهو الله . . أما وقد نكصت سريعاً ؛ فمرى بناتك الأربع
يفضن على أختهن الخامسة . . !!

إلى هذا الحد كان الحكام الصالحون يخافون الشناء بل يخافون
مادون الشناء بكثير . .

واقده يقال : إنك ضربت مثلاً رجلين لم تكن معهما « ديمقراطية »
ومع هذا فقد كانا مثلاً يحتذى للفضيلة التى تتعب لاحقة ومدرکہا . . ؟؟
ونجيب ، بل كان معهما « ديمقراطية » وارفة تملأ رحاب نفسيهما
الكريمتين . وإن كان التطبيق الكامل للديمقراطية لم يكن فى الزمن
البعيد ، وفى بلاد بجزيرة العرب النائية البادية مما يسهل أن يكون . ، كيف
كانت أخلاق الناس فى أيام حاكم كعمر بن الخطاب ، وحاكم آخر
مسلم أيضاً ، كعواوية بن أبى سفيان ؟؟

إن الفارق بين سلوك الجماعة هنا وهناك . هو الفارق بين سلوك
الرجلين ، عمر ، وعواوية .

وكذلك عمر بن عبد العزيز ، الذى ساد فى عهده السلام والأخاء

والفضيلة مبلغا جعل عهده ينعت بأنه « الأيام التي كان الذئب يرى فيها مع الشاه » . . . ١١

وإذا كانت جميع فضائل الجماعة تبدأ من فضيلة الفضائل ، وهي : حب الوطن والولاء له ، ولاء يعصم أبناءه من خيائته أو هدم بنيانه ، أو تشتيت وحدته ، أو اعتياق تقدمه . . .

نقول : إذا كان ذلك كذلك ؛ فإن دور الظغيان كمحرض عظيم على رذيلة الحيانة ، وما ينسل منها من رذائل ، يبدو واضحا مبينا .
هناك ظاهرة تلفت البصائر وتبهرها معاً . . . هي أنه كلما عظم حب الناس لوطنهم ، عظم معه حبهم لأنفسهم . . . فالسلام الاجتماعي الذي هو المناخ الصالح للفضيلة . لا يتأتى قط لجماعة يحملون للوطن ضغنا وحقدا . . .
ولماذا يحب الناس الوطن يا ترى . . . ؟

إنهم يحبونه لأنه المأوى الذي يصون حياتهم ، ومصالحهم . . . والعش الجميل الذي يضم ذكريات حبيبة مشوقة . . . الأمر الذي يعبر عنه الشاعر العربي فيقول :
وحب أوطان الرجال إليهمو مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو عهود الصبا فيها فحنوا لذلك
الوطن إذن هو المكان الذي يتاح لى فيه الاستقرار ، والسلام ، والعيش . . . فإذا لم يشعر الناس بشئ من ذلك يفاء على سعيهم الحثيث وكدهم الدائب ، فإن إحساسهم بالوطن يتضاءل ويذوى . بينما ينمو شعور آخر بأنهم غرباء في هذه الأرض ، وضيوف عليها . . . بل وشعور آخر أكثر سوءا إذ يجدون جهدهم يضيع ، وعناءهم يتبدد في وطن لا يكافئهم ولا يتراحب لحقوقهم وغاياتهم ، فتنفصم كل عرى الولاء والحب

والضنّ التي كانت في نفس الجماعة لأرضها ووطنها . . وترحب بكل طارق
ومغير يقرع أبواب بلادها ولسان حالها يقول :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

هل رأيتم قط سجناء يدافعون عن سجنهم حين يتداعى أمام هجمات
المعاول . . ؟ كذلك الوطن حين يتحول إلى سجن واقروا التاريخ
تجدوا مصداقاً لما نقول . .

هذا هو « غوستاف لوبون » يتحدث إلينا . .

— « . . وكما كانت جيوش الثورة الفرنسية وهي ماضية في غزوها
تصطدم بأمم أدلها الطغاة المستبدون ، ولم يكن لها خيال تذب عنه .
كان النصر محالفها . .

» أما حين تصطدم بأقوام معهم حرية . . ولهم خيال . . فقد كان
يتعذر عليها الفوز والانتصار »

أجل ، إن كل آفات النفس تستيقظ في الجماعة المغلوبة على أمرها ،
فتنفّر من كل فضيلة وتدبر عن كل واجب . ولعل هذا ما عناه الرسول
عليه السلام بقوله : « إذا وسد الأمر لغير أهله ؛ فانتظر الساعة » . .
أى إذا وضع الحكم في غير مكانه ، وسلم لغير أهله ، فانتظر الساعة
التي تدق معلنة إخفاق هذه الأمة ، ومذبة نعيمها . .

فمن هم المعنيون بقول الرسول « غير أهله » ؟ ؟

هم المستبدون الذين يأخذون الحكم من أهله . . من الأمة والشعب
حتى حين يتلفعون بأردية زائفة من الديمقراطية المحرفة ، كما كان
قاروق يفعل في مصر . وكما يفعل إخوان له فيما حولنا من أمم وبلاد

هل تعلم أن خير ما يحفز الفرد إلى التحليق الرفيع ، هو الحماس والشوق ؟؟ وهما أيضا خير ما يحفز روح الجماعة ويشد زناد تفوقها .

ترى هل نتعم في ظل الاستبداد والطغيان بهذا الحماس الباعث ، والشوق الزاخر . . ؟

كلا . وإنما يحل بديل آخر عنهما — القنوط واليأس . واليأس يشتت سكينه النفس ، ويلاشى صمودها ، فتسقط غير مكترثة ولا مبالية . وإدراك هذه الحقائق هو الذي حدا بجميع الرواد والقادة والمصلحين . أن ينظروا إلى الاستبداد كعقبة ضخمة تعترض كل ما يريدونه للناس من خير وسعادة . . ليس فيهم رائد واحد ، واحد فقط تسامح مع الحكم المطلق ، مغتصب حريات الجماهير والجماعات . . ليس فقط من أجل السيادة السياسية . بل قبل هذا من أجل صيانة روح الأمة من بثور الرذيلة ، وقروح اليأس . وإن واحداً من أولئك الأفذاذ ليصور الأمر تصويراً مشيراً ذلكم هو « متزني » نبي الوحدة الإيطالية وفيلسوفها . . كان شعاره ، الحب . والحب . ثم المزيد من الحب . . . ١١

ومع هذا ؛ فقد سأله يوما مستر « توماس كوبر » الانجليزي ؛ عن سبب دعوته العنيفة وتوسله بالعنف والقوة لنضال الطغيان النمساوي . . ولماذا ، وهو الذي يبشر بالحب ، والحب ، ثم المزيد من الحب . لا يدع العنف جانبا . . ؟؟

إن إجابة « متزني » التي ستتألق في السطور القادمة تمنحنا يقينا جديداً باستحالة قيام أخلاق فاضلة في أمة مضطهدة مستعبدة . . قال :

— « إن ما ترجوه منا يامستر كوبر يجدى فى وطنك ، فأنتم قاومت
الطغيان مقاومة عنيفة . وآبأؤك قضا عليه . وعندكم الآن مجلس نواب ، ..
ولكم حقوق مكتسبة ، وقوانين معترف بها ؛ فلستم بحاجة إلى استعمال
الشدة واللجوء إلى العنف . وأنتم بأرادتكم الحرية تنالون كل شيء .

« أما نحن هنا ؛ فأنى لنا مثل ذلك ؟ »

« كيف نعمل فى هدوء والطغيان التمسوى جاثم على صدورنا بجيشه
المثلث — الجواسيس ، والضباط ، ورجال الشرطة . ؟ »

« وكيف السبيل إلى التقدم التدريجى فى بلاد محرومة من
الحرية ومن إبداء الرأى . وليس بها مجلس نيابى . . . وجامعاتها
مستعبدة ؟ . . . »

« وكيف السبيل إلى الإصلاح وكل مصلح فى متناول يد التنكيل .
وواصل « متزنى » حديثه الحق قائلا :

— « إن الذكاء يقضى عليه فى الطفولة . والشبان الناشئون يبيعون
يقينهم فى سبيل طلب السلامة ، ويددون فضائل أنفسهم فى التشبه بدون

حيوان » . . . ١١١

إن عبارة « يبيعون يقينهم » تفيض تصويراً وتحذيراً . تصويراً
للاحدار الخلق الذى يحيق بالذين يفقدون حريتهم .. وتحذيراً للآخرين
حتى لا يفرطوا فيها .

أجل ، إن بيع اليقين هو شر ما يمزق كيان المجتمع المكبل ؛
والمنفعة الدنيا هى القيمة التى تسيطر عليه . وبسهولة يتحول كل شيء

مقدس في الجماعة إلى سلعة تافهة تباع بأبخس الأثمان . كل شيء . . ، يقين
الناس ، وأسرارهم ، ومصايرهم ، وأمنهم ؛ فبالجاسوسية والأرغام يجهز على
كل هذه الحرمات التي ذكرناها . إجهازاً لا يعرف الرفق ، ولا يستجيب
للشرف . ويركب في الجماعة طبيعة سلبية تسلبها شيئاً فشيئاً القدرة
على الاكتمال .

في المجتمعات الديمقراطية ، تلزم عمليات الكشف والاستطلاع
حدوداً معقولة ، ويقوم بها بوليس عادي . . . ولكي يذهب هذا البوليس
لتفتيش منزلك ، لا بد له من استئذان النيابة مثلاً . . أما حيث يحكم حاكم
مستبد ؛ فإن الجاسوسية تقتحم كل مكان . ويتنشقها الناس في الهواء . ،
ويجدون طعمها فيما يأكلون وما يشربون . . . ١١١

في أيام الطغيان النازي ، كان معارضوه يستغنون عن تركيب أجهزة
التليفون . . في منازلهم رغم حاجتهم القصوى إليها . . وكانوا إذا
اضطروا لاقتنائها يغطونها بالبطاطين . . لأن النازي توصل إلى اختراع
جهاز يلتقط السمع عن طريق التليفون . ، حتى والساعة موضوعة فوق
حاملها . . (١١)

ولقد أفسد « همار » الأسرة الألمانية إفساداً جمّاً ، إذ أسرف في
نشر مخبراته حتى صار له في كل بيت عين تتجسس له وترى . . كانت
الزوجة تتجسس على زوجها ، والولد على أبيه . وهكذا في كل مجتمع
مغلق . . كل مجتمع تحكمه مشيئة فرد أو أفراد لا تهيجن عليهم إرادة
الشعب ، ولا يحلق فوق رؤوسهم العنيدة الفارغة سلطان الجماعة .

أهناك سبيل لنشر الفضائل في قوم تعمل فيهم تلك الأثافي المدمرة ؟

لا — فالمجتمع الذى يسلب يقينه — كما يقول متزىنى — لا يجد فى ذات نفسه من المعرفة وسلام النفس ما يدعو للارتباط بالفضيلة ، والسير فى طريق الرشاد .

إن الطغيان لا يتحدى الفضيلة ، وحدها . ، بل والأيمان أيضا . . . ولقد رأينا كيف أفضى اضطهاد البيض لزواج أمريكا ، ببعض هؤلاء الزوج إلى الكفر بالآله إذا كان أبيض البشرية . . . ! ! !

بل لقد ذهب زعيمهم « ماركوس » ينفث فى القارة السوداء كلها عقيدة جديدة اجتمع حولها وآمن بها كثيرون من السود وهذا نصها : — « إن دين البيض لم يوضع للزواج . ولا يمكن إكراه هؤلاء على الاعتقاد بآله أبيض . . . ومسيح أبيض . . . وملائكة بيض . . . ولذلك يجب علينا أن نستبدل بهذا الدين دينا جديداً ، إلهه أسود . ، وملائكته سود . . . » ! ! !

والآن ، أديروا أبصاركم فيما هنالك من أمم فأذا وجدتموها حقلاً بهيجاً ترعرع فيه الفضائل الانسانية وتزجى غيرها ؛ فاعلموا أن من وراء هذا التفوق الخلقى حكماً ديمقراطياً راسخاً رسوخاً يشبه رسوخ الجبال . . . ووراء ذلك حرية تملأ صدور الرجال . . . ومجتمعاً يسير على صراط وطيد من مشيئته الحرة ، وفهمه الثاقب ، وغزته الصامدة المهيبة التى لا تهتضم ولا تنال .

وإننا بعد استقراءنا المقروء ، لنستطيع الجزم بأن العامل الأكبر فى مدّ التفوق الخلقى للمجتمع الانجليزى هو ظفره المتساوق بالحرية ، وحرصه عليها بصورة لا يكاد يكون لها نظير . . . فبينما تعرض بلاد ،

كفرنسا لهزات ضاغطة ومديدة من الحكم المطلق الذى قام على السفك والتدمير رغم ثورتها الكبرى من أجل الحرية . . نجد الانجليز قد أخذوا على عاتقهم ، وفي وقت مبكر جداً أن يلزموا ملوكهم وحكامهم حدوداً أقاموها لهم ، وجعلوا كلمة الأمة ، هى القانون وهى الدستور . . . فى عام — ١١٩٩ — أراد الملك « حنا » أن يستبدّ ، ويمنح للحكم المطلق ، فقام الشعب كله ، ريفاً ومدناً . فلاحين وبارونات ورجال دين . وردوا « حنا » إلى صوابه الآبق . وكتبوا وثيقة العهد الأعظم . . وفى مادته التاسعة والثلاثين سطوراً بحروف من نور وعزم .

— « الرجل الحرّ لا يقبض عليه ، ولا يسجن ، ولا يجرد من ممتلكاته ، ولا يهدر دمه ولا ينفى ، ولا ينال بأى ضرب من ضروب الأذى إلا بناء على حكم صادر من أسويائه على مقتضى قوانين البلاد . » من ذلك اليوم البعيد جداً ، والناس فى معظم الأرض يكرهون على الاعتراف بالنار والسيف . كان المجتمع الانجليزى يحاكم المخطئ أمام هيئة من القضاة والمحلفين . وكان دستور هذه العهد الأعظم الذى قرأنا الآن إحدى مواده . . . ١١١

إننى أبصر المنبع الدافق لعظمة الخلق الانجليزى — ومعدرة للذين لا يرون الأخلاق إلا تحريم النظر للمرأة ، والاختلاط بها ، وحظر اللهو والشراب ؛ فالانجليز بهذا المعنى قوم لاخلاق لهم ولا أخلاق . . . ١٢

أقول : إننى أبصر المعين الثرى لعظمة نفوسهم وأخلاقهم ، كلما وقعت عيني على نصوص ذلك العهد الأعظم ، ثم كلما زاملت الروح المصمم المستبسل الذى نفذ به الانجليز عبر التاريخ الطويل نصوص ذلك العهد

الذى ظل يتطور وينمو حتى استمتع الشعب هناك بحرية لا وجود لمثلها
اليوم في أى مكان آخر في العالم . . .

انظروا كيف تختم نصوص العهد على لسان الملك :

— « . . وإذا لم تقوم بتصحيح ما عساه يقع من مخالفة . أو إذا لم
يقم قاضى القضاة بذلك في حال غيابنا خارج المملكة . في مدة أربعين
يوماً من تاريخ إبلاغ ما وقع من مخالفة إلينا . أو إلى قاضى القضاة في حال
غيابنا خارج للملكة . ، يكون من حق البارونات الخمسة والعشرين ،
ومن حق جميع الناس بالمملكة أن يحجزوا ويضيقوا علينا بكل الوسائل
الممكنة . وذلك بمصادرة جميع قصورنا ، وأرضينا ، وسائر ممتلكاتنا
حتى يتم تصحيح ما وقع من مخالفة » . . . !

منذ متى كتب ذلك العهد يا قومنا ؟ ؟

منذ ثمانية قرون . وكما يقول « فيشر » في كتابه تاريخ أوروبا في
العصور الوسطى : - « إن موضع الأهمية هنا أن طاعة الدستور على
الصورة التى تمخض عنها العهد الأعظم ، ظلت ما تلة في العقل الانجليزى .
جيلاً بعد جيل . . . »

لولا أن يخرج الكتاب عن غرضه وموضوعه ، لعرضت عليكم
بعض المشاهد الباهرة للولاء المطلق الذى صان به الانجليز حريتهم خلال
القرون . . . نخذوا عنهم العظة والدرس . ولنذكر جيداً ، أنه لا أمل
لمجتمع ما فى أن يظفر بأخلاق كرملة أو حياة بهيجة إلا بعد أن يقرّ في
أعماق وعيه ولاء دينى للديمقراطية وللحرية وللدستور . وإلا بعد أن

يتوطد نظام الحكم فيه على أسس لا تنتقص من إرادة الشعب وإرادة الحق . .

لا مقام للفضيلة في بلاد يسوقها طاغية . .
لا أخلاق للبلاد التي يستطيع رئيس حكومة فيها أن يلغى في شهر واحد ستا وأربعين صحيفة ومجلة . . ويسرّح الأحزاب بكلمة واحدة تخرج من بين شفثيه المدلتين . . ويغتال السجناء داخل سجون الحكومة برصاص الحرس الحكومي في عهده السعيد . . . (?) كما حدث فعلاً منذ قريب في بلد عربي شقيق . . .

إن الحكم الديمقراطي هو كما ذكرنا « للناس » الأوحد للفضيلة ومكارم السلوك . وكل انحراف في تطبيق الديمقراطية ، يزامله انحراف في سلوك الجماعة وحينئذ نرسل البصائر والأبصار ، تعود هاتفة بصدق ما نقول

اضرب لهم منظر :

ونستطيع أن نأخذ من واقعنا عبرة ومثلاً . فالعبرة قد تردع الهوى والمثل يشحن الانتباه . ولئن نكون بحاجة إلى الأيغال في ماضينا البعيد . بل حسبنا أن نسير في دروب تلك الفترة الأخيرة التي عاصرناها ، وعشنا في دوامتها العاتية . فقبل « ٢٣ يوليو » كان طغيان الحكم المتمثل في الأسرة العلوية الكريمة ، وفي سدتها وأشباعها ، يلقى على ضمير الأمة من الرزايا والسوآت ما لا طاقة لها به ولا احتمال . .
ولكي تزينا الأمثلة إيماناً بأن الفضيلة في ظل الطغيان تهوى ، والرديلة ترتفع ، فلنشاهد في سرعة هاتيك الملامح والصور .

قلنا : إن كلمة الحق ، الكلمة الصادقة الشريفة هي ألد أعداء
المستبد ، فلننظر صدق هذا في أول حكام أسرة محمد علي وفي آخرهم . .
كان السيد « عمر مكرم » مجاهداً بأسلاً شريفاً ، أعطى وطنه من
عقله وقلبه ونضاله في بذل وسخاء . وكان « محمد علي » يثق به ثقة
مطلقة . كان يحبه ويقدره . وبفضله تسلم حكم البلاد . . وكان عمر مكرم
قادراً على أن يكون ما يشاء — جاهاً ، ومالاً ، ونفوذاً . . ولكنه
وقد رأى طغيان الوالى الجديد يتهاً للظهور ، وأخذ الخوف على
مستقبل أمته وبلاده من عواقب ذلك الطغيان ، فقد وقف كالطود
مسنداً ظهره إلى كل محاولات آبائه ضد الطغيان . وخرجت الكلمات من
فمه في بسالة ووثوق لتقول لمحمد علي : إنك تتحول إلى طاغية . . .
— إنك تضع الشعب في جيئك ، كما لو كان المنديل الذى تجفف به
معاطسك

كانت هذه الكلمات الطاهرة ، هي الحق الذى يجب أن يعلن .
والفضيلة التى تميز نوع زمانها ومكانها . . ولكن الوالى الصالح « محمد علي »
غضب على الحق ، وعلى قائله فأوغل في مطاردة « عمر مكرم » وأقسم
« ليملأن بطنه جوعاً »
ونسرع مع الأيام لنجد آخر ملوك الأسرة وطغاتها يمثل نفس
المشهد

ف ذات يوم كلنا نذكره ، دب في نفر من رجال مصر ديب الواجب ،
وكتبوا للملك الذى كان صالحاً (١) عريضة تهيب به أن يساعد الأمة
التي لم تسيء إليه ولا لآبائه ، على الخلاص من الأخطار التى تهددها . .

فانتفخت أوداج « فاروق » وأمر أحد « الأغوات » أن يباغ الحكومة
رغبته في تشريد هؤلاء الزعماء الآبقين ، ضاربا الذكر صفحا عن
كل ما قدمه بعضهم إليه وإلى عرشه من خدمات كادت تعصف
بحياتهم يوما . .

والكن ، كيف يقذفون في وجهه الدسم بكلمة الحق . . وحدث
ملا يحدث إلا في الأحراش والغابات . . إذ فوجيء الرأي العام بكل
هؤلاء السادة يطردون من مجلس الشيوخ طرداً مهيناً . .

وهكذا نجد الجهر بالحق وهو ضروري لتربية الأمة تربية خلقية سديدة
— عملة زائفة محظورة التداول في عصر الطاغية — أى طاغية — لأن
السوق يجب أن تتسع فقط لعملته الرديئة من كذب وتفاق وخنوع .

أعيدوا تلاوة ما كتبه « سافونارولا » عن طبيعة الطاغية ، كيف
يسرق الأرامل والأيتام ويظلم الشعب . ؟ كيف يقتله الشك فيصطنع
الجواسيس في كل مكان . . ثم طبقوا هذه الكلمات على الأمس القريب .

متجدون ملكا كان له سميت الملائكة بدأ — يوم بدأ — وكأناه
قديس طهور . ثم مالبث الطغيان الذي تقمص سلوكه وحكمه أن حوله
إلى خنزير . . وإلى لص . . وإلى رئيس لفرقة ضالة من السماسرة
والجواسيس

وأعيدوا تلاوة ما كتبناه عن أثر الطغيان في إفساد القدوة عن
طريق الرغبة ، أو عن طريق الرهبة . وكيف أن الطاغية لا يطيق أن
يرى مثلاً أعلى يخفق فوق بلاده في صورة بطل أو زعيم .

ثم انظروا صدق هذا فيما كان يحدث قبل أن تفتك الأمة بالعرش الرجيم .

لقد ظل طغيان القصر يكيد ويمكر حتى اضطر زعيما قويا عنيدا أن يتوجه إلى « كبرى » في خشوع العابدين . . واضطر أدبيا رائدا أن يعبد في شغف « سلوكك الشخصى يا مولاي » . . . ١١٤٤

وأعيدوا تلاوة ماسطرناه عن تحدى الطغيان لكل فضيلة ، وعن إشاعته روح النفاق واللق والحداغ في الأمة ، ثم استعيدوا من واقعنا القريب بعض صورته ، وانظروا كيف كان النفاق والحداغ يسودان . . ؟ فمحمد على لم يكن غريبا نزح إلى مصر لأن الإسلام هو وطن المسلمين . . وهو كسلم حلّ أهلا ، ونزل سهلا ، وحمي إخوته المسلمين وعشيرته المؤمنين من الجور والطغيان . ١١١

هكذا كانت الألسنة الطاهرة تقول للناس . . .

وفاروق لم يكن يسرق . . بل كان يتبرع .

وكما قلت لكم في كتاب « الديمقراطية . . أبدا » كان في مصر من الصحف ، ومن الزعماء ، ومن الأدباء ، ومن الكبار والصغار من إذا تفل الملك الصالح قالوا « تفضل حفظه الله وبصق » . . ١١١

واست أذكر هذا لألوم من فعلوه ، بل إن الملامة لتضعف حجتي . وإنما أذكره تزكية لرأينا السالف ، وهو أن الطغيان يكره الناس على رذائل قد لا يريدونها . . ويطبع الجماعة كلها بسلوكه ومثالبه . ويحولها إلى شيطان آخرس حين تسكت عن مظالمه ، أو شيطان ناطق حين تزخرف الباطل وتدافع عن غرور الطاغية وصلفه وفجوره

ولقد بلغت الأمور بالناس في تلك الأيام للعتمة أن صار من حسن
الحظ ألا يكون لأحدهم أم جميلة ، أو أخت وسيمة ، أو امرأة
حلوة . . . لأن الملك « الأناني » كان في هذه المسئلة . وحدها « غيريا »
لا يبارى . ، ومن يدري ؟ ؟ فلعله لو طُل به العهد بيننا كان يصدر
— حفظه الله أيضا — مرسوما بتأميم الأعراض . . . ١١١٠ .

إننا لا نعدّ مساويء ملك غاب وذهب ؛ فقد كان من فضل الله
علينا أن فعلنا ذلك في أوانه مع الدين فعلوه مخاطرين . . . ولكننا نبرهن
على صلة الطغيان بالأخلاق من واقع حياتنا الذي لم ينس بعد . . .

قلنا إن الطغيان يلجئ الجماعة إلى السلبية ، ويجعل « اللامبالاة »
من عادات سلوكها الراسخة المقيمة . . . ولن نجد فردا ، ولا جماعة
تفود السلبية حياته أو حيائها ، إلا ألفت مأساة مفردة . . .

وإن معنا من اليقين ما يجعلنا نقول : إن الطغيان الطويل الذي
تواكب على أمتنا والذي نرجو أن نظل مصممين على عدم عودته . . . هذا
الطغيان قد ترك في نفسية شعبنا سلبية موهلة مستوطنة وسوف يحتاج
إلى سنين عددا نطلق له فيها الحرية إطلاقا كاملا ونستجيش خصائصه
الأولى . وقواه الحية استجاشة دائبة ، لكي نستطيع أن نهزم السلبية
الجامئة على كيانه ونمتص منها العافية والحياة . . .

إن حريق القاهرة ، كان واحدا من عشرات المظاهر لسلبيتنا المضحكة
المفجعة . . . قوم عجزوا عن أن يحرقوا قيصرهم . ؟ فذهبوا يحرقون
أنفسهم . . . وصحيح أن الذين اقترفوا مأساة الحريق كانوا نقرأ معدوداً .
ولكنك كنت تبصر حول هؤلاء النفر حشودا هائلة من الجماهير

لا تتحرك . كأن هذا الذي تأكله النار ليس مستقبلهم وحياتهم . . . !
ولكن . . .

ما على من لا يطيق يرى — نور الوادي أو اكتشا
وأيا . . .

لا أذود الطير عن شجر — قد بلوت المرموت ثمره .
هذا هو منطق « لاشعور » الأمة للغلبة على أمرها دوما . . . ولقد كان
— أيضا — منطق « لاشعورنا » والقاهرة تحترق . . .

لماذا ندافع عنها . . . ؟ كم حجرا نملكها في تلك القصور التي تتداعى . ؟
كم قرشا سنناله من البنوك التي تحترق . ؟

والوطن . ؟ ماذا يعيننا من أمر مستقبله مادام ليس وطننا لنا . ؟
مادام لا يمنحنا القوت ، والسلام ، والعدل ، والحرية . . . ؟

أجل ، هذه هي الفلسفة الواعية التي أوحى بها « اللاشعور »
المتخيم بالمآسى إلى وعينا يومئذ ، فوقنا من الحريق كما لو كان مهرجانا
يطلق صواريخه الفرحة البهيجة . . . ! !

ولقد حدثكم عن الأشاعة التي تفسد في الناس حين تروج ، ملكة
الأدراك وتشوه جمال الحقيقة ، وتدفع الناس إلى الضلال والأفك زاعمة
لهم أنه الهدى والفلاح . . . فهل يعجزنا أن نجد مصداق ذلك في تلك الأيام . ؟
كيف ؟ وهل كانت مأساة فلسطين إلا إشاعة . . . ؟ ؟

لقد أراد الطاغية أن ينسى الأمة مبادئه . ، أراد أن يستنزف طاقتها
التربصية ، في غرض بعيد عنه . ، وأراد سوقا دنسة يستطيع أن يثرى
فيها إثراء يليق بجلاله وجلالته . . . !

فليلق في روع الناس أنه « حامى حمى العروبة والاسلام » وليخاطر
— دون استعداد وجد — بجيش البلاد وسمعتها وشبابها ومالها . .
واقرعى يا طبول . . .

فاذا الشعب كله يؤمن بصدق الأ كذوبة ، وجدية الفكاهة . حتى
إذا وقف من بين الملايين المخدوعة رجل واحد فقط هو « إسماعيل صدقي »
ليقول لنواب الأمة وشيوخها « تمهلوا وترووا ؛ فأنكم ذاهبون إلى
مقامرة باطلة » يبدو بهذه الشجاعة الفائقة ، جباناً ونذلاً وخائناً . .
وهكذا تفعل الأشرار دائماً . . تحجب الحقيقة عن الناس فلا يرونها .
وهى كما قلنا العادة السرية للمجتمع المضطهد . ومن ثم فهو يعشقها
ويهوها ويرى الحقيقة وقحة وثقيلة . ؛ فيعرض عنها ويأبأها . . . ١١
وقلنا إن الطاغية يدنس جميع القيم الفاضلة والسامية . فلننظر كيف
شوّه طغيان القصر جمال الحرية ، ووضاءة الديمقراطية في بلادنا . .
لقد رأى في الحياة النيابية قدراً يقرع أبواب مصيره ونهايته ؛ فعمل
في مكر وخبت لأفسادها حتى نكرها ونكفر بها . . ومن ثم يستطيع
التخلص منها في يسر وهدوء . « ١١ »

هنالك توغل في الأحزاب فقسمها على ذواتها ، وأفسدها . وشد
أزر الأقطاعيين وكبار البرجوازين ليغزوا البرلمان ويوجهوا سياسة
البلاد . وحرص على تزييف إرادة الأمة . . ودنس الدستور نفسه إذ جعله
دثاراً لجرائمه ، وبرفانا لعدوانه وطغيانه .

لم يكن للدستور جريمة ، ولا للحياة النيابية ذنب ، ولا للديمقراطية
جريمة . . ولكنه الطغيان يدنس كل طاهر . ، ويطمس كل ظاهر . ،

ويعتبر الحق ، ويحترم الباطل . وعلى أنقاض حقوق الإنسان يشيد هرماً
بإذخا لحقوقه هو . وامتيازاته هو .. أما الجماعة . ، أما الأمة ؛ فعبء
إحسانه ، والتمتعون بشرف غطرسته وطغيانه . ١١

ألا إنه لدرس باهظ التكاليف . ويجب أن نحذقه ولا ننساه . .
وإن هذه الأمة التي مارست مع الطغيان تجربة شاقة ، لتستطيع أن
تمارس مع الحرية تجربة رغيدة ونافعة . . والزام اليوم في عيها . ونقطة
البدء أن ننظف مجرى النهر من جديد . ، نهر شخصيتها . وسلوكها ،
وتطورها .

وكما جعلنا الخطوة الأولى لتكوين الفرد الأخلاقي تحريره من الخوف .
فكذلك يبدأ تكوين المجتمع الأخلاقي بتحريره من القهر .

والآن ، ونحن نرجو أن يكون قد وضع أثر طغيان الحكم في وقف
النمو الخلقى للجماعة ، ننتقل إلى طغيان آخر لا يقل عن أخيه سوء أثر
وعاقبة ، بل قد يزيد . . لأنه طغيان يفرضه المجتمع على نفسه ، ويقوم له
الشعائر والناسك . ومن هنا لا يفكر في الخلاص من أسره وأصفاده . . ١٢

الواجب .. لا القوة

« يقول السيد الرب ، أنا لا أسر
بموت الشرير . ، بل بأن يرجع
الشرير عن طريقه ويحيا . . »
— المسيح —

في هذا الفصل

- حدث خلال القرون . . .
- الاستعمار الداخلي
- البيت
- المدرسة
- الجزء الاجتماعي
- الرأي العام
- ماذا نعى بالواجب ؟ . . .

مهرت غمرل القرون . .

خلال تطورتنا الانساني مررنا بمراحل وظروف زرعت فينا حيننا
إلى القوة وطلب الحماية . . لسنا وحدنا . . بل جميع أمم الأرض .
ولا نكاد ندري كنه هذه الظروف تماما . ، أو لعلنا ندري . .
فالانسانية في أيامها الأولى الحامية ، كانت شديدة الشعور بالضعف
وبالخوف مما بين يديها وما خلفها وما حولها .

كانت تخاف الرعد والبرق والمطر والرياح والوحوش والظلام
والمجهول . .

وكنا ، أو بالأحرى كان آباؤنا أولئك ، يسرحون الطرف الوجمل
في الأفق الأعلى . . أليس تمت شيء يحرصنا . . شيء يحمينا ويهديء
روحنا . . ؟؟

ويجيبهم زئير الفضاء مدممًا عليهم بمخاوف جديدة .

ومع هذا ؛ فقد كان في أعماق وجودهم صوت يهيب بهم ! تقدموا . .
سيروا على أشلائكم . ، خوضوا وسط مخاوفكم . . ذلك صوت قانون
عظيم لم يكونوا يومها يعرفونه ، ولقد عرفناه نحن اليوم . إنه قانون
الواجب . .

ولندع الواجب الآن ريثما نعود بالحديث إليه . ولنمض مع القوة لنرى
كيف تغلغلت في وجداننا الناشء البعيد .

ترنح آباؤنا إذ ذك قرونا طوالا تحت ضربات القوى المجهولة .

واستحوذ عليهم شعور نام عريق بأن اليد التي تمتد لمساعدتهم وحمايتهم ،
تكون صاحبة فضل عظيم . ١١

فاذا ظنوا الشمس القوة التي تدمرهم إذا سخطت وتحميمهم إذا رضيت ،
لاذوا بها ، وتبتلوا لها . . . واتخذوها إلهاً . . . وغير الشمس من قوى
الطبيعية وظواهرها ، حتى الحجارة . . . ؛ فقد كانوا ينشئون منها معبداً ،
وينصبون داخله إلهاً خلقوه بأيديهم ، ثم يبعثون في أنفسهم اقتناعاً بأنه
القاهر فوقهم ، المسكن روعهم ، المبرم لهم جميع الأمور . . . ١١ .

طالما شعروا من قبل بهوة تتعاضم مجتازها . . فراغ هائل موحش
يفصل بينهم وبين سر هذا الكون المتعاضم المهيّب . ومع الأيام بل القرون
كان هذا الفراغ يزداد جثوماً وعمقاً وتوغلاً . . حتى جاء اليوم الذي
لا بد من ملئه ولو بأكذوبة . . ، ولو بوهم . . ولا يزال لهذا الفراغ
بقايا رغم الذي حدث . .

ولكن ماذا حدث ؟ ؟

ليس الكتاب الذي في يدك كتاب تاريخ . وحسبك ما تعلمه من تلك
الأطوار التي صعد خلالها تاريخ الإنسان خلقاً من بعد خلق ، وطورا
من بعد طور حتى جاء عصر الاستعمار السياسي الذي يثمره الغزو ورغبة
الأمة الغازية في سلب الأمة الجاثية . . وكان من أهم الأسباب النفسية
للمهدة له بين الشعوب المغلوبة ذلك الشعور الدفين في أعماق الناس .
الشعور بالحاجة إلى ملاذ يكون أكثر قوة وأشدّ بأساً ، لتستقر في
كنف قوته وجبروته مخاوفنا وتطمئن هواجسنا . . وليس أدل على ذلك

من أن الاستعمار في يومه البعيد كان أملاً يسعى إليه ، ورجاء تشد إليه
الرحال . وكان الضعفاء يدعون الأقوياء لاستعمارهم واستثمارهم نظير
حمايتهم ، . وأنتم تعرفون أنه من هنا نشأ الأقطاع . . . ١١
الحنين إلى « القوى التي يحمينا » هو إذن أمر تقليدي أو يكاد
يكونه . صاحبنا منذ نشأتنا الباكرة ، ووجودنا الأول . . . ولكنه في
صورته المهترئة المملوءة ، للمستسلمة . . . صفة البدائين للوغلين في القدم ،
الذين كانوا يتسلقون الأشجار ، ويسكنون الجحور . . . فقد مضى الانسان
يتخفف من أثقال هذه الحاجة رويداً رويداً . لأن قانون الواجب كان
يستيقظ في وجدانه كذلك رويداً رويداً . . . وكما استيقظ منه جزء ،
زحف على جزء من التعب للقوة فمحاه وأخذ مكانه .

ما النتيجة التي نريد بلوغها . . ؟ ؟

هي ذى . . الأمم التي نبصرها اليوم شديدة التعب للقوة ، دائمة
التوسل بها لتنظيم مجتمعيها ، أمم غير نامية ، ووجدانها المغم غاص
برواسب ماضٍ سحيق تحررت منه تلك الأمم السباقة التي زحف الأحساس
بالواجب على وجدانها فمحا آية القوة أو كاد . . .

ولقد صار مقياس تقدم الجماعات والأمم موسوماً بتفوق خضوعها
للواجب على خضوعها للقوة . بل إن التقدم الأنساني كله صار اليوم رهنا
بما يبذله من سعي حثيث للنأي عن القوة والسير في موكب الواجب .
الواجب نحو أنفسنا ، والواجب تجاه غيرنا . ويكاد عمل الإنسانية
للمعاصرة ينحصر في مواصلة الكشف عن قانون الواجب ، وإذكاء روح
الأخلاص والمهارة في تطبيقه واتباعه .

أعسير علينا أن نأخذ مكاننا بين صفوف القافلة الزاحفة المتحررة.
من أثقال ماضيها ؟ ؟

إنه لسواء أن يكون الأمر يسيراً أو عسيراً ، هيناً أو صعباً ؛ فلا بدّ
منه إذا أردنا أن نتطور ونتمو . بيد أن الإيمان بيسره وإمكانه يشد
زناد الأقدام والسعى ، فلنفيء على أنفسنا هذا الإيمان . ولسنا بحاجة إلى
أن نخدع ذواتنا ، ونستهويها بوسائل الأغراء والأبحاء لكي تطمئن إلى أن
السير في الطريق التي ذكرنا ، أمر لامشقة فيه . فالحق أنه كذلك فعلاً . .
أجل ، فكل سلوك يوائم طبيعتنا ، ولا يعارضها ، ويعبر عنها ،
ولا يتحداها ، ويقوم على تعليتها ، لا على تحطيمها . يكون سهل للنال
ميسور الأخذ . . ، فهل إرباء الواجب على القوة من هذا النوع ؟ ،
هل هو محاولة ضد طبيعتنا الإنسانية أم في سياقها ؟

ألا إنه ليس يسير في سياق الطبيعة فحسب ، بل ويعبر عنها تعبيراً
لا بد منه .

فالواجب ، كما يقول الفيلسوف - جويو - : « فيض في الحياة
يريد أن ينفق . وهو لا يأتي عن إكراه أو ضغط خارجي . . إنه تعبير
عن قوة طائفة تظهر إلى الخارج في حب وغيرية » . . .

ونعود إلى أنفسنا - نحن سكان هذه الرقعة من الأرض - مصر
وما حولها . . ما حظنا من الرواسب المضنية التي تجعل إيماننا بالقوة أرجح
من إيماننا بالواجب ، وتجعل استجابتنا للقوة أكثر من استجابتنا
للواجب ، هذا إذا كان للواجب في حياتنا السلوكية مكان . ؟ ؟
ولسوف نجد حظنا منها - أعني تلك الرواسب - وافياً موفوراً . .

وهى ليست فقط بقية مما خلفته البشرية الأولى فى وجدان الإنسانية وضميرها ؛ فنصينا يزداد عن هذه البقية ازدياداً متناسباً مع الظروف التعسة التى نجامنها الآخرون ووقعنا نحن بين أنيابها ومخالبها . ، وتتلخص فى الاستعمار . . .

لقد وقعت بلادنا تحت ضربات موصولة من غزو متتابع . ونحن حتى هذه الساعة لا نزال تنفض عن معاصمنا قيوده وأغلاله .

كم هو طويل وعتيد خيظهم الذى يتخلل نسيج حياتنا حتى اليوم . (١)
فمن فرس إلى يونانيين ، إلى رومانيين ، إلى أويين فعباسيين ،
فطولونيين ، وإخشيديين ، وفاطميين ، وأيوبيين ؛ فماليك ، وعثمانيين ،
وفرنسيين ، وإنجليز . . . ١١١

كل هؤلاء مروا بنا ، وليس فيهم من لم يستقبله آباؤنا بالحفاوة والبشر . لأن كل غزو قادم كان يمثل أملاً جديداً فى الخلاص من مظالم الغزاة الأقدمين . . . وهكذا أذكت الممارسة الكثيرة لهذه العادة الحنين الموروث عن البدائية للقرضة . الحنين إلى « القوى الذى يحمينا » ١١١
وكان هذا عاملاً من عوامل استبقاء الإيمان بالقوة والاعتماد عليها .
وليس ذلك فحسب ، فقد كان كل غاز يجيئنا حاملاً تقاليدته ، وسلوكه ،
ومذاهبه . ومهما يذكر عن تلاشى الحضارة الظاهرة فى الحضارة المنهزمة ،
فأن الأمر بالنسبة لنا كان مختلفاً إلى حد كبير . ربما لأن الغزو لم يكن
واحداً يذوب فينا وندوب فيه . . بل متكرراً ، ومتعاقباً . . كان كليل
الشتاء ، طويلاً بارداً . فلا نكاد نفيق من استعمار حتى ينالنا استعمار
غيره . ، ولا نودع غازياً إلا على قرع طبول غازٍ جديد . . ١١

لم نجد الفرصة إذن لأنضاج ذاتيتنا . ، وللتطور النبتى من جماعة
ملومة الشمل ، موحدة الميل ، تدفع كرة حياتها فى تناسق وتعاون
وإدراك مشترك لوحدة الهدف . وإذا كنا ننسل اليوم من آخر أ كفان
الاستعمار الذى لبث فىنا قرونا ؛ فينبغى ألا يعزب عن وعينا مدى
الانطباعات التى تركها فىنا والتى نعالج منها فى هذا الفصل أهمها وأخطرها
على سلوكنا وأخلاقنا ، ويتلخص فى هذه العبارة : « القوة . .
لا الواجب ! ! »

إن استعماراً آخر أكثر ضراوة من الاستعمار الراحل ، أو الاستعمار
الأجنبى السياسى يحتل كل أركان حياتنا . وقواه مبثوثة فى نفوسنا بشكل
يدعو لليقظة والعمل الحاسم الفاهم . ، وهو أكثر ضراوة وأشد
تشكيلاً لأنه لا يلبس ثياب الاستعمار ولا يحمل أسلحته . ، ومن ثم فهو
لا يثير من الضغن والتحفز والهجوم عليه ما يثيره الاستعمار الآخر
المنظور . . إنه لا يحتل مدائن ، ولا يسير فى شوارع فنلقاه ونحاربه .
بل هو يتقمص أجسادنا وأرواحنا ويسير فى دمائنا ، فى ثقافتنا ، فى
وجدان الجماعة وإرادتها وإدراكها . ذلك الذى نسميه :

الاستعمار الداخلى . .

ماذا نعى بالاستعمار الداخلى ؟؟

إننا نعى ذلك الحجر المضروب والوصاية المفروضة علينا فى الأسرة ،
وفى المدرسة ، وفى المجتمع . نعى الرغبة الراسخة فى التسلط ، والاستعلاء ،

وإلقاء الأوامر التي يجب أن تمتثل وتطاع . . . وبعبارة موجزة نعني « التربية عن طريق القوة » . . .

إن في تربيتنا تقصاً أساسياً شاملاً ، ونعني بكلمة « أساسى » أنه صميمى موجود وراسخ في صميمها ، ومتخلل نسيج كيائها . . . ونعني بالشمول كافة أنواع التربية ومسالكها . . . تربية البيت . . . وتربية المعهد . . . وتربية المجتمع . . .

فنحن جماعة تعتمد وسائل التربية والتعلية فيها على مبدأ مقدس ملتزم هو « لا تفعل » . . .

ولقد تناولنا جرائر الاعتماد على الحظر والتحريم في كتابنا « هذا . . . أو الطوفان » . . . بيد أننا تناولناه هناك من زاوية الدين . . . أى كشفنا عما يفضى إليه الأسراف في استعمال الحظر الدينى من انحدار وانهيار . . . ونريد هنا أن نتناوله من جانب التربية العامة والسلوك الاجتماعى اللذين يقومان على أساس باطل وفاشل من القهر والحظر . . .

هناك في كل مكان وشارع من المدينة ، تقع عينك على كلمات مسطورة . قد لا تشير اهتمامك ، ولا تنادى خواطرك . لكننا هنا سنستسمعك في أن تدبر عليها خواطرك ، وتركز حولها انتباهك قليلاً . . .

انظر . . . هذه اللافتات التي تجدها في قاعات المحاضرات ، أو صالات دور الفن من مسرح وسينما ، أو داخل مكاتب دواوين الحكومة ، أو في أى مكان يضم مناسبة من المناسبات التي تقتضى النهى عن شئ . . . ستجد هذه العبارات « لاتدخن » أو « ممنوع التدخين » - « لا تبصق » أو « ممنوع البصق » - ستجد أيضاً « ممنوع الدخول لغير الموظفين » .

دع هذه الظاهرة لحظات . . وتعال إلى ظاهرة أخرى .
— هذه الأوامر والمنشورات التي تصدرها الحكومة — أى حكومة
طبا . ، والشركات ، والمؤسسات لموظفيها .. ستجدها جميعاً تنتهى بعبارة
تقليدية هي « والحذر من الإهمال » أو « ومن يخالف يحدث له كذا ،
وكذا » أو « وقد أعذر من أنذر » . . . ١١١

ونعادر هذه إلى ظاهرة ثالثة في البيت فنجد أكثر من تسعين في المائة
يصدرون لأبنائهم الأوامر مشفوعة بالتهديد بالعقوبة إذا خالفوا
أو فرطوا . .

هذه الظواهر العابرة تعطى صورة سريعة عن روح التربية والسلوك
في مجتمع يكاد جميع أفرادهِ يتحولون إلى أدوات نهى . . وأدوات
تعذيب . . . ١١١

في سويسرا — مثلاً — لا يكادون يستعملون عبارة « ممنوع » .
فحيث تقرأ هنا في حداثتنا « ممنوع قطف الأزهار » ، تقرأ هناك
هذه العبارة : « هذه الزهرة في يدك تكون لك وحدك . ولاكنها في
مكانها تكون للجميع » . . . ١١٢

انظر ١ ، إن الفارق بين عبارة « ممنوع قطف الأزهار » والعبارة
التالفة في حداثق سويسرا ، يمثل في صدق الفارق بين المجتمع السويسري ،
والمجتمع المصري . ، والعربي .

بين مجتمع تخلت القوة فيه عن مكانها للواجب . ، وآخر تخلى الواجب
فيه عن مكانه للقوة . . .

وحدثني صديق زار « لندن » وفي أحد أنديتها الليلية وجد العبارة

الآتية مسطورة فوق إحدى اللافتات : « إذا كنت من هواة وضع
أعقاب السجائر في فنجال القهوة ؛ فأخبرنا لكي نحضر لك القهوة في
« طقطوقة » السجائر » !!!

والأزام والأكرام المتبدلين في ظواهر حياتنا ليسا عرضاً طارئاً .
بل عرضاً مزمناً لعلّة مزمنة وآفة لا بثة مقيمة . وهذه الأعراض تنتشر
على وجه المجتمع كالبثور ؛ فنراها في كل أشياءه . في سلوكه ، وفي تربيته ،
وفي ثقافته ، وفي تشريعه .

فهل يصلح مثل هذا المناخ لتربية أمة تربية سوية راسخة ؟ ؟

أم أن الجهود المبذولة في خلاله لا يمكن في أنقى ظروفها أن تمنحنا
أكثر من زخرف وألوان ؟ ؟

أجل ، إنها لا تمنح أكثر من الألوان والزخرف .. وشجرة الحنظل
لا تثمر الكثير .. والمجتمع الذي تنطلق دواعي سلوكه ، وحوافز تعليمه
وتربيته من الأكرام والخوف ليس أكثر من شجرة حنظل مريرة
الثمر والظلال ..

ذلك أن القوة الزاجرة الراجعة حين تصير سياسة دائمة للبيت ،
وللمدرسة ، والمجتمع فأنها لا تلبث أن تخلق ذلك الذي يسميه علماء
النفس بالسلوك القتالي ..

أجل إن « السلوك القتالي » هو الهدية التعسة التي يهديها الأرباب
للفضيلة .. !!

وهو الثمرة المحتومة لأرباء القوة على الواجب في تقويم الجماعة . والطامة

الكبرى هي كما قلنا من قبل في شيوع هذا السلوك وتحوله إلى نهج عام للمجتمع ..

فنحن عندما تفرض علينا من البيت طاعة سريعة ضارعة مشفوعة عند ترددنا بضرب مبرح وقسوة لاحقة ، يسبب ذلك جنوحاً في سلوكنا ، وانحرافاً في طبيعتنا .. بيد أنه إذا كانت المدرسة حافلة بالبر والحنان ، والمجتمع تشيع فيه روح الود الخالص ، والتقبل السمع ؛ فإن آثار قسوة البيت تتضاءل ، وتنكش في غمرة هذا الفيء الودود الزاخر الذي تحبونا به المدرسة والمجتمع .. أما إذا كانت المدرسة امتداداً للبيت بقساوته وردائه ، وكان المجتمع امتداداً للآتين المدرسة والبيت ، فتصوروا كم يكون المصير وببلا .. ١١

إن التلميذ الذي كان يدمن الحرب من بيته ومعهد ، والذي قال عندما سئل عن سر هربه وإباقه : « إني فيهما منزلي ومعهدى ، لا أحس بحاجة أحد إلى » ..

هذا التلميذ ، أو هذا العبقرى الصغير عبر عن سر كبير جد كبير من أسرار طبيعتنا الانسانية ..

فنحن بطبيعتنا نحيا حياة مساوية لشعورنا بكرامتنا . ومن أكثر مناشط هذا الشعور اهتمام الآخرين بنا . فإذا نحن حرمانا هذه الاهتمامات الفياضة المبهجة .. بل إذا تحولت إلى إهانات متساوقة في صورة أوامر تطلب الخشوع ، أو قسوة طاغية تشوه النفس ؛ فقد وضعنا أقدامنا على طريق الرذيلة مكرهين .

إن شعار «القوة ، لا الواجب» جدير بأن ينزل عن مكانه في عقولنا ،
وفي عواطفنا ، وفي سلوكنا .

إن ذلك الاستعمار الداخلى ، خلى بأن يرذل عن مجتمعنا لنبدأ بعد
رحيله الذى لن نأسف عليه بناء مجتمع جديد حر شعاره ، «الوجب ،
لا القوة» . .

فلنتعقب الآن معان هذا الاستعمار الداخلى وأوكاره . . وإذا كانت
من الكثرة بحيث لا يتسع وقت هذه الصفحات لغزوها جميعاً ؛ فلنطارد
في أهمها ، وأحفلها بالخطر المرقوب . وليكن أولها :

١ - البيت . . .

نما يؤسف أن التطور الباهر الذى أحال بيوتنا من أكواخ واطنة
إلى قصور كالأبراج ، لم يزامله تطور مماثل فى روح البيت ومسلكه . .
فالتقدم الشكلى فى بيوتنا يسير بخطى حثيثة ، بينما يتخلف بخطى قد تكون
حشيّة أيضاً ، تقدمها الأخلاق والتربوى . . .

إن تحسنا ما قد طرأ لأريب . ، ولكنه بالقياس إلى ما كان يمكن
أن يكون يبدو وكأنه لم يحدث شيء . . . فهل نستطيع تفسير ذلك
البطء البطيء . . ؟

فى رأينا أن عجز البيت عن إنجاب الطفل الصالح الذى سيكون بدوره
أباً صالحاً ، هو سبب ما يعانىة البيت من توقف عن النمو الأدبى الصاعد
فالولد الفج غير الصالح يمثل فى المشكلة السبب والنتيجة معاً . . فهو نتيجة

للبيت الذى لم يحسن تربيته ، وهو أيضاً سبب إخفاق أولاده الذين لن يحسن تربيتهم بدوره عندما يصير أباً ..

إننا نتوارث عاداتنا المنزلية بنفس السهولة والباعث الذين نتوارث بهما أسماء الآباء والأجداد .. فكما أسمى ولدى باسم أبى ، ثم يسمى ولدى ابنه باسم أبيه . نذهب على نمط مماثل فى توارث العادات وتساوق التقاليد . والتطور الذى أصاب تقاليد البيت وعاداته لا يزال بالنسبة لمعظم بيوتنا حدثاً عارضاً ، أو أمراً مريباً . ١١

وإذا نحن أدركنا مدى صدق العلم فى كشفه عن أن معظم رذائلنا ومساوئنا الخلقية طول حياتنا إنما ترجع إلى خبراتنا المبكرة فى أيام الطفولة استطعنا أن ندرك تبعاً لهذا ، المكانة الصحيحة للبيت ومدى الدور الذى يلعبه فى حياة المجتمع كافة ..

إن البيت المصرى ، بل العربى هو أول الأوكار التى تقطنها سياسة القوة وقانون الغابة .

فليس فىنا ذلك البيت الذى يجعل شعار تربيته « عامل ولدك كأنه كبير بالغ . فإن للطفل عزة وكرامة يذلها البطش ، ويهينها الأكرام » بل كلنا ذلك البيت الذى يقول ذووه « لا ترفع العصا عن ولدك ، واضرب الرأس فإن فيها الشيطان » .. ١٠

وإن الجهل الذى يعلأ وعينا ليدعونا للحرص الطاغى على أن يكون أبناؤنا امتداداً لنا .. ومن ثم ييذل البيت كل جهده فى دعوة الولد إلى محاكاة أبويه والانطباع بسلوكهما ، هذا فضلاعن عمل الطبيعة نفسها . ،

غير عابئين بالحكمة القائلة : « لا تكرهوا أولادكم على طباعكم ؛ فأنهم خلقوا لزمان غير زمانكم » ..

ويبدأ قانون الغابة في البيت سالكا مع الطفل أحد طريقين أو كليهما الأمر الصارم الناجح الذي تسكته الطاعة السريعة الضارعة .. ، والعقوبة التي تبدأ بالضرب وتنتهى بأحداث عاهة جسمية أو عاهة نفسية . أوها معاً .. وما أندر البيوت التي ترتفع فوق مستوى هذين المسلكين مع أبنائها ...

والأسراف في التوسل . بكلا هذين المسلكين ، أو بأحدهما ، يجعل من الطفولة ربحاً مزروعة .. (١) ونحن نعلم أو ينبغي أن نعلم أن من يزرع الريح يحصد العاصفة ..

أجل ، إن الضغط الذي يمليه البيت علينا ونحن أطفال ، لا يخلق طفولتنا وحدها ، بل يخلق مستقبلنا كله . فما الطفولة إلا الخطوة . الممهدة للرجولة المقبلة . وهذه القماءة التي تميز معظم رجالنا إنما هي نتيجة حتمية للطريقة الفاضلة جداً (١) التي يربي بها البيت المصرى أطفاله وأكباده ..

من آداب الصين القديمة وتعاليمها المقدسة تعليم يقول :

— « أيها الأمير ، كن أميراً .. ويا عبد ، كن عبداً .. ويا أب ، أنت أب .. ويا ولد ، لست سوى ولد » . ١

توزيع جميل . أليس كذلك .. ؟

إن الطغيان ملة واحدة ، وأسرة واحدة . طغيان الحكومة ، وطغيان

البيت ، وطغيان المجتمع . كلها يشد بعضها أزر بعض . وهذه الحكمة الصينية تكشف عن تضامنها العتيد .
بيد أن جميع عظماء الصين الذين صنعوا تاريخها الحديث والذين يصنعون ، كانوا من الأولى حطموا هذه الحكمة وداسوا بأقدامهم الباسلة قدسها الشريف (١) . .

ولو أن « صن يات صن » أبا الصين وباعث يقظتها . . ولو أن « ماوتسى تونج » العملاق الذي تشاد الصين الجديدة على يديه . . لو أن هذين وعشرات من طرازهما الذين عملوا ولا يزال بعضهم يعمل لمجد أمته . آمن بتلك الحكمة ووقف عندها لظل كما تريد له الحكمة الظاهرة أن يكون . ولد قزم صغير . . ولظلت الصين كأبنائها ، قرية كبيرة يطن الدباب الضارى فى كخوائها ، ويتدحرج ضحايا الأفيون فوق أرضها .
فاذا كان بعض سر عظمة هؤلاء أنهم لم يلتزموا حدودهم كأولاد ، وأطفال . فما أحرانا أن نرفع الحصار الضاغظ والحجر النقي عن أطفالنا ليسيروا فى موكب النمو المفضى لعظمة الانسان ، وعظمة الوطن . .

على أن هذه الآلة التى نحن بصدد عرضها تمثل الوجه الحسن من وجهى المأساة . أما وجهها الآخر الدميم . ؛ فصورته تتمثل فى الهراوة والسوط . . فى القسوة التى لا تتسرب فى أمر صارم فحسب ، بل وفى ضرب مبرح أليم .

فى زيارة لى لأصلحية الأحداث ، تحدثت مع خمسة عشر غلاما . ووجهت إليهم أسئلة كنت قد أعدتها فى خاطرى ، رجاء أن أصل بها وبالإجابة عليها إلى غايات أريدها .

ولو أن الصدقة عقل يفكر ويصير . وأرادت إقناعي بأثر القسوة
في إفساد أبنائنا ، لما صنعت أكثر مما صنعته لى في ذلك اليوم . . .
لم أكن أتوقع أبداً أن تكون القسوة المؤذية هي التي أودت بهم جميعا
إلى مثوالم الجارح في تلك الاصلاحية . قسوة الآباء والأمهات . . .
حسبت أنني سأجد من الخمسة عشر ثلاثة ، أو خمسة ، أو حتى عشرة
يمثلون ضحايا قسوة البيت وإرهابه . أما أن أجد الخمسة عشر شابا من
الطراز نفسه ، فقد كانت صدقة مذهلة حقاً .

سألت أحدهم :

— هل علم أبوك بمقرك هذا .

فأجاب : نعم .

! — وهل يزورك . . ؟

— نعم .

— في مواعيد دورية ، أم حسبما تسمح ظروفه ؟

— في مواعيد دورية .

— في أى أيام الأسبوع يزورك ؟

— يوم الجمعة .

وأنهيت محادثتي معه . وأدريت حديثا عاما مع الجميع حتى رأيت أنه

قد نسي حديثي الخاص معه . . .

ثم ألقىت سؤالا موجهها للحديث إليهم جميعا . بل ومتعمدا إشعاره

بأننى لن أشركه معهم في الإجابة مكتفيا بما سمعته منه . وكان هذا السؤال هو :

— هل فيكم من يتشاءم من بعض الأشياء ؟ ؟

— نعم ، وعدد سبعة منهم الأشياء التي يتشاءمون منها ، وكان صاحبنا من بين المتشائمين . .

وأُتِبت سؤالى السالف بسؤال آخر هو :

— هل تتشاءمون من بعض الأيام . كـبعض الناس الذين يتشاءمون من يوم الأحد . . أو من يوم الأربعاء .

وأجابوا إجابات مختلفة لم أهتم لها طبعاً ، لأن إشرأكهم مـى فى هذه الأسئلة بالذات لم يكن إلا مناورة أهدف بها إلى استخلاص إجابة صاحبنا . « س » الذى أجاب قائلاً :

— نعم ، أنشاءم من يوم الجمعة .

وعدت أسأله :

— تتشاءم منه أم تكرهه ، ؟ . ولما وضحت له الفارق بين التشاؤم والكراهية — نزولا على رغبته وطلبه أجبانى :

— بل أكرهه . . .

ولعلكم لم تنسوا بعد أن اليوم الذى يزوره فيه أبوه كل أسبوع هو يوم الجمعة . . ؟ !

عندما تبصرون فى الطريق أولئك المشردين ، وجامعى الأعقاب ، والحفاة العراة من غلمان كان يمكن أن يكونوا أشبالاً ؛ فاذكروا ما تموج به بيوتنا من أسباب الفظاظة والغلظة والأرهاب . هذه التى تحفز الولد إلى الهروب حيث يخسر أخلاقه ، ويتيهأ لتلقى مستقبله الذى لن يكون إلا مسرحاً لجرائمه المبهظة ، وجنائاته على نفسه وعلى الناس . . .

ووراء هؤلاء عشرات الألوف لم يهربوا ، ولم يشردوا فى الطرقات ،

ولم ينزلوا ضيوفا على الأصلاحيات . بل هم يجلسون هناك على مقاعد العلم في مدارسهم ومعاهدهم . .

ومع هذا ؛ فهم يحملون جنوحا كامنا غير منظور . وسألوكم حين تبصره وتفحصه ، ليس إلا ضربا من الاحتجاج على ما يتعرضون له في بيوتهم من قسر وقهر . .

انظر إلى شجارهم مع بعضهم ، وتحرشهم بأنفسهم ، وتمردهم على أسانذتهم . .

ثم انظر إلى حيرتهم إذا كانوا كبارا ، وإلى فراغ نفوسهم ، وإلى خيبة أملهم التي تملأ وجوههم وسيماهم . .

إن ذلك جميعه وأضعافه معه ضرب من الاحتجاج غير المقصود على ما يلاقونه هناك في البيت من إعنات وتحكم وعدوان .

لا زال تربيتنا ترى من سوء الأدب أن يتحدث الصغار مع الكبار . . فإذا أبدى الصغير رأيه مع ضيوف أبيه ، تلقى منه زجرا قاسيا : اسكت يا ولد . . .

وإذا توجه الطفل بسؤال إلى أبيه زجره أيضا إذا تكرر السؤال . . وإذا رسب التلميذ — مهما يكن جده واجتهاده — فإن البيت يشتعل نارا تريد أن تحرقه . . مما يحمل التلميذ على الهروب أو الانتحار .

فمثلا ذلك للمواطن « أحمد حسن » لو لم يغلظ هو وزوجه على ولدهما « سعيد أحمد حسن » لرسوبه في الدور الأول لامتحان الثقافة في العام الماضي ، لما أشعل « سعيد » في نفسه النار منتحرا . ، ولما غادر دنياه المتعبة القاسية في كفن من اللهب المشتعل المشبوب . . !

وكم لسعيد هذا — رحمه الله — من أشباه ونظراء .
ترى كم واحداً في كل ألف منا يجد بين ذكريات طفولته مثل هذه
المتعة الفذة التي وجدها بطل القصة الآتية ؟ ؟ :

— إقرأوا . .

— « علمني أبي ، وكان عطوفاً مدبراً ، أن ألهو بأشياء بسيطة .
وكان مما أهواه في طفولتي أن أجمع شرانق الفراش ، وأن أراقب في
الربيع خروج الفراش منها كأنها أزهار . وكان جهادها في التخلص من
سجنها يثير عطفى دائماً . وآتي والدي يوماً بمقص ، وأعمله في غلاف
الحرير المقفل على الفراشة وساعدها على الخلاص . ولكن لم تلبث
الفراشة أن ماتت .

قال لي أبي : « إن الجهد الذي تبذله الفراشة يابني لتخرج من
الشرنقة يخرج السم من جسمها ، وإذا لم يخرج هذا السم ماتت الفراشة .
وكذلك الناس . إذا جهدوا في سبيل ما يريدون ازدادوا قوة
وعزماً . ولكن إذا واثم ما يريدون سهلاً طبعاً غلب عليهم الضعف ،
ومات منهم شيء جليل الخطر » .

« وأراني اليوم أقدر على احتمال أوزاء الحياة لأن أبي علمني منذ
الصغر تلك الحقيقة البالغة » ١١

كم هو رائع هذا المثال . ١

ليس والدامع طفل ، هذا الذي يتكلم . . ولكنه صديق يتحدث
إلى صديقه وزميل يتناجى مع زميل . ١١ وهكذا نحرم شبابنا من أهم
مقومات الفضيلة حين نحرمهم من الثقة بالنفس واحترامها . وذلك

بسبب المعاملة الجافة القاسية التي تعاملهم بها أطفالا ومراهقين .
وكم أما من بين آلاف الأمهات تستطيع أن تذكر ولدها في غبطة
وابتهاج وتعدد مناقبه في نشوة وثقة كما فعلت تلك الأم الأمريكية التي
تحدثت عن ولدها فقالت في زهو ونخار :

— « يبلغ ولدي جون اليوم الثالثة والعشرين من عمره ، وهو
شغوف بالقراءة ، محب لمعاشرة الآخرين ، مولع بالألعاب الرياضية ،
وبمصاحبة الزميلات » . . . ١١

لعلكم ستحسبونها أما داعرة ، هذه التي تبتهج إذ ترى ولدها
شغوقا بمصاحبة الزميلات . . . ١١
ولكن انظروا البلاء الحسن الذي أبلته في سبيل تربيته وتنشئته . .
ها هي ذي تتحدث فلنصغ إليها .

— « كان الركن الذي يقوم عليه مذهبي في تثقيفه هو أن أساس
التربية جميعا هو الاعتماد على النفس ، وأن قوام الاعتماد على النفس ،
هو قدرة المرء على العمل بيديه . وقد أخذت على نفسي عند ما بلغ
جون الثالثة من عمره أن أدرب يديه على العمل ؛ فكنت أنبطح على
الأرض وأساعدته في بناء بيت من قطع الخشب . كنت أدع له الرأي
فيما يبينه . وكنت أنا أسدده وآبى إلا أن تكون الجدران مستقيمة
والزوايا قائمة والسقف متينة . فلقد أردت أن أعود أنا مله على العمل
بالدقيق . . ولما بلغ جون الرابعة من عمره علمته استعمال الآلات . وكنت
أرى في استعمالها تدريبا لليد والفكر معا . .

» ومنذ نعومة أظفار جون وأنا أغرس في ذهنه صورة من كل

نظرية أو قاعدة . . . ومنذ أيامه الأولى وأنا أعامله كرجل مهذب .
وقادر » . . .

إننا نحرم أولادنا ومجتمعنا من الفرصة الجزيلة التي تمكن من
الفضيلة ، وذلك بما نسلكه تجاههم من قسوة مباشرة أو غير مباشرة . .
وعلاقة الولد مع أبيه ومع أسرته . تحدد فيما بعد علاقته بالدولة والمجتمع ؛
فالدولة هي بديل أبيه عندما يصير رجلاً كبيراً . والمجتمع بديل أسرته
ومنزله . فإذا كانت علاقته السالفة بأبيه وبالبيت مشحونة بالبغضاء
والحقده ، فإنها ستلبس نفس الثوب حين تكون مع الدولة والمجتمع . .
ذلك أننا حين لا نلهم ونحن صغار بعطف آبائنا وتقدير ذويها ، نعيش
حياتنا كلها في خوف مستمر من عدم عطف الغير علينا . ويصاحبنا
إحساس ضاغط بسوء رأى الآخرين فينا ، ورغبتهم في القسوة علينا .
وهكذا نسلب خير نعم الحياة وفضائلها . نعمة التعاطف الاجتماعي الذي
يظفرنا بنشاط مشترك منأزر يسعى بنا نحو غايات مشتركة صاعدة . .
ويطارد « قانون الغابة » المنزلئ الأبناء من الطفولة إلى الشباب .
بل هو في هذا الدور الثاني أكثر عدواناً وصلفاً . .

ونستطيع أن نقول إن الطفل في بيوتنا ، أعنى معظمها ، يفقد
نصف شخصيته ؛ فإذا كبر وصار شاباً فتياً فقد نصفها الآخر . . .
ذلك أن الطفولة بما فيها من ضعف يستدر الرحمة التي تشفع لنا
أحياناً لدى آبائنا ؛ فتخفف من حدة بطشهم وإكراههم وأيضاً فإن
شعورنا بما لنا من حرية واختيار يكون في تلك السن المبكرة خافئاً
وقنوعاً . . أما في طور شبابنا حيث ينمو شعورنا بالحرية المساوية

فيرداد عذابنا النفسى . وحيث يتخلى عنا شافع الطفولة الذى ذكرناه . ؛
فأن إحساسنا بوطأة الألزام والقهر يكون قادحا وثقيلا . . .
مالون القسوة والاستبداد اللذين يسلكهما البيت معنا فى سن الشباب ؟؟
إنه اختيار الدراسة التى ندرسها ، وتعيين الوجهة والمصير . . .
فى الصيف الماضى وقف شاب فى مصيف رأس البر أمام «اللسان» . .
وكانت الشمس تتداعى مائلة للمغرب بعد يوم من أيامها الحافلة
بالبذل والإنفاق . . وكأنا أسر مشهد الغروب لنفس فتانا حديثا ؛
فسرت فى كيانه قشعريرة رهيبة . مخرت عباب جسمه فى مثل سرعة
الضوء ؛ وجأة سأل نفسه :
— أأفعلها ؟ ؟ . . .

لقد ذكره مغيب الشمس بأمل له طواه الغروب . وانتهز الصراع
النفسى الكامن فى نفسه فرصة الضعف الموائى فانقض على إرادته اللينة
يريد أن يدفعها إلى الفناء . .

وتمثل هذا الانقضاض المدمدم فى صرخات غير مسموعة انطلقت
فى خواء نفسه نائحة : أجل ، افعلها . . هاهو ذا البحر أمامك . لن تجد
قبرا أرحب منه . بل لن تجد «لإنهائية» تخلق فيها مشيئتك المعطلة سواء . . .
ومن يدري ؛ فلو أن هذه التجربة مرت بصاحبنا وهو هناك وحده
لكان محتملا أن نتعته الآن بالفقيد وبالمرحوم . . .

إن مأساة هذا الشاب مأساة الكثرة الكاثرة من نظرائه . يريدون
للمستقبل طريقا ، ويصر آباؤهم على طريق . . .

هم مثلاً يريدون كليات الآداب ، أو التجارة . وآباؤهم يريدون الطب ، أو الهندسة . .

إننا لا نسلب الآباء حق توجيه أبنائهم ، ولا ندعو لأهمال تجاربهم وخبراتهم . بل نحترم لهم ذلك الحق . . وننصح الأبناء أن يضعوا تجاربهم وآراءهم موضع التقدير والاعتبار . . لكن ذلك ينبغي أن يتم بأسلوب متكافئ . لا يشبع رغبة الأب بامتصاص رغبة الابن . لا ينفس عن نزعة الوالد ، بخنق نزعة الولد . . أجل بطريقة نعامل بها شباباً له عقل ووجدان وإرادة ، لادى خشية تعبت بها وبمصاريرها أنامل الآباء . . ! وإذا كان لا بد للوالد - أى والد - من سوق ولده فى الطريق التى يريد بها ، فليكن من الفطنة بحيث يعد نفس فتاه ويهيئها للقبول فى وقت مبكر مستعيناً بوسائل الأقناع والأيهام وحدها ، حتى إذا أثمرت الوسيلة التى سيارسها فى رفق من مبتكر الدراسة الثانوية على الأقل ، دفعه فى حصافة إلى حيث يريد . .

وتمت صورة أخرى من صور « الاستعمار الداخلى » الذى يهيمن به البيت فى غلظة وعدم مبالاة . .

هؤلاء الفتيات اللاتى يدفعن إلى أزواج لا يريدونهن . أعرف « فتاة » كانت كالزهرة . . تقدم لخطبتها شيخ هرم فى مثل سن أبيها بيد أنه من ذوى الجاه والثراء . . (١) ورأت الفتاة أنها ستكره على معاشرته والاقتران به ؛ فهددت أهلها بالانتحار . ولم يأبهوا لها ولا لتهديدها . ، وزفت إلى مصيرها فى ليلة حالكة السواد . . ، وبعد ستة أشهر طلقت من زوجها بعد أن أعلنت حرباً على كل حرمانات الحياة الزوجية (؟) .

وبعد عام رأيتها صدفة في الطريق ؛ فلم أكد أعرفها . . . كانت مغبرة
الوجه متسخة الثوب شاحبة الوجه متهاكة الخطى . . . لا تزال مرارة
تلك النظرة في حلقى . . . وسألت عن أمرها فيما بعد ؛ فعلمت أن أهلها
رفضوها بعد الطلاق . فأخذت مكانها كعضو جديد بين بنات الهوى
الرخيصات . وأيضاً احترفت تجارة المخدرات . . . ١١

ولو أننا جندنا من رجال الأحصاء ثلة ليدركوا عدد اللاتي يماثلن
فتاتنا في المأساة ، ويشاركنها في المصير . لتقطعت أنفاسهم إعياء
ولما يشارفوا منتصف الطريق . . . ١

أين يعيش هذا الطراز من الآباء ، ومن البيوت ؟ ؟

في غابة ، أم في مجتمع ؟ . . ١

في قطيع ، أم في أمة ؟ . . ١

وهل تواتى الفضيلة قوما لهم مثل هذا السلوك ؟ . . ١

إننا لا نستطيع أن نطالب الحيوان بأن يكون فاضلاً ، وعلى مستوى
كريم من الأخلاق الرفيعة . . . وهل الفناء التي تعامل تلك المعاملة ،
وتدفع كخرقة الثوب إلى أحضان بعل يترامى لها بغلا . (١) ، هل مثل
هذه تكون إنساناً حتى نطالبها بمكارم الأخلاق ؟ ؟

لقد قام واحد من كبار علماء النفس والتربية بتجربة طريفة .
تقدمها هدية لبيوتنا جميعاً . . .

إنه أكره حصاناً على أن يطاء فرساً قصيرة السيقان غليظة الجسم ،
فبعد أن فعل ، أصيب أى الحصان بأسهال مفاجئ . . . ثم اثبت بعد ذلك
زمناً طويلاً يتحاشى أن يقع بصره على تلك الفرس داخل الحظيرة . . .

وكان كلما مر بها أشاح بوجهه كأنه يعبر عن احتقاره لها ، واشتمزازه منها
فإذا كان الحيوان يملك حسا جماليا يدفعه إلى اختيار ما هو جميل
ومناسب ، كما يدفعه إلى الاشمزاز من القبيح . . أفليس يملك الإنسان
شعورا بالجمال يلزمنا تقديره وإعطائه حقه وفرصته . . ؟ ؟

إن معظم الخيانات الزوجية ناجحة عن هذا اللون البشع من
الأكره . إكراه الفتيات على زواج لا يردنه ، ولا يحملن له مودة
ولا توقيرا . .

وهذا الحكم لا تصدره عفو الحديث . ولكنه صورة يقين أثمرته
الشواهد والمثالب . .

ولذلك الأكره سمات شتى ؛ فليس هو فقط ذلك الذى يعتمد على
العقوبة والتهديد والأرغام . . بل إن منه ذلك الذى يجيء عن طريق
الخداع ، والاستهواء ، والتخدير الذى يسلب البنت إرادتها مؤقتا ثم
تفقد بعد ذلك لتجد نفسها بين ذراعى ، أقصد بين جناحي غراب
مفزع دميم

لا بد أن يعرف البيت واجبه من جديد ، ويسوس ذويه وأبناءه
بوحى من الواجب ، لا بسلطان من القوة .

إن بيوتنا تسلك سلوك الفتى المراهق الذى يستطيع أن يسير في
غبطة عشر ساعات على قدميه مع مظاهرة تصفق وتهال معرضا نفسه
بهذا للأذى والضنى وسوء الحساب . ولكنه يعجز عن أن يجلس ساعة
واحدة مستقبلا مسألة رياضية يحلها ، أو نظرية علمية يهضمها . . !

هكذا بيوتنا ، فهى تفر من الوسائل السليمة للتربية والتقويم ، لأن

هذه الوسائل تحتاج إلى مصابرة وحلم وجهد . وتتوسل بالقوة والقسوة لأنها لا تكلف أصحابها سوى حمل العصا ، وإصدار الأوامر . . . ! !

إن تكوين العادات الصالحة - مثلا - أجدى على التربية من الأرهاب . فهل تستطيع بيوتنا أن تسلك بنا هذا السبيل . ؟ طبعا لا ؛ ففاقد الشيء لا يعطيه ، والبيت المصرى بل العربى لا يزال يفقد العادات الصالحة حتى بين الآباء والأمهات . . . !

هنا القوة يا رجال ويا آباء . . .

القوة الشريفة التى تجعلكم قدوة تحتذى ؛ فهل تغلظون على أنفسكم قليلا لتبلغوا ذاك المستوى . ؟

إننا نفعل العكس تماما . . . وهنا تنقلنا المناسبة إلى لون آخر من ألوان القوة الطاغية فى البيت وما تؤديه من خدمات سافلة . (١) .
فالواقع أن الآباء لا يستعملون العنف مع أبنائهم وحدهم . بل كثيرا ما يقع العنف على الأم أيضا . . . وإنى لألقى سؤالا :

عندما يتشاجر الزوج مع زوجته ويكون من كرام الأزواج ماذا يفعل . . ؟

إنه يفض الشجار بالانسحاب ومغادرة البيت مؤقتا . . .

ونحن نعتبر هذا منه سلوكا كريما ، والحق أنه كذلك فعلا إذا قورن بسلوك الرجل الآخر الذى يفض الشجار بشج رأس زوجته أو إهدائها عاهة دائمة فى جسمها . . . ! ! !

ومع هذا ؛ فانظروا ما يسببه ذلك السلوك الكريم من جرائر وجرائم . .

إن أولادنا الذين يهربون من بيوتهم ، وينخسرون أخلاقهم ، وقد

ينتهى بهم المسعى إلى إحدى الأصلحيات ، لم يفعلوا في الواقع أكثر من تقليد آبائهم . .

فلطالما رأى الولد أباه يهرب من الشجار إلى الشارع ريثما تهدأ أعصابه ثم يعود . . فتكونت في وجدانه فكرة عن أن الفرار من البيت هو العلاج الحاسم لما يلقاه من إعنات وشجار . . بيد أنه لن يكون مؤقتا كهروب أيه الذي لا يزيد عن ساعات .
وإنما سيكون هروبا يناسب سن الفتى واضطرام عواطفه ، وضالة مسؤولياته . .

فسياسة القوة إذن في كافة أزمائها ، عمل تخريبي للأسرة وللمجتمع ، وتمهيد موفق لنشر الرذيلة بين الجماعة كلها . . وتستطيعون أن تضيفوا لما ذكرنا من عواقب « الإكراه المنزلي » تلك الأمراض النفسية المدمرة التي تدمغ بها القسوة نفس الشاب وحياته ، من عصاب ، إلى صرع ، إلى انحراف ، إلى سلوك قتالي لا يحيا صاحبه بغير عدوان . . .
إننا بقانون الغابة الذي نستعمله مع أبنائنا نملأ بواطن أنفسهم بالصراع الذي لا يكاد يفارقهم أبدا . والصراع الداخلي في النفس يضعف القدرة على أداء الواجب ثم يلاشيها .

ولو نعرف نحن مداخل هذا الصراع وتعبيراته لأدركنا أننا بقسوتنا على أبنائنا في أي صورة من صور القسوة ، نهى المجتمع لحريق لا يبقى ولا يذر . .

فمن بين مرضى العالم « أوجست أيكهورن » مؤلف كتاب « الشباب الجامع » نلتقي بشاب يصلح أن يكون عبرة لنا . . وليس موطن العظة

في نبأه خطورة مسلكه ، بل غرابة الأسلوب الذي عبر به « اللاشعور » عن انتقامه من أبيه .

ولنبداً القصة ذاكرين أن القسوة التي وجدها الولد من أبيه في هذه الواقعة لا تكاد بالنسبة لما يقترفه الآباء تسمى قسوة . . فكل ما في الأمر أن أم الفتى توفيت ، وتزوج الأب بفتاة كانت صديقة للام الراحلة ، وكان الولد يحبها وأبوه لا يدرى . .

وأخذ هذا التصرف البريء طبعاً صفة القسوة في « لا شعور » الولد . . ثم لم تلبث أن تكونت في « اللاشعور » أيضاً رغبة في الانتقام . .

ما الشكل الذي برزت به هذه الرغبة للكبوتة إلى مسرح الشعور ؟ لقد كان الوالد يحترف تجارة الكحول غير النقي « السبرتو » فكان الولد يسرق الكحول الأحمر من زجاجاته ، ثم يبول في الزجاجات الفارغة ليملاها بسائل يشبه في لونه الكحول المسروق . . ١١١

يقول « ايكهورن » الذي قام بتحليل الشاب وكشف عن لاشعوره : « إن الفتى قد استخدم في الانتقام - دون قصد منه - نفس العضو الذي أحس أن أمه قد أساء إليه بسببه » . . ١٢

سلوك في منتهى الغرابة يقرع أجراس الحذر والنذير لندراً بالرفق والواجب ما عسى أن تدفعنا القسوة إليه من تهلكة وبوار .

والآن . ماذا ينبغي أن نصنع لتطهير البيت والأسرة من هذا الذي وصفناه بقانون الغابة ، وبأى سبيل تتوصل لإنشاء علاقات منزلية جديدة تهتدى بالواجب ولا تتخضع للقوة . . ؟

السبيل أن ننشر عن طريق الأذاعة ثقافة منزلية واسعة . نبلغها في كافة ألوان النشاط الأذاعي - المحاضرات ، والتمثيليات ، والأغاني . .
والسبيل أيضاً أن نوصي الأدب الموجه ليشبع حاجات هذا الغرض بالقصص القصيرة والطويلة ، وبالبحوث العلمية ، في المقالات وفي الكتب . .
وعلينا أن نلاحظ ببطء هذه الوسيلة الثقيفية - ولذا فنحن في حاجة معها إلى وسيلة أخرى تكون سريعة الأجداء ، ونحن نرى أن تكون هذه الوسيلة « مكتب العلاقات المنزلية » . .

ماذا نغني بهذا المكتب ؟؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال أقول لكم إنني هممت أن أسميه « محكمة العلاقات المنزلية » بيد أنني تذكرت المنهج الذي أسير وأدعو للسير عليه . ألا وهو حذف القوة ورفع سلطانها ما وجدنا لذلك سبيلاً . .
وشيء آخر ؛ فنحن لا نريد أن تأخذ الأخطاء المنزلية صفة الخصومة بين الولد ووالده . وكلمة محكمة ووظيفتها أيضاً تشعران بالخصومة التي تتطلب المقاضاة .

إن مكتب « العلاقات المنزلية » ضروري لحياتنا وهو اليوم أكثر ضرورة منه غداً ، وضرورته في غد أكثر منها بعد غد . .
أما وظيفته وعمله ؛ فتكون تقديم النصيحة والمشورة الملزمة في الحالات التي تعرض عليه . .

وما هذه الحالات . . ؟؟

إليك أمثلة منها :

« زينب » فتاة مضيئة يمكن لو تزوجت زواجا موقعا أن تكون سيدة

فاضلة ، وأما لفتيان ناضجين . ولكن أباهما يريد أن يقحم حمى حياتها رجلا لا تريده . .

فلماذا تركها لبروة أبيها إذا كان سيء الاختيار ، ولماذا - أيضا - تركها لسوء فهمها إذا كانت سيئة الفهم والتقدير . .

لماذا لا يكون هناك من الأخصائيين الذين يزخرون بالود الإنساني ، وبالوعى والمقدرة ، من يفصلون في هذا الاتجاه المنقسم ، والخلاف الضار . . ؟ ؟

إذا زفت « زينب » لعريس أبيها (١) أعنى للرجل الذى يريد الوالد أن يفرضه عليها . . ثم آل أمرها وانتهى مصيرها لمثل مصير التى ذكرت لكم نبأها من قبل . فمن الذى سينوء بفسادها ، وانحرافها . . ؟ ومن الذى سيجنى العلقم من سلوك أبنائها الذين سيرضعون منها لبن الأفك المستهتر والحقد الضارى ؟ ؟
إنه المجتمع والدولة . .

إذن لماذا لا يتدخل المجتمع فى صورة مناسبة لا تأخذ صفة العدوان على الحرية والحق المكتسب ؟
ومثال آخر :

« توفيق » فى ريان الشباب ، متوقد الدهن ، مشرق النفس ، لو سار فى الطريق المرغوب لأمكن أن يقطر إلى نبوغ عظيم قد يهب أمته مثل ماوهبوا أمهم والانسانية جميعا رجال مثل « أديسون » و « شكسبير » و « اينشتاين » و « شارلى شابلن » ١١

ولكن أباه لا يريد أن يمضى فى الطريق المرغوب الذى تتحرق

شوقا إليه كل مواهبه وإمكاناته ؟

إن المأساة التي تملأ نفس « توفيق » بالفجيعة ليست فقط في أنه يدفع عكس هواه .. بل هي قبل هذا شعوره التعس بفقدان النصير . ١١ لماذا لا يناصره المجتمع ويعينه على أيه إذا كان مخطئا ، أو يقنعه بوجهة نظره إن يكن مصيبا ؟ ؟ .

إن « مكتب العلاقات المنزلية » يستطيع أن يقوم بهذا العمل الجليل . ورأينا أنه بما سيمنح من سلطات معقولة ، يستطيع أن يحل أكثر مشاكل الشباب . تلك المشاكل التي تغوص في نفسه ثم توجهه أضغانها إلى كل عمل تخريبي عقيم . .

وطبيعى أننا لا نغنى بمكتب العلاقات المنزلية ، مكتبا واحدا في مكان واحد . . بل سيكون مكاتب كثيرة متعددة حسب تعدد الحاجة إليها . ولقد قلنا من قبل : إننا نؤثر تسميتها « مكاتب » لا « محاكم » . وهذا فيما يختص بالمشاكل القائمة بين الأبناء والآباء . الأبناء الذين يوجهون رغم أنوفهم . ، أو الذين يهمل الآباء شأنهم لأنهم أبناء الزوجة القديمة (١ ؟) . . ، أو الفتيات اللاتي يكرهن على زواج بغيض . ولكن إلى جوار هذه المكاتب ينبغي أن تقوم « محاكم العلاقات المنزلية » ، أو « محاكم الأسرة » . .

وقبل أن تسألوني عن اختصاصها . . أقول : إنه ينبغي أن تقوم على أنقاض المحاكم الشرعية ، والمجالس المليية . . أظنكم أدركتم الآن اختصاصها . ؟

وأرجو من الدين سيعارضوننى أو ينفرون من رأى هذا أن

يلاحظوا كلمة « ينبغي » . . إثنى هنا ، وفي كل مناسبة أبدى فيها رأياً
أراه ، لا أستعمل كلمة « يجب » بل أقول « ينبغي » . .

ذلك أتى لا أحب أن أفرض على أحد رأياً ، ما دمت أرفض أن
يفرض أحد رأيه عليّ . . وكم أنا شديد الرجاء والرغبة في أن تنتقل هذه
العدوى للسقاة والمعارضين جميعاً ، لتستحيل الحراب المتلاحمة في معركة
الرأى إلى شموع نبصر فيها مسالك المعرفة والحقيقة . .

ما معنى أن يقوم في بلد متحضر محاكم خاصة للمسلمين ، ومحاكم
خاصة لغير المسلمين . . ؟؟

ومن الذى بدأ فصنع هذه التفرقة حتى نعرف الغرض الذى وضعت
التفرقة لخدمته ؟

وما معنى أن نكل بأخطر قضايا المجتمع وأهمها شأنًا ، وأولها
بالتقدير والاهتمام - وهى مشاكل الأسرة - إلى نفر من الشيوخ ، ومن
القسس ، لم تؤهلهم دراساتهم أدنى تأهيل لإدراك المشاكل التربوية ،
والنفسية ، والسلوكية ، والاقتصادية التى تعتمل فى الأسرة وتفرض كافة
أخطائها وانحرافاتها ؟

وكيف ننشد « وحدة الشخصية » وهى بداية السير فى طريق
الاكتمال الخلقى للفرد والجماعة . .

أقول كيف ننشد « وحدة الشخصية » لمجتمع ممزق الكيان .
هنا محاكم المسلمين . . وهنا محاكم النصارى . . ؟

وإذا كانت هناك ضرورة تدعو لتطبيق المنهج الدينى فى قضايا
الأحوال الشخصية ، المنهج الإسلامى والمنهج المسيحى ، فلماذا لا يوحدان

في قانون يحكم به قاض واحد ومحكمة واحدة . . بدلا من أن يكون
هناك قاضيان ، مسلم ومسيحي . . ومحكمتان ، شرعية ومالية . . ١١١
حقا إنه « كرنفال » نصفه فاجع ونصفه مضحك . .
ثم من قال إن مشاكل الأسرة أحوال شخصية . ١٢
شخصية . . ١٢٢

إن البيت هو المجتمع ، والعائلة هي الأمة ، وليست خلافاً المنزل
والعائلة أحوالا شخصية تمس شخص الزوج أو شخص الزوجة . . إنها
مشاكل الأمة والدولة والمجتمع . . إنها أولى بالاهتمام والعناية من قضايا
تزييف النقود وخلط الدقيق . .

اصحوا يا نيام . .

واعلموا أن الأسرة ليست من الهوان وضعة الشأن بحيث تمنح
ركنا جانبيا ، وعناية هامشية . .

واعلموا أيضا أن هذه النفرة فوق تحطيمها للوحدة القومية ،
ووحدة الشخصية ؛ فأنها تفتح للردائل الحلقية كل باب . .

أسمعت عن بيوت الطاعة ؟ ؟ إنه قانون المحاكم الشرعية . . مع
الاعتذار لكلمة قانون حتى وهي مضافة لكلمة الغابة . . (١١١)

لقد رأيت مشهدا لن أنساء . . فتاة في ربيع صباها بنت أسرة كريمة
فاضلة تفر مذعورة بقميص النوم إلى سطح المنزل ، ثم تقفز السطح في
مخاطرة بشعة إلى سطح منزل مجاور . .

أتدرون لماذا . . ؟

لأن أهلها فوجئوا بزوجها الحبيث الماكر يقتحم البيت خلسة ، من

النافذة ومعه رجل الشرطة ، لكي يقبض على زوجته التي يسميها قانون المحاكم الشرعية . « ناشزا » ولكي يسوقها إلى سجن الطاعة . . . معدرة أريد أن أقول بيت الطاعة . . ١١٩

ألم أقول لكم من قبل إنها بلاد السمع والطاعة ؟ ؟
مجتمع هذا ، أم « منسر » عظيم . . ٢٢

وكيف نوفق بين صراخنا العالي بضرورة التقدم ، والسير في قافلة الحضارة ، وبين إصرارنا على هذه العادات القديمة ، والزواحف المنقرضة . ١١٩٩

قد يبدو لنا صعوبة تنفيذ اقتراحنا الداعي لإلغاء محاكم المسلمين ومحاكم النصارى . ، واستبدالها بمحاكم الأسرة ، أو بمحاكم العلاقات المنزلية . . ولكن الأمر جد يسير .

فعدد المحاكم الشرعية في الإحصاء الرسمي لعام (١٩٥٠) هو — (١١٩) محكمة . .

ليكن تعداد وظائف القضاء بها حوالي مائتي قاض . .

وعدد المحامين الشرعيين في إحصاء عام (١٩٥٠) هو (٣٠٠٨)
يرافعون أمام محاكمها العليا والكلية والجزئية . .

لنقل إنهم الآن حوالي (٤٠٠٠) محام .

وعدا القضاة والمحامين يوجد الموظفون الكتابيون والإداريون . .
أما هؤلاء ، أعني الكتابيين والإداريين ؛ فيمكن وصفهم في أعمال مماثلة في المصالح المحكومة الكثيرة . .

وأما القضاة والمحامون ؛ فإننا افترضنا جدلا ، أنهم سيسرحون ؛ فإن

مستقبل وطن بأجمعه لا يمكن أن يبخل عليه بهذه التضحية ..
على أن الأمر لا يقتضى هذه التضحية بحال ، ولنفرض أننا نريد من
اليوم أن نبدأ تنفيذ الاقتراح وعندئذ تكون الخطوات المطلوب انتهاجها هي :
(١) وضع التشريع الموحد الذى ستحكم به « محاكم العلاقات المنزلية » .
(٢) توزيعه على القضاة القائمين وعلى المحامين لدراسته . وأعطائهم
فترة مناسبة لهذه الدراسة .

(٣) تحويل جميع قضايا المجالس المليية والمحاكم الشرعية إلى المحاكم
الجديدة التى ستحكم بقانون جديد ، ليس هو قانون الشيخ . . ولا قانون
القسيس . . بل قانون الدولة .

(٤) شغل المناصب القضائية التى ستخلو فى هذه المحاكم بموت أصحابها
أو بتقاعدهم — شغلها بخريجي كليات الحقوق مع إفساح دراستهم
القانونية لتوجيهات الدين وعلم النفس وعلم الاجتماع فيما يخص مشاكل
الأسرة بصفة خاصة . .

وأما المتخرجون فى كلية الشريعة بالأزهر ؛ ففى مهنة التدريس
متسع لهم . . ويمكن أن يتاح لهم إجراء « معادلة » تمكنهم من وظائف
القضاء إذا شاءوا .

إن قضاء البلاد ينبغى أن يوحد ويهذب . .
ومحاكم المسلمين ومحاكم النصارى ، ينبغى أن تتحول من فورها
إلى محاكم الأسرة أو العلاقات المنزلية ، التى ستكون بدورها جزءا من
قضائنا العام ومحاكمنا الوطنية . .
ولا بد من تشريع جديد لهذه المحاكم يلائم روح بلادنا الجديدة ،

ويزامل تطلعها المصمم وشوقها الزاخر إلى مستقبل لالغو فيه ولا تأثم . .
فإذا كان النزاع - مثلاً - بين « بطرس » وزوجه « ماري » وصارت
مصلحة الأسرة والأولاد تحتم التفريق بين ماري وزوجها . فليكن
القانون من الفطنة والقوة بحيث يفصل بالطلاق ، ولو كان السبب شيئاً
آخر غير الخيانة الزوجية . .

هل يعتبر هذا خروجاً على الكتاب المقدس ؟
ليكن ذلك ؛ فالكتاب المقدس لم يقل الكلمة الأخيرة في كل شيء . .
وإذا كان النزاع بين « أحمد » وزوجه « فاطمة » واقتضت مصلحة
الأسرة والأبناء أن يحرم على أحمد الاقتران بالزوجة الثانية التي يريد
الاقتران بها . مثلاً ، فليكن القانون من الذكاء بحيث يحرم باسم المصلحة
العامة ما جعله الدين مباجاً . ١

هل سيفض ذلك العمل أبا حنيفة والشافعي ومالكا ؟ حسن . ،
إنهم أيضاً لم يقولوا كل شيء . .

أما أن تترك بيوتنا وأجيالنا وديعة نصوص واتجاهات استنفدت
أغراضها ، فعمل غير صالح . وضلال يفضى إلى ضلال . .
وبهذا نضع حداً لرذائل الدين يتوسلون بتغيير الدين والعقيدة لمفارقة
زوجة ، وتشريد ولد ، وهدم أسرة . . ، ونضع حداً لرذائل الدين
يسرفون في الطلاق ، ويسرفون في الزواج .

إن مجموع المطلقات في عشر سنوات أخيرة بلغ في بلادنا - حسب
إحصاء الحكومة - (٧٧١٨٥٣) .

فاذا افترضنا أن ثلث هؤلاء المطلقات بلا ولد . ، وجعلنا متوسط

التربية للأخريات ولدين . . لزيد محصول مصر من الأطفال المشردين .
أو أشباه المشردين بسبب الطلاق في هذه الأعوام على المليون . . ١١
ثم إن المأساة لا تجف بهذه الأرقام المفجعة . فقضايا الطلاق المنظورة
في عام واحد بلغت (١٨٨٢٢٧) وكثيرا ما ينتهى الحكم فيها بالطلاق . ١١
إن بيوتنا آبار عفنة تضج بالأفاعى والجرائم . والمحاكم الشرعية
بنظمها والمجالس المالية بقوانينها تحمل من أوزار هذا التدهور ما يحتم
على الدولة إعفاءها من مهمتها ، وتطويرها إلى ما ذكرنا من محاكم
جديدة للأسرة . ، ذات نهج أسمى وتشريع أنضج .

ب — المدرسة

فاذا غادرنا البيت باعتباره وكرآ للقوة المستعلية على الواجب ، إلى
وكر آخر يحمل نفس السمات ، التقينا بالمدرسة . .
والحق أن المدرسة عندنا مكان تعس لطلاب تعسين . فهي تستقبل
شبابا يحمل فوق كاهله الوهنان أثقال البيت وحماقاته ، كما يحمل في
أحيان كثيرة آلام عوزه وخصاصته . .
وهى أى المدرسة خاضعة لقانون القوة وسياستها ، خضوعا يسلبها
نعمة الشعور بالواجب ، فضلا عن أن تهدي إليه ، وتدعوله .
فالاستعمار الداخلى في نطاق التربية والتعليم يطنى ويتمدد حتى يخلق
جميع أنفاس التربية والتعليم . . والروتين الحكومى في هذا النطاق
يصول ويجول كحسان ألقى بكل شكائهم تحت قدميه . وإن وطأته الضاغطة
لتتجمع في ثقل ماحق لتستقر آخر الأمر فوق هذا الشيء الضعيف

المرتجف المقرر الذى نسميه « مدرسة » . .
والمدرسة طبعا ، هي مجموعة التلاميذ والأساندة . ومجموعة النظم التى
يرتبط بها التلميذ والأستاذ ليؤديا واجبهما المشترك . ، والتلاميذ وأساتذتهم ،
لا يعرفون عن هذه النظم إلا أنها « الأوامر التى وضعت لتنفيذ » . فهم
لم يشتركوا فى وضعها واختيارها . وإلى هنا قد يكون الأمر طبيعيا .
ولكن موضوع هذه النظم والروح السارى خلالها ، والمهيمن عليها ،
ثم الطريقة التى تفرض بها سلطانها ، كل هذه ينبغى أن تكون موضع
البحث الواعى لننظر مدى ما تنطوى عليه من عناصر التوفيق أو من
عوامل الأخفاق .

ونحن هنا لانعرض المدرسة كمشكلة اجتماعية ، بل كمشكلة خلقية .
أى أننا لن نتقصى كافة مشاكلها وأوضاعها فليس هذا - طبعا - موضوع
الكتاب . . وإنما نريد فقط أن نكشف عنها باعتبارها أحد العوامل
التي تشحذ الخوف من القوة ، ولا تشحذ الإيمان بالواجب مما يساعد
على التمكن لأخلاق العبيد فى مجتمع يريد أو يجب أن يريد الظفر
بأخلاق حرة لقوم أحرار . .

فمن هذه الزاوية وحدها نلقى ضوء النقد على المدرسة . فنجد المدرسة
فى بلادنا مرتعا سعيدا لسياسة القوة الباطشة . وكلا يابسا قحلا لسياسة
الواجب الملهم . .

وإذا أنت ألقيت بصيرتك على طلاب مدارسنا اليوم ، فأنتك ملاقيهم
واحداً من اثنين ، وقليلاً ما تجد ثالثاً يقف فى الوسط . . إما تلميذ خانع ،
وإما تلميذ وقع . . أما خنوع الأول فثمرة استسلامه لقانون الغابة

القائم في المدرسة . . وأما وقاحة الثاني فثمرة تمرده ورغبته الطائشة
غير المهذبة في مقاومة هذا القانون . .

في بعض مدارسنا الثانوية ، اعتدى طلاب كبار على أستاذ لهم
بالضرب . . أتدرون لماذا . . ؟

لأن الطلاب اكتشفوا بمواهبهم الفذة أن شعب النشاط المدرسي
تنقصها شعبة هامة . وقرروا أن يعاونوا الوزارة والمدرسة في إنشاء هذه
الشعبة على نفقتهم الخاصة . . وهناك في ركن قصي غير مطروق، من فناء
المدرسة ، اجتمعت شعبة النشاط الجديد ، وأبليت بلاء شاقا حسنا أثار
إعجاب أحد الأساتذة ؛ فاتجه صوبهم . وسألهم .

— ماذا تفعلون يا أولاد ؟ ؟

فأجابوا في هدوء : نشاط مدرسي يا أفندم . .

— فسألهم : وما علاقة النشاط المدرسي بتدخين المنوعات . . . ؟ ؟

— فأجابوه في هدوء أصحاب المزاج . .

— دى شعبة جديدة من شعب النشاط يا أفندم . . .

ولما أبلغ الأستاذ أمرهم لناظر المدرسة أبعد الناظر اثنين كانا يتزعمان
هذه « الشعبة » . . مما أثار الحفيظة فتربصا ومعهما آخرون بالأستاذ في
الخارج وضربوه . .

أسمع بعضكم يتساءل :

هل كان لابد أن تترك المدرسة أولئك الأشقياء في نشاطهم الحر (١) ؟

لكي لا يعتدوا على أستاذ بالضرب ؟ ؟

أبدا ؛ ونحن لا نقصد هذا . . وإنما نذكر السبب ليزداد جرمهم

بشاعة . فإذا كان سبب العدوان كما ذكرنا يصير جرم المعتدى مضاعفا
مرذولا . . . ولكن ليس « العلاج » أن نقول للمجرم يا مجرم . ،
بل هو اكتشاف أسباب إجرامه ودواعى موقفه وإمكانيات بعثه من
جديد إنسانا فاضلا وديعا . . . وفي مدرسة أخرى إعدادية لا يتجاوز معظم
أعمار تلاميذها الخامسة عشرة ، ضرب تلميذ أستاذه على وجهه ضربا
مهيئا ، فلما همّ الأستاذ ليدافع عن نفسه تصدى له تلميذ آخر بأذلا عونه
النبيل (١) لزميله المعتدى ؛ وأخرج من جيبه مطاوعة ، وشرع نصلها ،
ولوّح بها في وجه أستاذه قائلا :

— والله افتح بطك . . . ١ ١ ١

والدين لا يأخذ عدوانهم على أستاذتهم هذا الشكل الطاغى المزرى
من الطلاب يعتدون في صور أخرى كثيرة لعل أكثرها ذيوعا تهديدهم
الأساتذة برفع أمرهم للناظر . ناظر المدرسة . . . ١ ٢ . .
ولعلكم تذهلون ذهولا ينأى بكم عن تصديق الواقعة الآتية . ولكنها
مع ذلك وقعت . وكان بطلمها تلميذ بأحدى مدارسنا الابتدائية ، لم يتجاوز
سنه التاسعة . قال لمدرس الحساب وهو يزجره :

— والله لأقول للبيه الناظر يمدك . . . ١ ١ ١

ومعنى كلمة « يمدك » يضربك على قدميك بعد تجريدك من الخذاء . .
إن عبارة هذا الطفل ستكون دليلنا إلى اكتشاف العوامل الخبيثة
التي تفرض القوة على الواجب في المدرسة ، والتي تخلق في نفوس الطلاب
رغبة في محاكاة ما يشهدونه في معاهدهم من جهة ، وفي مقاومة الضغط
للتبالي والقسوة الهابطة عليهم من جهة أخرى . فيسلكون

مع أساتذتهم ، وفي بيوتهم ، وفي الطريق ذلك السلوك القتالى الشاذ . .
فالمدرسة تستوحى كل مناشطها من القوة . . فهناك الضرب ،
والتأنيب ، والطرْد ، والأكره فى شتى مظاهره وألوانه .

وعلى الرغم من تحريم الضرب بقانون ؛ فمن السذاجة أن نتتظر
احترام مثل هذا القانون . فالتعذيب البدنى فى مدارسنا قائم ما قامت
خوافزه ودواعيه . ، فما هذه الخوافز وتلك الدواعى . . ؟

ذات يوم رأيت أحد زملائنا يضرب تلميذا ضربا مرهقا . واقتربت
منه فى وداعة هامسا فى أذنه : شيئا من الرحمة والرفق . . فأشاح وجهه
عنى وهو يقول : إن المفتش لا يرحم . . . ١١ وعاد ليستأنف الضرب
المبهظ بعضاً تالمهت كأشها كلب مسعور . .

إن المفتش لا يرحم . . . تلك هى المشكلة . وعسى ألا تكونوا قد
نسيتم التهديد الطريف الذى توعده به التلميذ الطفل أستاذه قائلاً : « والله
لأقول للناظر بمدك » . .

فالناظر ، والمفتش مظهران للآفة التى تجعل المدرسة مسرحاً للسلوك
الذى شعاره ، القوة لا الواجب . .

فالمدرس - مثلاً - يضرب التلميذ ، وسيظل يضربه ما دام تمت
شبهان يترأى ان له واجسه كعفاريت الليل . . ويقذفان فى قلبه الهلوع
الدعر والرغبة ، وذانك الشبهان هما . . « البك » الناظر . .
و « البك » المفتش . ١١

إن أكثر من تسعين فى المائة من المدرسين مربى النشء ، لا يعنيه
أن يكونوا عقل التلميذ ، أو يساهموا فى تصميم مستقبله . . وإعماهم

يعملون فقط للماء ذا كرتة يضع قواعد ومعارف تدرأ عنهم تقمة الناظر ، وفضول المفتش . .

وهم لا يهربون « المذكورين » رهبة صبيانية تزجها الهواجس الباطلة . . بل يهربونهما تنفيذا لقانون وزارة التربية والتعليم .

فالوزارة المذكورة تضع مستقبل الأستاذ في يد الناظر والمفتش . وتقرى الناظر بكتابة « تقارير سرية » ، كما ترك للمفتش أمر تقدير المنزلة التي يستحقها المدرس من حسن أو جيد أو ممتاز . . ويدرك المدرسون هذا فيسارعون إلى إشباع رغبة الناظر الذي يريد بدوره نتيجة حسابية طيبة لمدرسته كي يرقى بها درجة . . ويسارعون إلى إشباع غرور المفتش الذي كثيرا ما تكون تعاليمه مناهضة لما نعليه خبرة المدرس بتلاميذه .

إن الهدف الذي يتلأأ أمام أبصار الاساتذة والذي تهوى إليه أفئدتهم ، ليس ذلك العقل النضير المثقف المتراحب الذي ينبغي أن يهيئوه للتلميذ ، وليس هو تلك الشخصية اليانعة النامية السوية التي يجدر بهم أن يمكنوا التلميذ من حيازتها . . ولكنه الكلمة المطرية في التقرير السرى للناظر ، ودرجة جيد أو ممتاز ، في التقرير السنوي للمفتش . . ولكي يظفروا بهذا الغرض السريع يتوسلون بالضرب ، المبرح ، وبالشتم المقترع ، وبالتقريع المخزى . . وهكذا يطبعون وجدان الشباب بنشاطهم اللافتح ، وسلوكهم الشرس . ومع الأيام يصير السلوك القتالي - شرعة التلميذ ومنهاجه

وسبطل انصراف طلابنا عن العلم والمعرفة مدينا بالشكر الجزيل
لعصا الأستاذ وبطش المدرسة . . فالنفس الإنسانية تحمل أضغانا مؤرثة
لكل ما يسبب لها العذاب والألم . .

ولعلنا نجد نسبة المتدينين بين شباب الجامعة ، أكثر من نسبة
المتدينين من شباب الأزهر . . ولعلنا لو فحصنا حقيقة الأسباب نجد
راجعة لما عاناه طالب الأزهر وهو طفل في سبيل القرآن والدين . .
لظالما اتخذت عصا « الفقيه » من جسده الغض مرتعا . . لظالما ضرب
وحبس وعذب وأوذى . .

وهكذا انطوى « لاشعوره » في سن مبكرة على جزع أليم تفلت
فيما بعد إلى مسرح الشعور في ضرورة ذلك العزوف عن الدين ونبذ التعاون
معه ، والاستجابة إليه . ، الأمر الذي لا يحدث لطالب الجامعة كبراً ،
لأن أسبابه لم تقتحم حياته صغيراً

فأكبادنا التي تمشي على الأرض . . ولدى ووليك . ، أخى وأخوك . .
زهرات يومنا ، ورجاء غدنا . . هؤلاء التلاميذ لن نصنع لسكى غلاً نفوسهم
ضغنا على العلم وعلى المعرفة وعلى الثقافة أكثر مما نصنع اليوم بهم في
البيت وفي المدرسة . . إخضاعهم لبأس القوة ، وعدم تعويدهم على
الانفعال بالواجب .

إن روح السيطرة الشخصية تشيع بين مدرسينا شيوعاً يدعو
لوجوب تفهم بواعثها ووقف امتدادها . .

والمدرس لا يعبر عن هذا الروح بالضرب ، والتجريد ، والأسراف في

إصدار الأوامر والنواهي فحسب . . بل إن ذلك ليتغلغل في طبيعة رسالته ؛ فيشوِّهها .

فمن النادر أن تجد مدرسا يطلب من تلامذته اختيار موضوع الأنشاء الذي سيتحدثون فيه اليوم ، مثلا . . .

فالمنهج الدراسي مظهر من مظاهر امتحان شخصية التلميذ وتجاهلها . ذلك أننا لا نستطيع أن نأخذ رأى الطلاب فيما سنقرره عليهم من مواد وكتب وموضوعات . . بيد أننا نستطيع أن نشعرهم بالمشاركة عن طريق المدرس ساعة إلقاء الدروس وتوزيع المنهج . . ولكن هذا لا يحدث ، لأن شخصية المدرس تموج بالعقد التي لا تسمح له أن يكون ديمقراطيا في مهنته وعمله ، وردّ الفعل المحتوم لسيطرة الناظر والمفتش ووطأة التقارير السرية ، والعلمية ، تجعل منه إنسانا مريضا وشديد الرغبة في الانتقام غير المقصود .

والسيطرة الشخصية المستبدة هي وسيلة للثأر والانتقام . . .
فأرفعوا عن المدرس إصره ، وألغوا التفتيش فإنه « زائدة دودية »
وارفعوا الناظر فوق مستوى الجواسيس ، واستبدلوا بالمفتش نظام المدرس الأول واحصروا مهمته في التوجيه المهذب ، والتعاون المتكافئ . . .

حرروا المدرس من مخاوفه ، فإن عدوى العواطف تنقل كل نقائمه النفسية إلى تلاميذه وإن روح التسلط الهابطة عليه من ناظره ومفتشه لتتخذ آخر الأمر قنطرة تعبر فوقها إلى التلميذ نفسه فتسحقها وتلاشيها . .

إن فلسفة « من علمنى حرفا صرت له عبدا » قد أفست أخلاق المدرسة وعطلت رسالتها . .

وإن سياسة القوة المسيطرة على المدرسة لتجعل من التلميذ أداة إعداد للمستقبل . . . مستقبل المدرس والناظر ، لا مستقبل التلميذ . . . ! ! !
وإن إمكانيات التلميذ ليضحى بها من أجل تلك الغاية المسيطرة . .
ترقية المدرس ، وترقية الناظر ، وموقف المدرس من ناظر المدرسة ومن المفتش يحدد نوع سلوكه مع تلميذه ، وهو إلى الاستغلال أقرب منه إلى التربية السوية القويمة . .

فحرروا المدرس من أغلال القوة التي ينوء بها ومكنوه من أن يستلهم في عمله الواجب ، ليختص بعنايته وجهوده مستقبل التلميذ ، ومستقبل التربية ، ومستقبل السلوك الإنساني في هذه البلاد .
وبعد ؛ فليس في حديثنا هذا عن البيت وعن المدرسة ما ينفي وجود مناسبات تقتضى استعمال القوة بل والأرغام من الوالد ، أو من المدرس . .
بيد أن هذه المناسبات ينبغي أن تكون طارئة ونادرة بحيث لا تأخذ كما هو حادث عندنا صفة القاعدة والدوام . .

هذا أول . .

والأمر الثانى هو أن التدخل القاهر الطارىء من البيت فى حياة أبنائه ، أو من المدرسة فى توجيه تلاميذها ، لا يضر شيئا عندما يكون نظام البيت والمدرسة قد سادها بالفعل روح الواجب . لأن هذا التدخل القاهر سيكون حينئذ أخلاقيا ، لأنه يتم باسم الواجب ، وفى رعاية مبادئه ووسائله وغاياته . الواجب الأخلاقى ، لا الواجب المهنى . .

ج — الجزء الاجتماعى

وننتقل الآن إلى مظهر آخر من مظاهر إرباء القوة على الواجب فى بلادنا ومجتمعنا — حيث نجد الإيمان بالقوة كوسيلة وحيدة لتقويم السلوك ، يأخذ علينا كل سبيل لبعث الأحساس بالواجب فى نفوسنا وفى سلوكنا .

وسنسمى الوضع الذى تتمثل فيه هذه الظاهرة المزعجة .

— « الجزء الاجتماعى » . .

ونعنى بالجزء الاجتماعى ، العقوبات التى يرتبها المجتمع لخطاته ومذنبيه . . نعنى الأسلوب الذى يشرع به المجتمع الجزاء والعقاب ، والأسلوب الذى ينفذ به تشريعه وقوانينه .

ونسارع فنعلن أننا لا نريد إلغاء القانون . ووقف التشريعات التى تحمى سلامة الجماعة وتنظم علائقها . بل نريد أن يكون القانون فى بلادنا علاجاً ، لا عقوبة . .

أجل ، هذا التعبير يحدد تماماً ما نريد . . « العلاج لا العقوبة » .

وإننا لنلاحظ أن القوانين فى بلادنا العربية كلها إنما توضع للعقاب والتشفي والانتقام . . وليس للعلاج أو الوقاية . . ومعدرة إذا كان فى كلامنا عن « قوانين البلاد العربية » كثير من التجوز والتفاوت . .

فالحق أن هناك فى بعض تلك البلاد أوامر فقط ، لا قوانين . . أوامر يتجشأها فى صلف وجهالة وإسراف ،حكام كرهاة الغنم ، أو شيوخ تختفى فى أرديتهم جلائل الموبقات . .

ومعذرة مرّة أخرى إذا استعملنا نفس القدر من التجوّز والمبالغة
فيما أسمىناه « سجون البلاد العربية » . . فالسجون في بعض تلك البلاد
شيء لا يزال ينتظر المعجزة التي تستطيع أن تختار له اسما مناسباً . . . ١١
إنك تظلم القبور ، إذا سميتها قبرا . .

وتظلم الحظائر ، إذا سميتها حظيرة . .

وتشوه سمعة « السلخانات » إذا سميتها « سلخانة » ولقد رأيت
بنفسى بعض المناظر والصور الفوتوغرافية ، أخذها بعض السجناء خفية
لسجون تلك البلاد ، وجاءوني بها لأنظر ، وأرى . .

ألا صلوا من أجل الشيطان إبليس ، فإنه — إن يكن موجوداً —
ليكون أقرب إلى رحمة الله من أولئك الذين يزجون بالضحايا في تلك
الظلمات التي تسمى سجوننا . . . ١١١

ولكم وددنا لو استطعنا إلقاء هذه البلاد من حسابنا ، لنستريح من
المهموم الثقيل التي يؤودنا بها التفكير في ضلال حكامها وقادتها . ، وفي
تعاسة شعوبها وشقوتها . . ولكن كيف نستطيع ذلك ، والذين هناك
جماهير مثلنا ، إخوان وعشيرة ، وناس ينتظرون من كل إنسان كلمة
تسقط عن كاهلهم ظلما ، أو تبعث في نفوسهم رجاء وأملا . .

فإذا رجعنا إلى بعض البلاد العربية المتعدنة مثل بلادنا نجد نفس
المشكلة ، لكنها من غير شك في مستوى أعلى . . أى نجد روح التشريع
والجزاء عندنا تعتمد على القانون كعقوبة لا علاج . .

والأسراف في العقاب والزجر لم يعد طريقا إلى الفضيلة . بل هو في
معظم ظروفه أقرب الطرق إلى الرذيلة . . والبلاد التي يستمرىء هذا

الأسراف فيحلّ بقانون ، ويحرّم بقانون ، لا يلبث أن يصير كالمدينة التي
أهلكها السكوت . .

أتعرفون نبأها . . ؟ إني أقدمه هدية لمصر وما حولها . .

كانت « إميكلى » إحدى مدن اليونان القديمة ، وكانت تزعمها
الأشاعات عن قرب غزو الاسبرطيون لها ؛ فصدر قانون شديد يحرم على
أهلها ذكر كلمة « اسبرطة » ، أو « جيش اسبرطة » ، أو « غزو اسبرطة »
وبعد حين وصل الاسبرطيون الغزاة ، فلم يجرؤ أحد على إنذار قومه . .
ودخلوا المدينة واحتلوها فوصفت في التاريخ بأنها « المدينة التي أهلكها
السكوت »

إن البلاد التي تسرف في التحريم بقانون لا تلبث أن تهلك وتتداعى
تحت وطأة ما كانت تحذره وتحشاه .

أفيحجزنا أن نلتبس من واقعنا الشواهد على إسرافنا في التشريع
الحاضر ، وعلى نظرتنا إلى القانون كعقوبة لاعلاج . . ؟ ؟
كان عندنا يوما « بغاء رسمي » ؛ فصدر قانون يحرمه . .

هذا القانون عقوبة ، ولو كان علاجا ؛ لفكر قبل تحريم البغاء
في عواقب هذا التحريم حتى لا تفشو فاشية البغاء السرى ، والشذوذ
الجنسى ، والسكبت المدمر . . .

لا تظنوا أنني آسف على البغاء الذي ألغى . ؛ ولا نحسبوا أنني
من المنادين بعودته . فالبغاء رِق بشع ، واستعباد وقح . . والذين يدعون
لعودته ويرون فيه علاجا جنسيا يفكرون تفكيرا مراهقا مريضا

ولو أن لهم بالمجتمع أدنى خبرة ، لأدركوا أن علاجه الجنسي في الصداقة ..
لا الفاحشة .

وإذن فنحن نضرب قانون إلغاء البغاء مثلاً لنضع أمام القارىء صورة
للروح الذى يسيطر علينا في تشريعاتنا . ، والذى لا يحاول أن يجعل
من القانون علاجاً . . حسبه أن يقول : لا تفعل . غير ناهج بالناس
سبيلاً فيما ينأى بهم عن مضاعفات المنع والتحریم ، وغير باذل لهم عوناً
بتشريع آخر أو بنهج جديد يخفف من غلواء الحظر . ويأخذ بأيديهم
إلى الفضيلة في مسكنة وسلام . .

وقانون آخر صدر ونحن ندفع بأصول هذا الكتاب إلى المطبعة -
قانون إلغاء القمار . .

إن القمار رذيلة تهب برذائل كثيرة ، كالسرقة والاختلاس . بيد
أننا حين حرمانه كرزيلة .

فالقمار - أولاً - كأي شيء آخر يحرم بعنف ، لا ينتهى . بل يخفى .
وفي السر والخفاء يزداد انتشاره وتعمم ضراوته . لأن التحريم يلازمه
الأغراء دائماً . حتى إننا لو حرمانا على الناس أكل الجمر الملتهب ، لتمنوا
أن يدوقوه

وشيء آخر . هو أن لعب القمار في مصر ذو صبغتين . .
فهناك أندية خاصة به وحده . يلعب فيها الهواة والرواد بمبالغ
فادحة . ، هذه مستقر عصابات ولصوص

وهناك أندية اجتماعية وثقافية تتخذ من « اللعب » بمبالغ طفيفة

تسليه وترويحاً دون أن يكون الأثرء عن طريق اللعب غرضاً - أدنى غرض - للنادى أو لأعضائه . .

وقد تسأل : لماذا إذن يلعبون بهذه المبالغ الطفيفة . ؟
إن الإجابة على هذا السؤال هى أيضاً موضوع نقدنا للتقنين الذى يجيد أن يكون عقاباً . أكثر مما يجيد أن يكون علاجاً . .
فأعضاء هذه الأندية يلعبون على مبالغ طفيفة لأن هذه المبالغ تذهب إلى النادى . .

وأنا أعرف بعض الأندية التى كان هذا اللعب الهامشى يدرّ لها كل شهر مبلغاً يتراوح بين مائة وخمسين جنيهاً ومائتى جنيه .
وسوف تغلق بعض تلك الأندية أبوابها تحت وطأة هذا العجز المالى . .
فلماذا لم يفرق القانون بين أندية القمار الخاصة ، والأندية الاجتماعية التى تتخذ منه تسليه عابرة لأعضائها وسبيلاً لدعم وجودها . . ؟
وإذا كان هذا النوع الأخير من « اللعب » ضاراً ويجب حظره . ؛
فهل فكر التشريع أو المشرع فى طريقة يعوض بها الأندية الاجتماعية والثقافية ذلك العجز الذى سيهدد بقاءها . .

كلا . . فالقانون لم يشر لذلك قط ، وأغلب الظن ، بل أغاب اليقين أن الدين شرعوه ووضعوه لا يعلمون شيئاً عن هذه التفرقة التى ذكرناها . .
إن الأندية الاجتماعية المهيبة تؤدى للفضيلة دوراً سامياً . .

إنها تأخذ أعضاءها من المقاهى ، ومن الحانات المبتذلة ، وتشغل بأشياء لا بأس بها ، وقت الفراغ الذى ثبت أنه الوحش الضارى الذى يلتهم أخلاق الناس .

وأنا شخصيا ، أوافق على إلغاء القمار في شتى صورته ومظاهره . حتى في تلك الأندية التي أدافع عن مستقبلها . ولكنني أستكر الطريقة التي نستعمل بها القانون لمحاربة الرذيلة .

فمثلا ، لكي يكون هذا القانون علاجا خلقيا ، كان ينبغي أن يدرس أولا كافة الظروف والملابسات . ثم ينتظم نصا بتعويض الأندية الاجتماعية من صندوق وزارة الشؤون ، بدلا من المبالغ التي كانت تحصل عليها من « لعب التسلية » حتى لا تضطر إلى إغلاق أبوابها حيث تنفتح بهذا الإغلاق أبواب شرور كثيرة ورذائل شتى .

وخذوا مثلا آخر . ذلك القانون الذي صدر منذ عام وبضعة شهور .. والذي يجعل الصلاة إجبارية في المدارس . . . ١١

تري هل يعلم الدين أصدروا هذا القانون ، أن مظاهر الصلاة في المدرسة أصبحت منذ صدوره أكثر خفوتا وتلاشيا . . . ؟ ؟

لا بد من رفع وطأة القانون عن الأخلاق ، إذا كنا جادين في نشدان أخلاق مسوية لأمتنا . فالقانون قد يفاج — بعض الوقت — في أن يهب بعض الناس أخلاق العبيد ، أخلاقا تحفز إليها الطاعة والخوف . . . لا الاقتناع والواجب . . . ثم هو فيما وراء ذلك فاشل فاشل . . . ١١

وتعالوا نجيب معاً على هذا السؤال :

ما علاقة القانون مثلاً بالكذب ، والجبن ، والفاق ، والغرور ، بل وبالزنا نفسه عندما تكون المرأة راضية . . . ؟ ؟

هل نستطيع أن نكافح رذائل النفاق ، والخنوع ، والكذب بقانون . . . ؟ ؟

وإذا كان القانون هو النص الذى تتضمن الجزاء والعقاب : ، فإن السجن ، هو الأداة التي ينفذ بها المجتمع أو الدولة مضمون ذلك التشريع . أجل - القانون نص " . ، والسجن أداة . .

والاثنان يشبهان حجرى الرحى . يطحنان فى بلاهة وقسوة كثيرا من احتمالات الهداية والفضيلة والخير . . . ١١

إن السجن فى بلادنا يقوم بدور فعال فى تعويق المسلك الخلقى للمجتمع . وسأحدثكم عن هذا بعد أن أسألكم : هل تعرفون شيئا عن الحياة داخل سجوننا . . ؟ ؟

هل قرأتم - تلك الحكمة التى تتلأأ على حيين كل سجن كبير . « السجن تأديب ، وتهذيب ، وإصلاح » . . ؟ ١٢

فى عام « ١٩٣٧ » أخذت إلى سجن مصر متهما بتحرىض الطلاب على الحكومة القائمة يومذاك . . . وإلى أن يفصل القضاء فى المعارضة المرفوعة منى ومن زملائي الذين سجنتم معهم ، كان لا بد أن نقضى بضعة أيام فى ذلك السجن المهيب . .

وفى « زنزانة » حجرة صغيرة تصلح عشا لعصفور ، وضعت وهناك . كان فى استقبالى داخل هذه « الزنزانة » أربعة زملاء يفرض قانون السجن عليك صداقتهم وزمالتهم فرضا . .

أولهم — « برش » تفرش به الأرض . .

وثانيهم — « برش » تنقى به البرد . .

وثالثهم — « إناء » تتبول فيه . .

ورابعهم — « إناء » تشرب منه . . ١١

وقضيت الليلة الأولى .. وفي الصباح فتح الحارس الباب وناداني قائلاً :

— يا الا يا جدد شيل . .

فأجبت : أشيل إيه ؟ ؟

فقال . « البلاوى بتاعتك دى » . . وأشار إلى وعاء البول . .

وكنت حتى هذه الساعة أظن أن هذا العمل ليس من اختصاصى .. فسألته :

— أنا الذى سأحمله وأريقه . . ؟ ؟

فأجاب وهو يقهقه :

— لا . . دا اليه مأمور السجن هو اللى يشيله وينغسله . . ! !

وأطلق من حلقومه صرخة كرثير الأعصار . طالباً منى أن أحمل

« البلاوى بتاعتى » وقد كان . . .

وفي اليوم الثانى فتحت الأبواب ، وساقنا الحرس فى طابور إلى

الطبيب . . وهناك رأيت قطيعاً مكدساً كالأغنام . بل إن هذا التشبيه

ليقتضينا أن نعتذر للأغنام . . ! !

وفي اليوم الرابع ، صاح فينا مناد من الحرس . أن هيا إلى العروسة ...

وسألت الرجل :

— عروسة أيه . . ؟

فأجاب : دلوقت تعرفها . .

وهناك فى فناء من أفنية السجن ، وقفنا تجاه « العروسة » . .

هيكل من الخشب على صورة إنسان ميسوط الذراعين ، منفرج الساقين ! ..

وعرفنا من السجناء القدامى نبأ هذه العروسة . . إنه الجهاز الذى

يثبت عليه ويشد إليه كل سجين توقع عليه عقوبة الجلد . .

وازددنا معرفة . عندما استقبلنا « جاويش » يخبرنا أننا سنشهد
الآن زميلاً لنا سيجلد . .
لماذا . . ؟

لأنه خالف تعليمات السجن . .
وأخبرنا أننا نشهد عقوبته وجلده . ليكون لنا فيه عبرة وعظة . . .
في أربعة أيام فقط ، رأيت هذه المشاهد الموبقة البشعة ، فهل هذا
هو كل ما هناك . . ؟

في عام — ١٩٥٠ — وقف متهم أمام قاضيه الذي وجه إليه
الحديث قائلاً :

إن « سوابقك » في الأجرام قد بلغت التاسعة والعشرين . والجريمة
التي تحكم الآن عنها ترتيبها الثلاثون . .

ولم يصبر المتهم حتى يتم القاضي حديثه فصاح وفي كلامه رنين الصدى :
— « والله يا بيه ، أول مرة كانت بتاعتي صحيح . ، والباقي كله بتاع
الحكومة » . . .

ولما سأله القاضي إيضاحاً قال : إنه ارتكب أولى جرائمه بمجهوده
الشخصي وخبرته الخاصة ، أما بقية جرائمه فقد تعلمها في السجن من زملائه
وكان كلما عاد إلى السجن تعلم شيئاً جديداً . .
ومن الطريف أن القاضي سأله :

— أليس تعلمكم السجن شيئاً غير الجريمة . ؟ أليس هناك محاضرات
دينية ، وواعظ يث فيكم روح الخير والهدى . . ؟
فأجابه المتهم . .

— واعظ . . ؟ دا احنا مرّة خليناه بيوعظ وسرقنا سبخته

الكهرمان . . .

إن اعتراف هذا المسكين التعس تصوير دقيق وصادق لسجوننا .
إن السجن في بلادنا أبعد ما يكون عن التأديب والتهذيب ،
والاصلاح . . .

إنه « معمل تفرغ » للجريمة والمجرمين . وهو بنظمه القائمة لا يمكن
أن يكون إلا هكذا . . .

ولكي تنصروا عواقب حياته الحميدة (١٤) في أخلاق الأمة .
فليس عليكم إلا أن تبصروا تلك الصفوف الطويلة التي تدخله كل عام ،
وتلك التي تغادره كل عام . ثم تتصوروا مجموع هؤلاء وهؤلاء في عشرة
أعوام مثلاً . . .

ستجدونه بئراً عميقاً تقذف إلى المجتمع دوماً وباستمرار بشرّ الجرائم
وأشدها ضراوة وفتكا . . .

إن السجن كالقانون يجب أن يتحوّل من عقاب إلى علاج . . . ومن
أداة تعذيب ، إلى وسيلة تهذيب . . .

وذلك يقتضى انقلاباً شاملاً في نظمه وتقاليده .

لماذا يحرم السجين المتزوج من لقاء زوجته كل عام بضعة مرات . . ؟
وماذا ننتظر من السجناء أن يفعلوا تجاه هذا الحرمان ؟

إن سجلات الحوادث في السجون تبيّننا في خجل واستحياء . . .
فالرجال هناك يعانون حرماناً جنسياً ساحقاً ؛ فتتجرف طبيعتهم
اليأس شطر « المثلية » ، يلتمسون فيها العزاء . . .

وإن لنا لبرة في المأساة التي كان أبطالها « توفيق محمد حسن ،
وعبد الغفار سعداوى ، وطه محمد مهدي » السجناء بسجن « ليمن طره »
فقد تنازع « توفيق ومهدي » الرجل الثالث وتغلب « توفيق » فاستأثر
به لنفسه . . . وذات يوم والثلاثة يعملون معاً في مصنع صابون السجن
فاجأ « مهدي » غريمه « توفيقا » بضربة قاتلة تركته جثة هامدة ،
واعترف بسبب جنايته . . . والعجيب أن « مهدي » القاتل كان مسيحياً
واسمه « اميل ميلاد حنا » وقد أسلم في الأيام الأولى لدخوله السجن ،
واستعان بالاستقامة وبالصلاة . ولكن حياة السجن وانظمه لم تمهله
إلا قليلا . . . حيث وجد نفسه مضطراً لاغتنام الجرائم والردائل التي انتهت
بالشدوذ وبالقتل . . .

قد يسأل سائل ، عما إذا كنا ندعو لتدليل السجناء وتحويل السجن
إلى منتدى يضم وسائل الترفية ومباهج النعيم . . . ؟

ونجيب من فورنا : نعم ، نريد أن يكون السجن منتدى يضم كل
وسائل الترفية ، بيد أننا لا نرى في هذا تدليلاً ، بل علاجاً وإصلاحاً .
وإننا لنسأل بدورنا : ما الحكمة المرجوة من سجن المذنب .
إصلاحه ، أم تعذيبه ؟ ؟

إذا كان إصلاحه هو الغاية ؛ فما أبعد القسوة عن أن تكون علاجاً
أخلاقياً ، وما أعجز سجوننا بنظامها القائم عن أن تهدي ضالاً ،
أو ترشد حيران . . .

وإذا كان التعذيب والعقاب هما الغاية من سجنه ، فنسأل
سؤالاً آخر :

— هل نعاقب المذنب لأنه أساء في الماضي ، أم نعاقبه كي لا يسيء في
المستقبل . . . ؟ ؟

إذا كان الأول ؛ فما أشد حماقتنا وأدعائها للبراءة لأننا نعاقب على
عدم ، ونفعل كالمعتوه الذي ينشر النشارة . . .
وإذا كان الثاني ؛ فإن خطأنا إذن لو بيل . فالجسد الذي نعذبه ،
والروح التي نشوهها ، مجنى عليهما . إن الفاعل الأصلي هو الإرادة
بما يكتنفها من ظروف صاحبها ، ودواعي بيئتها . والإرادة الإنسانية
لا ترتدع بالقسوة . بل كثيراً ماتشد القسوة فيها زناد المقاومة
والانتقام . . .

وهبوا السجن بما فيه من تعذيب وتنكيل استطاع أن يهزم إرادة
المذنب ويبيدها . فماذا ستكون قدر مجنا . . . ؟
لا شيء . . . بل سنخسر إنساناً . . .

على أنه هيات أن نمحو « الإرادة الإنسانية » من إنسان أو نهزمها .
إن المجرم المصطلي بعذاب السجن لا يهزم فيه إلا جسده . أما إرادته ؛
فهنالك في أقصى كيانه تصطك أنيابها المدخرة ليوم لا ريب فيه .

على أن نظرنا للمجرم جديرة بالتعديل والتعلية ، إذ هي تنطوى على
تجاهل ظالم لظروف ارتكابه وانحرافه . كما تنطوى على ضحالة الإدراك
لحقيقة هذا الذي نسميه مجرماً .

إن شر أنواع المجرمين عندنا هم أولئك الذين تعوّدوا الأجرام . .
ومع هذا فوراء ذلك في نفسية المجرم فضيلة باهرة يكشف عنها العلامة
الفرنسي « جويو » ألا وهي الشجاعة وحب الخطر . .

أجل ، إن المجرم الذي تعوّد الأجرام رجل قامت بينه وبين الأخطار
مودّة وألفة ؛ فلم يعد يخشاها أو يفرّ منها — إفكم تكون مغامنا جزيلة
إذا استطعنا استنهار هذا الطراز من الناس ، وحولنا شفقتهم بالخطر من
ذلك الخطر العدواني إلى الأخطار الجليلة الرائعة الهادفة . . ١٩

لقد كانت الأمة الانجليزية ذات يوم أمة من المجرمين . . أى أمة
تعوّدت الأخطار ، وعشقت المغامرة . . ولعل هذا يعطينا تفسيراً لفضيلة
الثبات التي يضربها الشعب البريطاني عندما تدمم عليه الحروب
والأزمات والكوارث .

فليكن هذا الفهم رائدنا ونحن نعالج مشاكل الجريمة والمجرمين
في بلادنا . .

إننا لا نضع شيئاً ذا قيمة عندما نكس السجناء داخل جحور
خربة معتمة . بيد أننا نضع الحاضرنا ومستقبلنا كل خير عندما نبذل
من جانبنا جهداً نحول به جريمة المجرم إلى بطولة ، فنستثمرهم
في المشروعات التي تحتاج إلى جهد ومغامرة . ونعاملهم كأناسى وبشر . .
إن السجن المصرى كما ذكرنا قبلاً ، بثر بعيدة الغور تعج بما تقذف
به إلى المجتمع من ميكروب وجراثيم . فلنعد النظر فيها جميعاً على ضوء
ما ذكرنا وما تذكره في هذه السطور ، وعلى ضوء حاجتنا الملحة إلى
تطويرها وتهذيبها .

لمساذا نباعد به الرجل وزوجه خمس سنوات ، أو عشرا ،
أو خمسا وعشرين . . ؟

وماذا تفعل الزوجة خلال هذا الدهر الطويل . ؟
ذات ليلة مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بامرأة قد أضناها السهر .
وكانت تنشد حسراتها في هذه الأبيات من الشعر :

تطاول هذا الليل وازورّ جانبه وليس إلى جنبي حليل أداعبه
فوالله ، لولا الله لارب غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربى ، والحياء يكفى وأكرم زوجى أن تنال ركائبه
واقشعر كل ما فى ابن الخطاب من صلابة وجبروت . وسأل عن نبأ
للرأة ؛ فعلم أن لها زوجا طال غيابه فى جيش المسلمين الذى توجه لبعض
الغزوات والفتوح . .

وذهب إلى ابنته « حفصة » يسألها :

— يا حفصة ، كم تصبر الزوجة على زوجها ؟ ؟
وإذ تنجبل « حفصة » وتوارى وجهها بردائها ، يصرخ فيها عمر قائلا :
— أجيبي ، وأنقذى أباك من عذاب أليم . . . ١.١
وتجيبه « حفصة » :

— تصبر شهرين يا أمير المؤمنين ، وتجالد نفسها بعد الثالث . وتفقد
صبرها بعد الشهر الرابع .

ويخرج عمر فوراً ، ليضع قانونا يحرم على قواد الجيوش أن يستبقوا
« متزوجا » بعد أربعة أشهر . بل يرجع إلى أهله ويقضى بينهم وقتاً
كافيا ثم يعود . . .

ما أحوج سجناءنا إلى قانون كقانون عمر الذي اشترعه منذ ثلاثة عشر قرناً . . .

ولا بد من وضع نظام يتيح لكل سجين زوج ، أن يقضي مع أهله أسبوعاً أو أسبوعين في فترات مناسبة . . . ولن تكون حوادث الهرب ، كما متصورها ملنا مخاوفنا أبداً . . .

ولا بد من وضع نظام يتيح للسجين العزب الذي يريد الزواج أن يتزوج . . . ولا بد من تحويل السجن إلى أندية تنتظم كل وسائل التسلية والترقية مع ما يتيسر من وسائل الإنتاج . . .

ولا بد من إدخال « السينما والراديو » على نطاق واسع في تلك المسجون التي ستتحول إلى أندية ، لينساب رى الثقافة والفن في النفوس الجافة اليابسة فتزدهر فضائلها السكينة وترعرع .

ولا بد من إلغاء مظاهر الوحشية كافة ، من جلد ، وتعذيب ، وأبراش . و « حمل البلاوى » في الصباح وفي المساء . . . ؟

ولا بد من تغيير ذلك اللباس الرديء السكاح الذي نلبسه سجناءنا . . . أقسم ، لو أن « ملاكا » لبس هذا اللباس شهراً واحداً لنفت في روعه شعوراً ماحقاً بالهوان والضعفة والتعاسة ، ولا اكفهرت كل فضائل نفسه المزدهرة وخباياؤها . . .

وكذلك نرى أنه لا بد من اختصار المدة المضروبة للسجن المؤبد . . . وجعل حدها الأقصى خمسة عشر عاماً . وإلغاء « المراقبة » التي تطارد بها النزير بعد مغادرته السجن .

إننا نعاقب المجرم كما قلنا لنزجره عن الأساءة في المستقبل . وخير

ما نصنعه لبلاوغ هذا الهدف ، هو التقويم ، لا التحطيم . . وسجوننا
بحالتها الراهنة لا تستطيع إلا أن تحطم إنسانية السجين وتشوه روحه . .
أما تقويمه ، فأني لها ذلك وليس فيها من وسائل التقويم والتربية شيء . .
بقيت واحدة . ، ياليتنا نوفق للاقتناع بها . .

إلغوا كلمة « السجن » . . وضعوا بديلها « المرفأ » . .
سموا السجون « للمرافىء الاجتماعية » فالحق أنها يجب أن تكون
كذلك . . يجب أن يكون السجن « مرفأ » يستجم فيه المذنب من
أمراض نفسه وسلوكه حتى يعافى . .

صحيح أنه ليس في دول العالم من استعمل هذه التسمية . . ؟
ولكن أى بأس في أن تقدم نحن للعالم هذه الهدية . . ؟
إن المستقبل القريب للأنسانية لن يعترف بكلمة سجن . بل لن
يعترف بالسجون نفسها . .

فلنذكر التاريخ أن أمتنا أول أمة حولت السجون إلى « مرافىء »
ونجحت الإنسان من وطأة التسمية البغيضة « السجن » . .
ولكن هذا الاقتراح يتحول إلى سخرية إذا أعطينا سجوننا هذا
الاسم وهي على وضعها القائم . ، فلنحولها إلى مرافىء بالقول وبالفعل . .
احذفوا من منهج القضاء كلمة « شاقة » فإنها كلمة غير إنسانية . .
بل واحذفوا كلمة « أشغال » واصطنعوا بديل الكلمتين كلمة حلوة
وديدة هي . . « العمل » .

ألا ما أروع تلك الساعة وأبهجها التي تصدر فيها أحكامنا
القضائية هكذا :

« يا عبد الفتاح . . . لقد اقتنعت المحكمة بأنك مسيء . . . ورأت أن تحكم في قضيتك باستجمايك خمس سنوات في المرفأ الإجتماعى مع العمل . . . »

إنكم تلاحظون أننا وضعنا كلمة « مسيء » مكان « مجرم » أو « مذنب » وكلمة « الاستجما » مكان كلمة « السجن » وعبرة « المرفأ الاجتماعى » مكان كلمة « السجن » وكلمة « العمل » مكان عبارة « الأشغال الشاقة » وتلاحظون أيضا ، أن الكلمات التى ندعو لحذفها جارحة ومتوحشة ، تنهش كرامة الإنسان نهشا وبيلا . . .

والمذنب مهما يكن ، إنسان . وليس الخير فى نخطميه بل فى تقويمه . وكما قال السيد المسيح « إن الله لا يسر بموت الشرير . بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا » . . .

وبهذا القدر من الحديث عن « الجزء الاجتماعى » نكون قد أشرنا إلى أثر القانون والسجن فى دعم أخلاق العبيد الباجمة عن سيادة القوة والأرغام . فنتجه الآن إلى مكن آخر من مكن هذه الآفة . . . مكن لعله لم يخطر ببالنا أن يكون صاحب دور مخرب فى محاولة الاكتمال الخلقى الصاعد للأمة . . .

أتعرفونه . . . ؟ ؟ ها أنذا أقدمه لكم :

الرأى الامام . . . ! !

يلعب الرأى العام دوره كقوة ملزمة يخشى الناس عصيانها ويهابون نفوذها . حتى أشدهم بأسا ، وأمضاهم قوة ، من الزعماء والقادة ،

كثيرا ما يدعون للرأى العام إذعانا ليس من دوائفه الاقتناع بما لهذا
الرأى من وجهة نظر ، وكم من قائد وزعيم أودت به المسيرة الجارفة
للرأى العام ، وصيرته من الهالكين ...

وعند ما يكون الرأى العام ضحلا ، غير ممتلىء بالمعرفة . . فيا ،
لم تنضجه الخبرة والتجربة . ؛ فأنه يكون من الممكن أن يتحول إلى
كارثة غير ممتعة . . .

بيد أن ذلك لا يبرر تجاهله أو قهره . إذ لا غنى لجماعة إنسانية عنه .
وإنما يدفع إلى إفساح طريق النمو أمامه ، وتهيئة جميع الفرص التى تشد
أزره ، وتشجذ إمكانياته .

والحظ الواجب توفره للمجتمع كي يتكون فيه رأى عام مستير وحر . .
هذا الحظ من الثقافة ، والتجربة ، والحرية ، والذي لم يتوفر لمجتمعنا
العربي على الوجه المطلوب . يجعلنا نقرر مطمئنين أن الرأى العام فى هذه
الرقعة من الأرض - مصر وما حولها - لا يزال جدينا ، يدعونا للحذر
منه . . والحذر عليه . . ويهيب بنا كي نعمل صادقين لأعطائه فرصة .

أجل ، إن فى بلادنا طلائع رأى عام تشجع على الثقة بمستقبله . وإن
يرتكب أحدها - حاكما كان أو محكوما - جريمة أشنع من الحجر على هذا
للمستقبل . والضغط على الطلائع البازغة كشعاعات الفجر . وتضليل
زحفها لليوم وخطواتها الباسلة . .

إن الرأى العام ضرورى للأمة ، ضرورة الصباح فى أرض يطمسها
الظلام وتغمر أرضها الشظايا والحفر . .

وإذا كان موضوع البحث سيقصر حديثنا على حتميته الأخلاقية ،

فلن يكون معناه أننا تتجاهل حتمياته الأخرى السياسية ، والاجتماعية والثقافية . .

والآن . ما صلة رأى العام بالمسلك الخلقى للمجتمع . ؟
إن الإنسان كما نعلم — كائن اجتماعى — يتأثر عن طريق المشاركة الوجدانية وغيرها من النزعات والغرائز بسلوك الجماعة ورأيها .
ويستطيع كل امرئ منا أن يذكر الرغبات والشهوات التى يتنازل عنها ، لا زهداً فيها . ولا بدافع من خوف دينى . . بل بحافز الخوف الاجتماعى . الخوف من نقد المجتمع ، وقسوة حكمه وتقديره . .
كما نستطيع أن نبصر تلك الفضائل التى نفعلها كارهين . لى نظفر برضاء الجماعة وحسن تقديرها لنا . .

ومعنى هذا أن رأى العام يقف على رأس البواعث الخلقية . ونجد أنفسنا مضطرين فى كثير من الأحيان إلى استحسان ما يستحسنه واستهجان ما يستهجنه . فإذا كان على إدراك سليم للفضيلة الصحيحة ، والرذيلة الحققة ، فإنه يكون ميزاناً دقيقاً وصالحاً للسلوك . أما إذا أدرك مسائل الأخلاق إدراكاً غيبياً ، وقاس الفضيلة والرذيلة بمفاهيم جاهلة أملت على رواسبه وتقاليده ؛ فإن الأمة تتحول من حيث تدرى أو لا تدرى إلى وكر عظيم من أوكار الرذيلة والضلال .

وإذا كان من المؤسف أن نعرف بأن رأينا العام من هذا الطراز ؛ فإن من الخير أن تحفزنا هذه الظاهرة إلى تلافى ما ينجم عنها من مخاطر وأضرار . .

قلنا إن رأينا العام لا يزال جنبينا ، علينا أن نحذره ونحذر عليه . .

ونحن نعني بالحذر منه ألا نستسلم لميوله ونزواته وأحكامه ، ونعني بالحذر عليه ، ألا نضائل من فرص تطويره وتنميته . فالسبيل الحق لوقاية الأمة شر الانتكاسات الوبيلة يتمثل أكثر ما يتمثل في إحياء كل الطاقات الذهنية ، والشعورية ، والأرادية في رأى عام شامل يستهسى على الاستهواء الباطل ، والمسكر الخبيث . وما لم نفعل ؛ فسيظل رأينا العام كما هو . دمية يعبت بها الحواة الذين لا تخلو منهم أمة . والذين يموتون فور ظهورهم إذا جاء هذا الظهور وسط جماعة يقظة ، ورأى عام فطن وحصيف . .

وقد يتوهم الذين يعيشون في العاصمة وجود رأى عام شامل . بيد أن الربف يموج موجاً بالذين لا يعرفون إلا أنهم لا يعرفون . . الذين إذا هبط أحدهم عاصمة بلاده فـكر في شراء « ترام » أو « ساعة » من ساعات الميادين العامة . .

وحق الذين يعيشون في العواصم والمدن يندر فيهم من نجد له مكاناً في الطليعة الواعية الناشئة التي قلنا إنها تمثل بداية مشجعة لرأى عام فسيح . هذا الرأى العام في بلادنا مريض بالجهل وبما يستتبعه الجهل من آفات التزمت ، والتعصب ، والخوف . . والنفاق الاجتماعى الذى يصد عن طلب الحق ونشدان السكال . ومن هنا تجمىء جنايته على الفضيلة والأخلاق . .

كيف يتصور « رأينا العام » الفضيلة . . ؟؟

إذا كنت تصلى ، وتصوم ، وتجتنب الخمر ، وتتنأى عن النشاط الجنسى المحظور . فأنت قديس عظيم . حتى حين تكون شخصيتك منحلة

انحلالا كاملا . فتؤثر الجبن على الشجاعة ، والمداهنة على الصراحة ،
والهوان على الأنفة ، والشح على الجود ، والجود على التطور ، وتأكل
الحرام ، وتتحايل على الحق ، بل وتمثل دور « يهوذا » من أجل مبطع
فان وغرض زائل . . كل هذه الموبقات لن تخلع عنك صفة الصلاح
والاستقامة في نظر الرأي العام الذي لا يكاد يعرف شيئا عن هذه الشوارد
التي تسمى « الأنفة ، والصراحة ، والحقيقة ، والتطور » . . ١٩
لسوف نتحدث إن شاء الله في الفصل القادم عن مآتي هذا القصور
والعي والبلاهة التي يدرك بها « رأينا العام » مسألة السلوك الإنساني..
وحسبنا هنا أن نكشف عن خصاله المعرقة لنموه ، وأيضا لنموا كتابنا
الخلق الذي تريده .

إن الرأي العام عندنا يحصر الفضيلة والرذيلة في « المسئلة الجنسية »
أكثر مما عداها . ونحن لا نريد أن نعص من قيمة « الاستقامة الجنسية »
أو أن نضائل من شأنها وحتميتها . ولقد أكدنا هذه الحتمية في كتابنا
السالف « هذا . . أو الطوفان » .

وحذرنا من « العريضة الجنسية » كهواية ، أو كعلاج . . وقلنا
إن الانطلاق الجنسي الجامع يفر بصاحبه من كبت خطير إلى كبت
أخطر ، هو كبت « الحاسة الخلقية » . ثم دعونا إلى الاعتدال وبرسمنا
له منهاجا . .

إذن ، فنحن حريصون على وضع الاستقامة الجنسية داخل منهجنا
الخلق . . بيد أن ذلك لا يعنى أن نترك الأحاسيس بها يطغى على وجداننا ،
ويتحول إلى « هستيريا مقدسة » . . إن ذلك الأغراب فضلا عن كونه .

غير منطقي وغير سوى . فهو يسدل ستاراً كشيافاً على الجوانب الأخرى
للساوك وللفضيلة وللرذيلة . ويحرمنا بالنالى من معظم فضائل العصر
ومحاولاته الأخلاقية الرفيعة . . .

وأضرب لكم مثلاً : الاختلاط . . .

إن الاختلاط الجنسى فى العمل ، وفى المعهد ، وفى النادى . قد صار
رغم بعض الأخطاء التى يفرزها ، فضيلة من فضائل عصرنا ، ووسيلة
مجدية للاستقامة الجنسية اليانة . . .

ومع هذا ، ورغم الطرقات العنيفة والمتساوقة التى نزلت ولا تزال
تنزل على وعينا الحليم (١) فلا يزال « رأينا العام » يحذره ويخافه
ويستكره . . . ١١

بل إن الجامعات العلمية عندنا لتقدم لنا شر ألوان هذا الحذر وأغناه
بالفسكاهة والفجيرة . فالتالبات فى بعض المدرجات يتخذن صفوفاً خاصة
بهن . وإذا حدث أن اقترب منها بعض الطلاب غضبن . ؛ فإذا تدخل
الأستاذ ليقنع الطالبات بأنه لا بأس بأن يتسع الصف لزملاء . لا سيما وهم
فى قاعة علمية ، لا فى صالة لهو . . . تجيب بعض الطالبات :

— والله ، دي أوامر البيت . . . ١٢ حدث هذا فعلاً .

مع أن كثيراً من بيوتنا الفاضلة (١) التى تريد أن تدير الجامعة
من المطبخ . لا تعلم شيئاً مما يجب أن تعلمه عن البيت نفسه . . .

وكم من فتاة تتظاهر بالعزوف عن الاختلاط الشريف المذهب . ،
وكم من فتى يتظاهر أيضاً ، ثم لا يكون هذا التظاهر سوى تعبير مبين

الكمال الميسور . ، وما دام حظنا منه قليلا ؛ فلا أقل من أن نتيح الفرصة لرواد الدرجة الثانية ، والثالثة . . لينموا ويعوضوا عقمنا المؤذى وهل نجود بفرص الأتماء هذه ، حين نلوح بالوعيد والتهديد للذين إذا جاءوا بما لا تهوى أنفسنا وتقاليدها ، قتلناهم ، أو ألبانناهم ، للهرب والانزواء . . ؟ ؟

أبدا . . وإن الكارثة لتجل عن الوصف إذا كان الرأي العام هو الذى سيتولى مهمة الأجهاز عليهم ، أو ترويعهم . . هنالك ، تموت الشجاعة ، وتموت فى أثرها الحقيقة ، وتندرج معهما فى كفن الواحد ، الفضيلة . . .

وأضرب لكم مثلا - ذلك العالم الغربى الذى اشتغل بالطبيعات حتى حتى كفر بالله . ورد إلى الطبيعة وحدها كل ما فى الوجود من موجود . . وبعد سنوات ألف كتابا ينادى فيه بصوت جهير :
— يا أيها الناس . ، يا أيها الشباب . ، ارقصوا . . . وهو طبعا ، لا يعنى بالرقص الذى مجده ودعا إليه ، رقص البطون المألوف عندنا . . بل يعنى تلك الحركات التوقيعية المعبرة التى يؤديها الرجل والمرأة معاً فى تسام وتعاطف .

ترى لو كان ذلك العالم الشهير فى مجتمعنا ، وفعل هذا ، أكان رأينا العام سيتلقى صيخته فى فهم ، أو حتى فى إعراض هادى . . ؟ ؟
طبعا لا . . لماذا . . ؟ لأن رأينا العام لا يعرف عن المرأة إلا أنها أداة للهو الجسد . . ولا يعرف فى المرأة شيئا يدعو لعشقها واحترامها سوى مفاتها المثيرة . ليس فيها من الفكر ، ولا من الروح ما يجذب

ويدعو . . . وكل خطوة نخطوها فهي خطوة إلى الفاحشة . وإذا كان يجفل من الاختلاط في دور العلم فكيف به يسمح بالرقص مهما يكن نظيفا . . ؟؟
 إن هذا الرجل - إذن - مارق ماجن أفاك . . .
 ومع هذا ؛ فاسمعوا بقية النبأ . ، إن ذلك العالم بعد أن هرب من الله عاد إليه ، وجعل عنوان الكتاب الذي تحدث خلاله عن الرقص .
 « الرجوع إلى الله » . . . وتحدث فيه عن البواعث التي ردت به إلى الإيمان ، والتي رأيت صدع نفسه ، وجمعت شتات مكينتها . ومنها الرقص . .
 قد يكون الرجل مخطئا . بل لنفترض هنا أنه كذلك فعلا . . . مخطيء
 ضل سواء السبيل ولكن ، هل هذا هو الخطأ الوحيد الذي وقع . . . ؟؟
 إن المجتمع - أي مجتمع - يشهد كل يوم حشداً هائلا من الأخطاء الفنية ، والسياسية ، والاقتصادية . فيتسامح معها ويكتفي بأصلاحها . .
 فلماذا لا يتسامح أيضا مع الخطأ الخلقى . ، على فرض أنه كذلك . . ؟؟
 هنا تظهر الآفة واضحة . . وهنا يستبين الفارق الكبير بين الرأي العام المستنير والرأى العام المظلم . .
 فالأول وقد برىء من الجهل والتزمت ، يزن الخطأ الأخلاقى بنفس
 الميزان الذي يزن به الخطأ الفنى ، أو الخطأ السياسى . .
 أما الثانى ، فيأرز به به حمله وتزمته إلى حماقة مضحكة . تتمثل
 فى تسامح سخى مع الخطأ الفنى ، أو العلمى . . . وحرب مجنونة على
 الخطأ الخلقى .
 وهذا ينقلنا إلى لون آخر من ألوان الخطر الملاحق الذى يتهدد به
 الرأى العام عندنا قضية السلوك والأخلاق . .

إن الجهالة المزمنة تضيئ بل تنفث في رأينا العام تزمنا ضاريا . يميل
به عن السلوك السوى الذي يجب أن يسلكه تجاه الخطئين خطأ أخلاقيا . .
فكم من أناس كان من الممكن أن يرجعوا عن الشر وهم في بداية الطريق ،
لولا الحقد المتبادل بينهم وبين الرأي العام الذي ينظر إليهم في بلاهة
وقسوة ، ويعالج عدوانهم بعدوان أشد وأنكى . . .

ألا إن عجز الرأي العام عن التسامح مع الخطأ الخلقى ليغرى بالمزيد
منه ، ويفضى إلى إدمانه . ؛ فالنفس البشرية بطبيعتها تسحو فوق نزواتها
كلما أحاطت بها اهتمامات الآخرين ومشاعرهم الحفية الودودة . .

وكذلك تزداد عثراتها الخلقية كلما أحست أنها موضع استهجان وعدم
مبالاة . هنالك تمضى في رذيلتها إلى آخر الشوط ، وتشرب من كأسها
حتى الثمالة يسوقها ذلك الشعار : « أنا الغريق ؛ فما خوفي من البلل » . .
وهكذا نجد رأى العام الجاهل التزمت كالطاغية تماما . كلاهما مزرعة
للرذيلة . يغرى بها ، ويدفع ضحاياها إليها دفعا وييلا .

وكأى من فنيات انتحرن لأن خطأ أخلاقيا ارتكبته كان مستورا
ثم تكشف . . وكثيرا ما يكون هذا الخطأ من الضالة بحيث لا يستحق
التكفير عنه بالاعتذار . . فضلا عن الانتحار . .

رأيت — فيما رأيت — أسرة ، كل نساءها وبناتها يمارسن البغاء
السرى . . ورجال الأسرة من أزواج وإخوة لا يعلمون شيئا . .

ونساء الأسرة عبارة عن أم ، وبناتها المتزوجة . . وبنات طالبتين . .
والأم يشارف عمرها الستين . وهى التى تدير مأدبة الرذيلة وتقدم
للضيوف فى حذر ومهارة بناتها الزوجة ، وبناتها الطالبتين . . (١٤)

لماذا تفعل الأم هذا وترتكبه ؟ إن الظروف المعيشية كما رأيتموها ، لا يمكن أن تكون سببا . والرغبة المشتهية ، لا وجود لها بين الحوافز على الأقل بالنسبة للأم ، وبنيتها الزوجة . .

لا أستطيع الزعم بأننى عرفت الباعث الكامن فى جوف المأساة . .
ولكنى تأكدت من قصة « الأم » التى سأرويها لكم الآن .

كان أبوها تاجراً كبيراً ، وكانت أسرتها تقيم بأحدى مدن العواصم الصغيرة . وعلى الرغم من صلاح أبيها ومحافظته ، فقد كان رجلاً متسامحاً إلى حد غير قليل . .

أحبت الفتاة شاباً يعمل فى تجارة أبيها ، وسارحتهما فى تكتم وإستحياء . . وذات ليلة ، وأخوها راجع من عرس كان يشهده ، والفجر يقرع أبواب يوم جديد ، « ضبطها » بين ذراعى فتاها فى ذلك المكان الذى يسميه الناس « بير السلم » . .

لم تكن تصنع وحببها ساعتئذ ، كما لم يصنعها من قبل أكثر من النجوى . وما تثيره النجوى من فضول خفيف ترتكبه الشفتان والذراعان . . .

وطبعاً أخبر الأخ أمه وأباه . وأصرت الأم على طرد الفتى من عمله . . واكتفى الأب بتوجيه نافع أسداه إليه وشفعه بالتهديد بالطرد إن هو عاد . . بيد أن الأم صممت على الطرد وغاضبت زوجها من أجل هذا . ثم عادت إلى بيت زوجها بعد أن انتصرت مشيتها . وخلال هذه الظروف والأيام ، كان الخبر قد تفلت من ثقوب النوافذ ، وتلقفته آذان الطريق . وصار الوالد حديث الناس وموضوع تنذرههم .

كيف يكت على ما حدث . . ؟ كيف لا يقتل الفتى ، وليس فقط يطرده . . ؟ بل كيف لا يغسل العار بدم ابنته نفسها . . ؟ . والعواطف تعدى ، والأيحاء يضلل . .

وهكذا ، فإن « الرأى العام » فى تلك المدينة الصغيرة أنسى الرجل عقله وتسامحه . . وذات يوم أصلى ابنته ضرباً أليماً . وعاشت الفتاة فى جو خانق من التحقير والأهانة . . وحددت إقامتها وروقت حركاتها بشكل ضاغط مثير .

وبعد سنوات تزوجت ، ثم طلقت ، ثم تزوجت رجلاً بالقاهرة وبقيت فى عصمته حتى توفى . . وهى لا تنكر أنها وهى معه وفى عصمته كانت تفعل — دون علمه — ما تشاء . . (؟)

إن بنتها المتزوجة كذلك . تفعل بأرشادها ما تشاء (؟) والزوج لا يعلم . . بل إن الزوج ليتحدث عن زوجته فى ثقة غامرة . حتى لكانها قديسة عذراء . . ١١

مرة أخرى ، لا أزعم أننى أعرف حقيقة الباعث الذى ألزم الأم هذا السلوك المرذول . ولكنى مطمئن ، وهى طمأنينة لا أكلّمكم أن تتقبلوها — أقول إننى مطمئن إلى أن الدور الأجرامى الذى لعبه الرأى العام فى ذلك « البلد » الذى كانت تقيم فيه الأسرة . والذى ألب الوالد على بنته وحرضه . . والذى خلق من شىء تافه ، فضيحة مزلة شوهت روح الفتاة ، وشحنت نفسها بالحقد الضارى . .

هذا الرأى العام الجاهل المنافق التمس ، هو المسئول الأول عن هذه المأساة وعن ذلك الحشد الكبير من المأسى للمائلة .

سألت الأم — ذات مرة — :

— أليس الأفضل أن تجنب بنتي الطالبين ذلك الطريق حرصا على
مستقبلهما . ؟ ؟

فأجابتنى وهى تضحك :

— مستقبل . . ؟ ؟ الحياة ما تستاهلش

أجل ، لقد أقنعناها بتفاهة الحياة ، وتفاهة كل ما بها من قيم ، يوم
وقفنا منها وهى فتاة بريئة طاهرة ذلك الموقف الغادر الخزى ويوم
حظرنا عليها أن تتنفس

يومئذ ، دفعها الرأى العام بكلتا يديه إلى الرذيلة والشقاء .
ولقد يسأل سائل :

— أتريد من الرأى العام أن يسكت على الرذائل ، أو يصفق لها . . ؟ ؟
وأجيب : لا ولكنى أريد ألا يسلك تجاهها مسلكا غيبيا يضاعف
من ضراوتها وانتشارها

والحد الوسط بين الإفراط والتفريط ، بين التهاون والتزمت — هو
ما ندعو إليه . مدركين أن الظفر به يتطلب جهوداً مخلصة شريفة تبذل
فى سخاء لتطویر رأینا العام وتنویره ،
ما نوع هذه الجهود اللازمة

أستطيع أن أخصها فى كلمة واحدة هى « المعرفة »
وأتم تعلمون أن فى مقدمة وسائل المعرفة ، الكتاب والصحيفة . .
وتعلمون أيضا احتياجاتنا العارمة إلى الكتاب الموجه ، والصحيفة الباعثة . .
أما الكتاب ، فلا مناص من إطلاق جميع امکانيات اللازمة

للكاتب من حرية ، وتشجيع ، ولا بد من إلغاء كافة الملايسات التي تبعث في نفس الكاتب القنوط والسامة . . وأيضا لا بد من كتاب ومفكرين يكرسون مواهبهم للنضال ضد ما في الحياة من كذب وألم وعجز . . ويعيشون للحق . ويؤثرون الواجب على المنفعة . . بيد أنه ينبغي إدراك ظاهرة هامة . . هي أن الكاتب يقاتل في معركة شبه يائسة ، إذا لم تسلك الصحافة نفس الطريق المستقيم الذي ندعو الكتاب للسير فيه . لأن ضجتها التي لا تنتهى . وإيحائها الموصول النافذ يجعلانها أكثر هيمنة ، وأعلى صوتا ، وأوفر نفوذا ..

والحق أن في صحافتنا خيرا لا ينكر . . ولها دور مذكور ومشكور في إنشاء الرأى العام ، وشد أزره . . لكن من الحق أيضا أن فيها شرورا لا تطق . . ولها دور تمس في تضليل الرأى العام واعتياق نموه . . فإذا قلنا إنها تأخذ بالشمال ما تعطى باليمين لم نكن إلا صادقين . . ونحن لا نكاد نعلم كيف تستطيع صحيفة تلعب القمار مع القارىء ، وترسم سياسة توزيعها في غيبة فضائل المهنة ، والشعور بتبعات الفكر . . . كيف تستطيع أن تكون معلما ومرشدا . . ؟ ؟

لقد قلنا إن الناس يصوغون سلوكهم وفق القيم التي تسود مجتمعهم . وصحافتنا طبول تفرع لقيحة واحدة هي المنفعة . . ١ ١ . . والسباق اللاهث المسعور الناشب بينها نحو التوزيع الأكثر . جعلها تمرغ كل التزاماتها الشريفة في التراب والوحل .

عندما تواظب الصحيفة على إبراز الحوادث التافهة وتعطيها من الأهمية ما تعطيه لأعلان حرب عالمية . من العناوين الضخمة ، والعرض المثير .

فأن ذلك لا يعنى قط سوى شىء واحد . هو إتلاف الملكات الذهنية للقراء الذين يتكون منهم رأينا العام . .

وعندما تنشر صحيفة بنفس الطريقة السالفة ، نص محادثة بين رجل وزوجته ، أو رفيق مع صديق . ؛ فأنها بهذا تلبس الرذيلة ثوب الفضيلة . بل ثوب البطولة . وتقنع قراءها بأن التجسس على الأسرار التى أعلنت قداستها حقوق الإنسان . ليس سوى عمل شريف وبطولة تستأهل الحفاوة والأعجاب . . .

وعندما تعالج الصحافة القضايا القومية بروح حزبية . أو القضايا الإنسانية بروح غير إنسانية . .

وعندما تلتمس للباطل المعاذير والمبررات . فأنها نصيب رأى العام بشر ما يمزقه . وتعرقل فى همة باغية كل وسائل التربية ومحاولات التفوق الخلقى للجماعة . .

فكيف نأخذ بزمام هذا المارد الضارى إلى الخير والحق والواجب ؟؟
ألا إنه لعبث أكين أن نتقدم للصحافة بموعظة . . ؟
وأیضا ، إنها لحماقة مزعجة أن نطالب بوضعها تحت وصاية . . نحن الذين نرى أن أفضل علاج لأخطاء الحرية . هو المزيد من الحرية . . .
إذن ، فما السبيل . . .

هناك سبيل نقترحه وندعوله هو أن نحرر الصحافة — قدر الاستطاعة — من وطأة المنفعة . التى تضلها ، وتضل معها الجماهير .

وستتوسل لهذا بالقانون . . وإنه ليؤسفنا ونحن ندعو لأحياء الشعور بالواجب . ونحذر من الأسراف فى الاعتماد على القوة حتى حين تتمثل

في قانون . . يؤسفنا أن نلجأ مضطرين هنا إلى القانون لنتقى بمادة أو مادتين ، شرورا قد تحتاج بعد لقوانين شتى ، وعقوبات حمة . .
أما المادة الأولى من القانون المقترح ؛ فتحرم تحريما قاطعا القمار الذي تمارسه صحفنا . . وسنرجح بهذا التحريم ، انطلاق الجهود الفنية والعقلية في كل صحيفة لرفع مستواها حتى تنفوق على غيرها . . ومهما يكن الأمر ؛ فستكون المنافسة بين الصحف على هذه الصورة الكريمة سبيلا يتسامى بتحريرها وبقراءتها . .

أما المادة الثانية ؛ فتعيد تنظيم الجريدة من جديد . تنظيمها ينفي عنها مظهر الأقطاع وساوكة وصالفه وبهتانه . .

— كما نطلب من الذين ينشئون « جمعية » أو « هيئة » أن ينتخبوا المشرقيين عليها . ويلتزموا النهج القانوني الذي يردهم عن المحاولات غير المشروعة . . فكذلك يجب أن يكون الأمر بالنسبة للصحافة . . فالواقع أن كل صحيفة بموظفيها . عبارة عن هيئة تمارس عملا مشتركا يقوم بتوجيه المجتمع . فكيف نترك هذا العمل الجليل والخطير لفرد واحد ، هو صاحب الجريدة . . ؟ ؟

ينبغي — إذن — أن يكون لكل صحيفة مجلس إدارة يشترك في انتخابه جميع محرري الصحيفة وموظفيها . .

وهذا المجلس الذي نقترح أنه سيتكون من عشرة أعضاء ، يصير بمثابة « جمعية عمومية » وينتخب بدوره « ثلاثة » يشرفون على التحرير ويكونون مسئولين عنه . .

إننا نعلم — سلفاً — أن أصحاب الصحف سيخادعون القانون ، ويصلون

إلى تكوين مجلس يوافق هواهم . . ولكن ذلك لن يضرنا شيئا ، لأن كل تشريع جديد معرض للعبث الذي لا يلبث أن يزول كلما تفاعل الناس مع واجباتهم إزاءه . . على أن قليلا من الضمانات نحوط بها المحررين والموظفين ، سيجعل كل محاولة للعبث هباء باطلا . .

إن مثل هذا التنظيم للصحافة هو — في رأينا — السبيل الأوحـد لتقويمها والانتفاع بها — فتوزيع المسؤولية على جماعة ينتخبهم العامـلون في الجريدة سيحيي فيها وفيهم الشعور بالمسؤولية . . ويرفع عنها وعنهم استبداد صاحب الجريدة . . ويحد من نشاطه الفردي الضار حين يعلم أنه لم يعد له من الأمر شيء — وأن الجريدة لم تعد إقطاعا يسيطر عليه غروره . . وأن سياستها لم تعد معلقة بكلمة تخرج من فـم المـملوء بالمطامع والشهوات . . بل صار ذلك كله في أيدي المائة ، أو المائتين الذين يعملون معه ، ويحملون فوق كواهلهم المتعبة مشاق العمل وأوزاره . .

وإذا سئلت ، ماذا أبقىـت إذن لصاحب الجريدة ؟ ؟

أجيب ، أبقىـت له الرمح الذي سيجنـيه من جريدته . بعد أن صار أو سيصير ربـحا حلالا مشروعا . . وأيضا أبقىـت له نصيبه من الإشراف على سياسة الجريدة وتوجيهها مع الآخرين مادام سيظفر بتزكية الناخبين . . .

إننا نهيب بالمسؤولين في كافة بلادنا العربية أن يضعوا هذا الاقتراح موضع الاعتبار . . وسواء علينا أن يحى هذا التنظيم في صورة تشريع

وزارى تضعه الحكومة ، أو نقابى ، تضعه نقابة الصحفيين . . المهم أن يتم ذلك حثيثاً ، ليقف ذلك المد « الأخلاقى » المدافع من عبث الصحافة ، وتكالبها على الربح وعلى الانتشار .

إن الصحافة فى بلادنا تنمى فى رأينا العام غريزة القطيع . وتلاشى منه عقل الجماعة . مما يساعده على إدمان الرذائل الاجتماعية من تعصب ونفاق ، وحبس ، وكذب ، وجمود ، وانحطاط . وهكذا يتعطل انطلاق الجماعة إلى أعلى . فلتبحث الصحافة عن طريق أهدى للحق ، وأصون للأمانة التى تحملها ويساعدها نحن على هذا بتنفيذ ما اقترحناه .

والآن . . ، وقد تعقبنا أهم مظاهر القوة والقهر العاملة الناصبة فى مجتمعنا . والمعطلة لديوع الواجب الأخلاقى كباءث ومحرك . ، فأننا نختم هذا الفصل بالحديث عما نعينه بالواجب .

ماذا نهى بالواجب . . ؟

تنشق الرئة المريضة الهواء النقي ، فتحوله إلى سعال . .
وتهضم المعدة السقيمة الغذاء الشهى الغنى ، فتحوله إلى مرض . .
ويتلقى العقل المخبول الكلمة المضیئة ، والحكمة المترعة ، فيحولها إلى هذيان . .

وللمجتمع قيم إذا نخرتها العلة أو أخذ مكانها نقيضها . تتحول جهود الناس إلى هباء . .

ولقد ذكرنا من قبل أننا نصوغ سلوكنا وفق القيم السائدة فى المجتمع .
فاذا كانت قيما ضالة جاء سلوكنا ضالا مثلها . . وإن تلك قيما فاضلة ، يكن سلوكنا فاضلا . .

وإذا رفع المجتمع لأبنائه قima مريضة مسفة ، فيجب عليه ألا يلومهم على ما ارتكبون وما يقتربون .. فسيكون للناس من العذر المشروع الصادق مثل ما لصاحب المعدة المريضة ، والرثة التالفة ، والعقل المخبول . . .
إن كل جهد يبذل للتسامي بالسلوك سيتحول إلى النقيض . . تماماً كما تحول المعدة الممرضة الغذاء الشافي إلى مرض ، وربما إلى موت . .
ففي ظل قيم منحرفة يتحول جهدك المبذول من أجل إحراز الصدق ، لحساب الكذب . .

وجهدك للظفر بالشرف ، يتحول لحساب الخسة . .
وجهدك لكسب الشجاعة ، يتحول لحساب الخور والفرع . .
وجهدك لاستشراف الحقيقة ، يلتهمه منك رصيد الخراوة . .
وجهدك الصاعد نحو التفوق ، يتحول إلى انتكاس مروع صوب الانحطاط . . .

وهذا هو التفسير الصحيح للواجب الذي نعينه . . فالناس عندما يجاهدون جهاداً أخلاقياً في ظل الواجب كقيمة . . فإنهم يحنون أشهى ثمرات جهادهم . . وحين يبذلون كل طاقتهم لبلوغ نفس الغاية في ظل القوة كقيمة ، فإنهم لا يكونون أسعد حالاً من الذي يتحول التفاح الجيد في معدته إلى عصارة فاسدة . . .

إننا في ظل القوة نعمل الفضيلة مضطرين ومكرهين ، فإذا زالت ظروف اضطرارنا واستكراهنا ، لم يبق معنا من الفضيلة شيء .
أما الواجب ، فهو كما يقول « جويو » ليس شعوراً بضرورة ، ولا بضغط ، بل هو الشعور بقدرة . ولذا فهو يدفع بكل حسنا الأخلاقي

إلى المعركة . لأنه يوحى إلى الشعور بالاحترام العميق لقوانا ومحاولاتنا .
والتوسل بالقوة ينمى معنى الرق فى وجداناتنا . بينما الواجب يرفعنا ،
ويخلق بنا فى الفضاء الحر . ومعنا أخلاق الأحرار . لأخلاق العبيد ...
والقوة إرادة صناعية ، تأخذ مكان إرادتنا الطبيعية الدانية . وهكذا
نعيش بأرادة ليست منبعثة من صميمنا . وتحتصرنا تلك الإرادة الدخيلة
داخل نفسها ، فنحتاج فىنا التمرد عليها ، والرغبة فى الانتقام منها . وتنمى
فىنا من النزعات ما يجعلنا أكثر توحشا .

أما الواجب ، ذلك الذى ينبعث من اقتناع صميمى لنا وليس هناك
من قوة خارجية تزجيه سوى الضرورات العادلة المنبعثة من حياتنا
الاجتماعية ؛ فهو وحده الذى يبدل خوفنا أمنا ، وتوحشنا الغرذى
اثتناساً وجدانياً وهو الذى يهبنا نور الشخصية بما يبعثه من ثقة بقدرتنا
الداخلية ، وبما يصنعه من تحرير لرقابنا ...

والقوة تعتمد على فرض أحكامها وأوامرها ، من غير أن تربطنا
بواجبات مفهومة ، ومن غير أن تعطى الباعث الخلقى الاهتمامات اللازمة
لبعثه وشحنه وتعليته .

أما الواجب ، فيخاطب الباعث رأساً ، ويروضه على إدراك واجب
أخلاقى تزجيه وتحميه قوانا النامية ، وأفسكارنا المقتنعة ، وعواطفنا
الملتطعة لخير ما فى الناس من مكارم ، والزمالة لأسمى ما يبذلون من محاولة .
وهكذا نجد القوة حين تتحول إلى قيمة عليا تناط بها محاولاتنا
أو بتعبير أصح ، يناط بها إذعانتنا الخلقى — نجدها أكثر نأياً بنا وابتعاداً
عن الفضيلة الراسخة ، والسلوك القويم .

يقول ما كولى : — « إن خير معيار لخلق الرجل ، هي الأشياء التي يفعلها في خلوته حين يتأكد أنه لن يطلع على سره أحد . »

ويقول هوايتهد : — « الدين هو ما يصنعه المرء في خلوته . »

أجل ، إن الوحدة لتتضو عن الإنسان ما يستر حقيقة نفسه .

وهذا أجمل وأصدق تصوير للفضيلة . . فحين تكون وحدك .

لاسلطان لأحد عليك ، تبرز حقيقتك ، وتظهر كل خفاياك . . وإذا كنت

خبث الطوية فأن مسرح الواقع يموج بمواهبك الشريرة التي ستنتطلق

ساعية كحيات وأفاعى انطلقت من جراب حاو أو ساحر . . ويذهب

عنك الانسان الذي يتصعب فضيلة ، ويخر بالود للناس ، والغيرة على

الحق ، ويتجلى شخصك الطبيعي الذي صنعتته القوة ، وأمنت ضراوته . .

إن هذا الذي نستطيع أن نقينه في أنفسنا حين نخلو بها ، . . وحين

نذكر في نفعية ، وغش وأنانية . . ليكشف عن خيبة القوة وإخفاقها

في خلق الفرد الصالح والمجتمع الصالح . ذلك لأن القوة لا سلطان لها

على داخلنا ، وعلى ما في هذا الداخل من بواعث ورغبات . . بخلاف

الواجب الذي يدعم بنياننا من الداخل دعماً قوياً يحمي هيكلنا من أن

يقوض ويسوى بالتراب . .

حولنا بلاد تكافح السرقة . . كما تكافح الخطيئة الجنسية بالقتل وغيره . .

ومع هذا فالرذائل الخلقية هناك نشاط هائل لا يكف عن الحركة ،

ولا يفتر عن الارتكاب . . !

وفي بلاد أخ كسويسرا ، أو كالدايمرك . . لا تبتز الأيدي ،

ولا ترجم الزاني بالحجارة حتى يهلك ويموت . . بل ولا تنظر للرذائل إلا

نظرتها إلى مرض يعالج في رفق وأناة .. نحمد الفضيلة مترعرة ، يملأ الأفق غيرها ، ويضيئه سناها ..

حدثني أستاذ ثقته كان في « لندن » بعد الحرب الماضية وغشيت البلاد أزمة فحم خائفة . وطلبت الحكومة من الناس أن يكفوا عن استعمال الفحم ثلاث ساعات كل يوم حددت ميقاتها .. وفي هذا الوقت من كل يوم لم يكن بين سكان « لندن » جميعاً من يخالف رغبة الحكومة . ولقد حاول صاحبنا أن يتأكد من هذا ؛ فكان يعتمد زيارة بعض معارفه من الانجليز خلال تلك الساعات .. وحين كشف أحد الانجليز بعمله هذا ، ضحك وقال له : لقد أتعبت نفسك . إن الشعب الانجليزي يحترم القانون، لأنه قانون . بل لأنه كلمته ... هو يقولها ، وهو ينفذها وحين يقولها لا يقولها اعتسافاً أو اعتباطاً ، بل يستمدّها من الضرورات العادلة لمجتمعه . فتأخذ صفة الواجب . وحين ينفذها يستبعد نهائياً كلمة « صعب » ..

وحدثني نفس الأستاذ أنه يوم نزل « لندن » لأول مرة طالباً في إحدى جامعاتها ، أعطى ملابسه للكواء .. وفي اليوم الثاني فوجيء حين عاد إلى منزله بلفافة كبيرة موضوعة أمام باب المنزل على الطريق العام .. واقترب منها فوجد بداخلها ملابسه .. ومن ذلك اليوم علم أن مثل هذا العمل شيء عادي هناك وليس ثمت من تسول له نفسه خيانة مثل هذه الأمانات مهما يطلن مكثها أمام الباب .. ليس هناك مشائق للمذنبين ، ولا سجون تغص بأدوات التعذيب . ولا قوانين يتجشأها في إسراف مجتمع مبطون ..

ولكن هناك أمة عشقت الحرية وتشبثت بها ، كما لم يتشبث بها أحد .. وولأوها العريق للحرية ملأ روعها ووعيا بصوت الواجب .. الواجب الذى تمليه ضرورات عادلة تتمثل فيها مصالح الأمة والجماعة .. ومن ثم يكون واجباً أخلاقياً نبيلاً . لا ذلك الذى تمليه مخاوف طغيان باغ أو تقاليد مجتمع متخلف ..

فى كتاب «الأخلاق بلا إزام ولا جزاء» يحدثنا المؤلف عن طفلة فرنسية ، أعطتها أمها قرشاً لتشتري شيئاً للمنزل . وإذ هى تعبر الطريق دهمتها سيارة ألقت بها على الأرض وأصابها بجروح . واحتوى الطفلة إغماء طويل بيد أنها ظلت قابضة على القرش فى حركة عصبية عنيدة .. ولما أفاقت ، وجراحها تنزف ، وجدت أمها أمامها ، ففتحت يدها للمقبوضة وبسطتها إلى أمها تناولها « القرش » قائلة :

— قرشك يا أمى .. لم أضيعه .. ١١

يقول العلامة « جويو » معلقاً على هذه الواقعة الرائعة « لقد كانت الحياة عند الطفلة أدنى قيمة من القرش الذى أوتمنت عليه » .. ومنذ عام شهدت القاهرة واقعة مماثلة ..

ضابط بوليس مصرى ذهب يحمل حقيبة بها — خمسة وثلاثون ألفاً من الجنيهات — ليضبط بها عصابة تهريب .. كان الموعد بينه وبين العصابة فى منزل رئيسها . وذهب ومعه واحد من رجاله .. ووقفت القوة بعيداً عن البيت ..

وداخل البيت ، قدم لها « كوبان من الشاي » ما إن ذاق الضابط منه رشفتين حتى ذاق فيه طعم الغدر فقد مزجته العصابة بمخدر ..

وأدرك أنه أحيط به وبرجله الذى معه . والذى ألقاه المخدر كجثة
هامدة بعد أن تجمرع (فنجان الشاى) فى سرعة وهو يقول —
ما أشبهاء .. ١١٩ !

وطلب الضابط من أفراد العصابة وكانوا أربعة أن يفتحوا باب الشقة
وهنا أسفروا عن مكرهم وطلبوا اليه أن يسلم المال الذى معه فى هدوء
أو فليكن الموت له

ونسى الفتى نفسه ، وذكر واجبه ورجع إلى الورا خطوتين حيث
احتفى بمائدة الطعام التى فى البهو . وتبادل مع العصابة الرصاص ..
كان وحيداً بينهم ، والقوة هناك لا تسمع شيئاً ولا تبصر . وتشبث
بمخفية النقود فى استبسال جنونى .. وبدلاً من أن يحمى صدره بها ،
حماها بصدرة .. ١١٠

وهدهاه ذكاؤه فمزق زجاج النافذة برصاصة . نقل دويها نبأ المعركة
للقوة المرابطة فى الخارج .

وهاجمت القوة المكان وخرج الضابط يتهاوى ويترنح .
وفوق السلم قابله رئيسه يسأله فى هلع — هل أصابك مكروه .. ؟؟
بيد أن الفتى لم يكن هناك فى ذاكرته وعلى لسانه سوى عبارة
واحدة هى :

— تفضل فلوسكم ... لم يضع منها شيئاً .. ١١٠
نفس الكلمات والحروف التى قالتها طفلة فرنسية منذ عشرين عاماً
فى موقف مماثل .. ١١٠

لماذا .. ؟
لم تكن الطفلة هى التى صمدت وتكلمت ، ولم يكن الضابط هو

الذى صمد وتكلم .. بل كان شيئاً آخر حل فيهما .
ولو تعدّد المشهد في آلاف الرجال والنساء وكان هذا الشيء حلاً
في ذواتهم ومقياً . ، لرأينا نفس الصورة ، ولسمعنا نفس الكلمات ..
أما ذلك الشيء فليس سوى .. الواجب .
الآن رحلتنا إلى الكمال الانساني لتبدأ من إيماننا بالواجب ، واعتمادنا
عليه ، والتبشير به ، والتوصل لأقراره في النفوس بكل سبيل مستطاع .
والآن ، لنحاول معاً أن نبو العلة الأساسية التي تعرقل نمو الواجب
فيها .. وأن نصطنع النهج الحق الذي يأخذ بأيدينا إلى حيث نريد .
إن الذي في أقصى ذواتنا من إذعان للقوة وإيثار لها لم يكن ثمرة
الطغيان السياسي وحده . بل لقد امتزج ذلك الطغيان بعامل آخر كان
له خطره البعيد .. ذلك العامل هو « الهيمنة الدينية » ..

فماذا نغني بالهيمنة الدينية . . ؟

سنجيب .. ولحسن دعونا قبل هذا نخبركم أن السلوك الانساني اليوم
يناديه رائدان أخلاقيان ، يلتقيان حيناً ، ويفترقان أحياناً ..
ذلكا الرائدان هما : الأخلاق الدينية .. وأخلاق المدنية ..

ونعني بالمدنية ، الحضارة والارتقاء ..

فمع أي هذين الرائدتين نمضي . . ؟

سنمضي — طبعاً — مع أكثرهما استهجاناً للقوة والهيمنة والقسر ..

سنمضي مع أقربهما للواجب وأكثرهما حفاوة بنا ، وحناناً علينا ،

وإدراكاً لحقيقة المشكلة التي نعانيها . . ؟

أجل . مع أكثرهما فهماً للحقيقة ، وتداوياً مع المستقبل

سنمضي .. فأيهما يكون . . ؟ ؟

أَخْلَاقُ الْمَدَنِيَّةِ ، أَهْدَى ...

« حين يفقد الحقيق ضرورته ، يصير
« غير حقيق .. والماضى والحاضر والمستقبل
« شوط واحد لانهائى ، تحقق الحياة به
« غرضها الأوحده . . . التقديم »

- قبل أن نبدأ :
- الأخلاق الدينية ، غير الدين
- خصائص الأخلاق الدينية
- فلنأكل آلهتنا ، ولنتحرر من القدر
- المدنية ، هى الدليل

قبل أنه نبدأ . . .

في كتابنا الأول « من هنا . . . نبدأ » تحدثنا في فصل « قومية الحكم » عن الحكومة الدينية ، ونقينا إمكان قيامها . . .
وفي كتاب « الديمقراطية . . . أبدا » تحدثنا في فصل « ديمقراطية التشريع » عن القوانين الدينية ، مؤكداً أنه لا يمكن أن تكون هناك قوانين دينية ، إلا بالقدر الذي يسمح بأن تكون هناك « كهرباء دينية » و « مواصلات دينية » . . . ١١
واليوم ، وفي هذا الفصل نناقش فكرة « الأخلاق الدينية » متوسلين بالفهم المستأني غير المتحيز لمعرفة حقيقتها . وهل استنفدت غرضها . أم لا يزال لها هدف تريده ، وواجب تبذله . . .
ودعوني أصرحكم ، أنني أسمع غمغمة استنكار وتذمر . وأسمع أيضاً ، همهمة سؤال يتحرك نحونا .
هذا السؤال يقول :

— إذا كنت قد نفيت عن الدين ، الحكومة الدينية ، والقوانين الدينية ، وتوشك اليوم أن تنفي الأخلاق الدينية . . . فماذا أبقى للدين إذن . ؟ ؟ وما هو . . . ؟ ؟ وما رسالته . . . ؟ ؟ ولماذا يبقى . . . ؟ ؟
وأعترف في صدق ، أنه سؤال عادل . . . بلغ من العدالة والجدارة حداً يجعل تقبله والأجابة عنه من حتميات الموقف الذي أؤتمنا على تبعاته . . .
موقف الدين يبحثون عن الحق دون أن يهربوا مما يجيء مع الحق من مشقة وخطر .

والجواب عن هذا السؤال . بسيط ببساطة الحقيقة . فنحن حين نفينا الحكومة الدينية ، لم نقل إن الدين ليس له رأى - أى رأى - فى شكل الحكومة . .

ومثل ذلك فى القوانين الدينية ، لم ننف أن يكون للدين توجيه فى إنشائها وتنظيمها . .

وإنما قلنا إن الدين لم يرسم شكلاً محدداً ومعيناً للحكومة بحيث إذا لم تقم الحكومات بهذا التصميم الخاص تصير حكومات لا دينية . . (١)
كما لم يبسط فى تفصيل كامل ، قوانين معينة اشترط الحكم بها والاحتكام إليها ، بحيث يصير العدول عنها إلحاداً وهرطقة . .

إذن ماذا فعل الدين . . ؟؟

لقد اكتفى بأن رسم الأطار الصالح للحكومة الصالحة ، فاختار نظام الشورى ، وهدى إليه قائلا « وأمرهم شورى بينهم » تاركاً للناس ممارسة التفاصيل وإبتكارها . كل أمة حسب ظروفها . ، وكل جيل حسب العصر الذى يعيش فيه . .

ولو فعل غير هذا ، لكان حجباً على المستقبل ، ولما استحق أن يكون ديناً . .

وسلك مع القوانين مسلكاً مشابهاً ؛ فاشترط أن تكون أداة لأرساء الحق والعدل . ، وهى لا تكون كذلك أبداً إذا تحجرت فى نصوص معينة . ولا بد لها إذا أرادت أن تصون الحق ، وترفع ثواء العدل أن

(١) راجع الفصل الثالث فى كتاب « من هنا . . نبدأ » .

تطوّر ، وتتغير ، بحيث تجيء دوماً استجابة صحيحة لمقتضيات العقل
الإنساني ومنطقه . ، وتلبية واعية لاحتياجات العصر ومشاكله . . .
وليس أدلّ على هذا من أن الإسلام نفسه أبقى على بعض قوانين
الجاهلية ، واستصحبها دون أن يغير منها شيئاً (١) .

وليس يعقل أبداً ، أن ينسخ الله بعض أحكامه المنزلة في القرآن ،
ويستجيب لمصالح الناس ؛ فيغير اليوم حكماً نزل البارحة . . ثم يحظر
عليهم بعد ألف وأربعمئة عام بالنسبة للأسلام ، وبعد ألف سنة بالنسبة
للمسيحية ، أن يطوروا القوانين ويغيروها حسب ما تمليه ضرورات
حياتهم النامية ، ومصالحهم المتغيرة . . .

ومثل هذا الذي قلناه عن الحكومة الدينية ، والقوانين الدينية . .
نقوله عن الأخلاق الدينية . .

فنحن لا نعي أن الدين قاتر الاهتمام بالفضيلة ، أو محذوف
الرعاية للأخلاق . .

ولا نعي أيضاً أنه فشل في إصلاح النفس البشرية وإرباء هداها . .
وإنما نعي ، أنه لم يلزم الناس بنهج أخلاقي متحجر . ولم يحدد الوسيلة
المفضية إلى مكارم الأخلاق . . وإنما أكد للناس أن الخير ، هو وصية
الله الخالدة . وأن الشرّ طريق الهالكين . ورفع أمام أعينهم من القيم
السامية ما هو جدير بتكريس الجهد البشري في سبيل بلوغه .

أما الوسائل التي نحقق بها جهدنا هذا ، ونبلغ بها قيمنا تلك ؛

(١) راجع الفصل الثاني من كتاب « الديمقراطية . . أبداً » .

فأمرها متروك للناس . يكييفونها حسب أزمانهم وعصورهم . . . وليس هناك إذن ما يمكن أن يسمى « أخلاقاً دينية » تحدد نوع الوسيلة ، وتختار للسلوك نهجاً واحداً لا تبديل له ولا تطوير فيه . . . ١١

ولو فرضنا - جدلاً - أن هذا النوع من الأخلاق وجد لنفسه مكاناً في الماضي . ؛ فهبات أن يجد له مكاناً اليوم . حيث يقود العقل قافلة التقدم في فطنة باهرة وعرفان للجميل . . جميل القوى الخيرة التي سبقته ، والدين على رأسها . والتي لا تزال تزجي للموكب نفحات تشد عزمه وتنش قواه . . .

أجل ، إن إنسان هذا العصر إنسان جديد . . خالق قيم ، ورائد حضارة . . وهو إذ يرفض أن يكون امتداداً أقيماً لسلفه ، يريد أن يكون امتداداً رأسياً صاعداً . . ولم يعد هدفه في الحياة أن يفلسفها ، بل أن يحياها . .

وليس هناك عبث أكثر من عبث الذين يحاولون أن يسلكوه في شكيمة . ويفرضوا عليه قيماً موروثة لم يمنحها عقله الحرّ جواز المرور . . . كان عمر بن عبد العزيز من خير الذين حملتهم الأرض فوق ظهرها ، فهما ، وعدلاً ، وزهداً . . ولقد كان له دعاء جدير بكل متدين صالح ورع أن يفقهه ويرتله . . .

كان الخليفة الصالح يدعو ربه ويقول :

« يا رب انفعني بعقلي . . واجعل ما أنا صائر إليه ، أهمّ إلى مما

أنا مذبر عنه . . . » ١١

أهناك حفاوة بالعقل ، وارتباط بالمستقبل أصدق من هذا ، سيما حين

يجي من رجل كعمر بن عبد العزيز الزاهد القانت الأواب . . ؟؟

إن الفلسفة اليوم تنأى عن وصف الانسان بأنه « كائن » . وتنعتة بأنه « صائر » إشارة إلى تطوره للتحرك أبدا . . فتأملوا في ضوء هذه اللفتة الفلسفية ، كلمة عمر بن عبد العزيز وهو يقول أجعل ما أنا « صائر » إليه ، أحب إلى مما أنا مدبر عنه . .

لست أعرف لطمة توقظ الغافلين الصالحين الذين يرون في « الصيرورة إلى أفضل » جنوحا وكفرا ، مثل هذه التي تأتيهم من رجل يجل عن النظر في طهره وصدقه وتقواه .

فلنسأل الله معه أن ينفعنا بعقولنا ، وأن يجعل اهتمامنا بالمستقبل أكثر من اهتمامنا بالماضي . .

بل لنستعمل نفسه كلمته ؛ فقد قال « أحب » ولم يقل « أكثر » والحق أن الدكاء المتألق في كلمة « أحب إلى » يزيد فتونا بصفاء هذا الرجل العظيم . فحاجتنا شديدة إلى تحويل قلوبنا عن الماضي إلى المستقبل . وبذل الكثير من حينا له . إننا نحب الماضي . . نحب القديم . . كما يحب المريض علته ، مؤثرا إياها على مرارة الدواء ومشاق الشفاء . .
نؤثر الماضي على المستقبل ، فرارا من تبعات الانتقال التي تتطلب أول ما تتطلب تغييرا في عالمنا العقلي . .

من أجل هذا تعظم حاجتنا إلى تحويل مودتنا وحبنا للمستقبل . .
الذي نحن صائرون إليه . .

إن وصل الأمة — أى أمة — بالتقدم الإنسانى رهن بطبيعة الموقف الذى تقفه بين الماضى ، والمستقبل ..

ونحن كقوم نحاول أن نكون راشدين ، علينا ألا نهدم الماضى ، وفى نفس الوقت علينا ألا نرتبط به بل نتخذه وسيلة ومورداً لمستقبل متطور وحياة متقدمة نامية .

أما الذين يريدون لنا أن نحكم من وراء القبور نجد خاطئين — وإنهم ليستطيعون أن يروا أنفسهم ، ويطالعوا عاقبة أمرهم والمصير . إذا هم شاهدوا أسطورة «السيد الكبير» فى فيلم « طريق الأفيال » ١١٠٠ .
لقد كان «السيد الكبير» يتحكم فى الحياة وفى الأحياء من قبره ، بنفس القوة التى كان يتحكم بها حياً .

وكان أكثر الناس إذعائاً لداكره ، وانهاراً بالماضى وتعبداً له ذلك الذى يدعى « أبوهاى » .

إنه صورة حية لعبيد للماضى وسدنة التقاليد .. ويوم زحفت الأفيال كمد المحيط على القصر الذى تحداها به « السيد الكبير » وقطع به طريق اللاء .. جاء « أبوهاى » مستطار اللب ، مفزع الفؤاد إذ رآها تسحق قبر سيده سحقاً . وهم ليحتمى رفاقته .. فتقدم إليه فيل متواضع ، والتقظه بنحوظومه . ثم طوح به إلى منيته كأنه بعوضة .. ١١٠٠

هكذا يفعل التقدم بكل من يقف زحفه ، ويتخذ من الماضى قبلته وإمامه .

إن الحياة تجتذ وصعود مستمرين .. وكل حقيقى فيها يتحول إلى

النقيض حين يفقد ضرورته .. والماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، تقسيم
وضعى ونسبى ليس أكثر .

والزمان فى نظر الحياة ، ليس سوى شوط واحد لانهائى تريد أن
تحقق به غرضها الأوحد .. ألا وهو التقدم ..

فالتحيز الماضى عمل يرفضه الماضى نفسه ، لأنه يفقد وجوده
وموضوعيته ، فى نفس اللحظة التى نعزله فيها عن حاضر الزمان ومستقبله
كما أن وجود المستقبل ، والتبرم بفضائل العصر ومنهاجه . يعتبران من
فورهما ، جحوداً للماضى وإنكاراً لفضائله وتعاليمه .. لأن ذلك الماضى
نفسه ، كان يوماً ما ، حاضراً ، ومستقبلاً . وكان الولاء لتعاليمه الجديدة
مروفاً وإلحاداً .

وما أصدق الشاعر الذى قال :

قل لمن لا يرى للعاصر شيئاً — ويرى للأوائل التقديماً
إن ذاك القديم كان جديداً — وسيضحى هذا الجديد قديماً .

وإذا كان التعاون مع التطور ، والاتجاه صوب المستقبل لازمين
لتحقيق أغراض الحياة كافة . ؛ فهما أكثر جسمية ولزوماً لتحقيق غرضها
الأخلاقى .. لأن التطور والمستقبل ، يعنيان المدنية والتقدم :

والمدنية كما سنرى خلال الصفحات القادمة ضرورة للأخلاق . بل
هى الفضيلة ، وهى الأخلاق . إنها تنمى كافة مصادر السلوك من عقل ،
وشعور ، وإرادة . وتنقل الإنسان بوسائلها الكثيرة المجدية من الفردية

والعزلة اللتين ترعرعان الشهوات الضالة إلى الغيرية التي تحول اللذة الشخصية إلى وجدان عام يتحرك داخل موكب خير ، يستهدف خيراً مشتركاً .

وإنه لمن الخير أن ندرك حقيقة هامة — هي أن الدين في كافة أزيائه .. اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام . إنما انتصر ورسخ وفتحت له القلوب ، لأنه كان في أيامه الأولى يمثل مدنية جديدة . ، مدنية أخلاقية على الأقل .. وإن المرسلين عليهم السلام لم يتوج كفاحهم ضد خصومهم العتاة بالفوز ، إلا لأنهم كانوا يمثلون طلائع المستقبل والقدر . ، بينما شد خصومهم إلى الوراء بسلاسل وثيقة من حرص مشثوم على تقاليد عفاة ، وتعصب ذميم لجهالات راسخة ، وتطلع مسعور إلى مغنم باطلة ..

أجل . لقد كان موسى دعوة المستقبل والتقدم إلى فرعون ..

ألم يناد ببشريته بدل ألوهيته ؟؟..

ألم يلخص أمر إرساله موضوع رسالته التقدمية .. ، حين قال الله له

« اذهب إلى فرعون إنه طغى » ؟؟..

ألم تكن مناضلة الرجعية السياسية المتمثلة في فرعون ، والرجعية الاقتصادية المتمثلة في قارون عملا من أعمال التقدم الأنساني ، والحضارة

الزاحفة ؟؟..

أليست مدنية فاضلة ، هذه التي قالت في ذلك اليوم البعيد جداً ، للطبقة الكادحة للعذبة (جئت لأحرركم من الرق ، وأجعلكم أئمة ،

وحكاما ، وأجعلكم الوارثين لملك فرعون . وأمكن اسمكم في الأرض .
لينظر الله كيف تعملون » ٢٢..

والسيح ٢٢..

لقد كان هو الآخر حين أهلّ يمثل مدينة أخلاقية .
استمعوا للحيثيات التي طالب رؤساء الكهنة « يلاطس » بأعدام
السيح من أجلها :

— « إننا وجدنا هذا يفسد الأمة .. ويقول للناس لا تعطوا الجزية
لقيصر . فإنه عدو الله وعدوكم ..

» إنه يهيج الشعب . ويعلم في كل مكان . مبتدئاً من الجليل
إلى هنا .

أليس الإنسان الذي يحمل هذه المبادئ ، ويقدم رأسه وحياته ثمناً
متواضعاً لها — رسول حضارة خلقية جديدة في أيامه تلك التي كاد الناس
فيها ينسون ما هي الفضيلة ٢٢..

وانظروا .. إن الدين يلحون في طلب صلبه وإعدامه هم الكهنة ..
رعاة مدينة آفلة أفسدها أصحابها وذووها .. هم رجال الدين يطالبون
برأس من جاء يحدد للدين ضوء الحجابي ، وشبابه الضامر . في تعاليم
جديدة ..

احفظوا هذه العبرة ، واذكروها ؛ كلما حرضكم على عداوة الفكر دجال ..
إن « يلاطس » يقول للكهنة : « كيف أقتله ، وأنا لم أجد فيه
علة واحدة . »

فيتراكم كخنازير تساق إلى الذبح .. ويصرخون :

— « اصلبه .. اصلبه .. إن أطلتته ؛ فلست محباً لقيصر » . ١١ .
باسم الدين دفع جسد المسيح إلى العذاب والموت .. وبكلمة من
رجال الدين وكهنته تماماً ، كما حدث لـ « جان دارك » وكما حدث لغيرها
من قبل ومن بعد .. وكما يحدث الآن بصورة مخففة عندما يقف بعض
المخلصين ليفصموا الأجزاء الميتة من ديانة قديمة . وليرصفوا بتضحياتهم
العذبة طريق التقدم البار .

وتغادر المسيح لمحمد ...

ألم يكن أيضاً رسول التقدم والمستقبل ؟؟ ذلك العظيم الفذ الذي
أعلن ملء عزمه و يقينه ، الأله الواحد .. الذي ليس هو من خشب ،
ولا من ذهب ، ولا من حجارة . ، والذي ليس له قاعة عرش . وليس
له في الأرض كلها حامل أختام « ١١ » والذي ليس سوى إرادة واعية .
منبثة في السكون .

اصمعه وهو يسأل من أصحابه : يا رسول الله كيف رأيت ربك .. ؟؟

فيجيهم : نور أنى أراه . ١١ .

أى تحرير للعقل . ؟ أى إفساح للمعرفة . ؟

ثم أى تقديس للمدينة والمستقبل ، حين يقول عليه الصلاة والسلام .
« سيساق منكم إلى العذاب يوم القيامة أناس .. وأنهمض لأشفع لهم ..
فينهاني ربي ويقول لى : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك .. لقد كانوا
يمشون القهقري على أعقابهم .. فأقول : سحقاً سحقاً ... »

لو أن الإسلام اختصر في هذا الحديث وحده .. هذا الحديث ولا شيء
معه . . لكفل له البقاء ما دام هناك حياة . فهذا هو دستور الحياة

الحالة : لا تسيروا القهقري ، فليس وراءكم سوى أرض منهوكة منزوفة .
ولكن امضوا إلى الأمام .. وإلى الأمام دوماً حيث «اللانهاي» في انتظاركم ..
— كانت الأديان إذن تمثل مدنيات أخلاقية في أوانها ..

ترى ، هل لا تزال كذلك ؟ ؟

أخشى إذا قلت : نعم ، أن أكون قد خدعتكم .. وإذا قلت لا : ،
أن أكون قد كذبتكم . فالموضوع — في رأينا — أضخم من أن يفصل
فيه بكلمات سريعة وعجلى .. وأتم تعلمون أننا نعقد هذا الفصل من
الكتاب لا لتحدث عن الدين ، بل عن الأخلاق الدينية .. وهي كما
سترون الآن ، شيء مختلف عن الدين تماماً .

أما الدين ، كوحى ، ومنهاج أساسى يريد أن يظل ممسكاً ببعض
الزمام . ، فأنا متفق مع نفسى أن يكون لى فى هذا الموضوع بحث خاص
أرجو الله أن يوفقنى إليه . ويجمعنى بالحقيقة خلاله .. أما هنا فحسبنا
أن ندير خواطرنا على الأخلاق الدينية كمشكلة من مشا كل السلوك
الإنسانى .

والآن ننتقل إلى نقطة تالية ، لننظر . هل الأخلاق الدينية هي الدين .
أم لا .. ولماذا .. ؟ ؟

الأخلاق الدينية غير الدين :

منبداً حديثنا هذا ملاحظين أن البيئات التى بدأت فيها وانطلقت .
منها ، اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام — كانت بيئات متخلفة تتمتع بحظ
كبير واف من الجهل ، والجمود ، والعزلة .. فلم يكن من الطبيعى «

والأمر كذلك أن يختص الدين بدعوته ، العقيدة وحدها . . بل لا بد من أن يعاون هؤلاء العزل من المعرفة ، ومن العزم ، على ترقية أحوالهم ، وتهذيب سلوكهم . ومن هنا كان الدين يعنى بالعقيدة التى جاء يثبها . ، وبمصالح الجماعة للعيشية . ، ثم بأخلاقها وسلوكها ..

وانترك العقيدة جانباً ، لنرى ظاهرة قيمة . هى أن كل دين من الأديان الثلاثة ، كان يعالج مصالح الجماعة التى ظهر فيها ، وأخلاقها بأسلوب ملائم لظروف الجماعة وعرفها ...

وقبل أن نستخلص من هذه الظاهرة نتيجة ما ، دعونا أنضرب لها مثلاً .

كان لنساء بنى إسرائيل فى الدهر الأول عادة شاذة يستعملنها فى العراق فكانت الواحدة منهن إذا رأت رجلاً يشتجر مع أخيها ، أو زوجها ، أو ابنها ، تهب لنجدته . فتهاجم على خصمها ، وتقبض يدها فى ضغط على « خصيته » حتى يهلك ، أو يستسلم ..؟؟

فكان لا بد أن يهذب الدين هذا السلوك الشاذ الفاسد ، فكانت الآية الحادية عشرة من الأصحاح الخامس والعشرين فى سفر التثنية .
والى تقول :

— « إذا تخاصم رجلان . بعضهما بعضاً . رجل وأخوه ، وتقدمت امرأة أحدهما لكى تخلص رجلها من يد ضاربه ومدت يدها وأمسكت بعورته (؟) فاقطع يدها ولا تشفق عينك » ...

وأيضا كانت ظروف إسرائيل ، ومغامراتهم الحربية « فى أرض سيحون ملك الأموريين ، وأرض عوج ملك باشان » كانت ظروفهم

في تلك الأيام تدعوهم للتسكّاث والانطواء على أنفسهم . وخلق مجتمع
عنصري لا يفتح بابه لسواهم . . فجاءت تعاليم موسى عليه السلام من
المبالغة بحيث تصوغ سلوك الناس هناك وفق هذه الحاجة فقال في الآيات
الأولى من الأصحاح المذكور :

— « إذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن ، فلا تصر
امراً للميت إلى خارج لرجل أجنبي . .

« أخوزوجها يدخل عليها ، ويتخذها لنفسه زوجة ، ويقوم لها
بواجب أخى الزوج . . والبكر الذى تلده يقوم باسم أخيه الميت
لئلا يمحي اسمه من إسرائيل . .

« وإذا لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه ، تصعد امرأة أخيه
إلى الباب ، إلى الشيوخ . وتقول : قد أبى أخوزوجى أن يقيم لأخيه
اسماً فى إسرائيل . لم يشأ أن يقوم لى بواجب أخى الزوج . .

« فيدعوه شيوخ مدينته ، ويتكلمون معه . فأن أصر ، وقال
لا أرضى أن أتخذها ، تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ ، وتخلع
نعله من رجله وتبصق فى وجهه ، وتصرح وتقول ، هكذا يفعل بالرجل
الذى لا يبني بيت أخيه؛ فيدعى اسمه فى إسرائيل بيت مخلوع النعل » . . ١١

أرأيتم ؟! أيكم يود أن يكون مخلوع النعل . . ؟!

إن عيسى لم يفعل هذا ، ولم يأمر به . . ومحمد أيضاً . . فلماذا . . ؟ لأن
ظروف البيئة التى ظهر فيها لم تكن بحاجة إليه .

ومثل آخر ، قد يكون أكثر إيضاحاً .. فالتوراة ترسم أخلاق الحرب في قسوة لا يحتملها ضمير بشر . ١١
فانظر ما ذا كانت تقول لليهود وهم يحاربون الحثيين ، والأموريين ،
والكنعانيين :

— « .. تهدمون مذابحهم ، وتسكرون أنصابهم ، وتقطعون
شواربهم ، وتحرقون تماثيلهم بالنار ..

» لا تقطع لهم عهداً ، ولا تشفق عليهم ..
وتأمرهم أن يدمروا في « أريحا » كل شيء ، ويقتلوا جميع ما فيها ،
ومن فيها من إنسان وحيوان وطيور ..

فهل من الخير ، أن تنادى اليوم بأخلاق الحرب هذه ، لأنها كانت
يوماً ما أخلاقاً دينية ، ووصايا رسول ، وكتاب مقدس .. ؟؟
فإذا أردنا مثلاً من تعاليم المسيح وجدنا شيئاً مغايراً .. إن الظروف
التي كانت تجعل سلفه موسى يؤجج كل شيء حتى الكلمات ناراً وسعيراً ،
لا وجود لها ، وطبيعة الداعي هنا وهو المسيح ، مختلفة عن طبيعة الداعي
هناك ، وهو موسى ..

والتكليف الأخلاقي للسلوك كان في أيام موسى مشعباً بروح الحقد
والمقت والمغالاة ، أما هنا ، « فباركوا لاعنيكم وأجبوا مبغضكم » .
من أجل هذا نلتقي داخل إهاب يسوع بأنسان عذب رقيق ،
أقصى ما تبلغه انفعالاته من عنف وحدة ، لا يتمثل في غير قوله « يا أولاد
الأفاعي » ١١ ..

نلتقي بالمسيح وهو يفتح ملكوت الله « للخطائين والزواني » ..

هل تتصورون هذا . . ؟؟ نعم ، ففي موعظته لحجاج الهيكل وقف يقول :

— الحق أقول لكم ، إن الخطائين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله ، لأن يحيى جاءكم بالحق ؛ فلم تؤمنوا له ..

ومع هذا ، فلا نستطيع أن نجعل الأخلاق الدينية في شريعة المسيح ، أخلاقاً لعصرنا هذا ، أو على الأقل ، لانستطيع أن نتخذ بعضها كذلك .. إنه يرى النظر إلى وجه المرأة والفتاة ، التي هي اليوم زميلتك في الجامعة ، أو في العمل ، أو في الطريق .. يرى النظرة المشتهية إليها زنا .. « فأَنْ كانت عينك اليمنى تعثرُ فاقطعها » .. ١

« وإن كانت يداك اليمنى تعثرُ فاقطعها » .. ١١

وعثرة العين النظر ، وعثرة العين في هذا المقام اللبس ونخشى أن تكون المصاحفة ..

ولا تزوج امرأة مطلقة ، ولو أعجبتك ، لأن « من يتزوج مطلقة فإنه يزني » .. ١١

« ومن لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضا . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فأتارك له الرداء أيضا » .. ١١

والحياة عبث ، ومباهجها لغو ، والمال شر والأنسان لا يقدر أن يخدم الله والمال ..

« لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون » .

والمستقبل فناء وعدم .. فاطلبوا « ملكوت الله وبره » ، ولا تهتموا

للغد . لأن الغد يهتم بما لنفسه ويكفى اليوم شره » .. ١١
وأنعم الحياة ، وتيسيرات الحضارة ترف يحرم أصحابه من الجنة ومن
ملكوت السماء فمن كان يريد الفردوس « نخبز الشعير والنوم في المزابل
مع الكلاب كثير » .. ١١

أجل ، هكذا يقول المسيح ، وهكذا يريد .. فهل تسمح ظروفنا
المائلة ، ونمونا العقلي والاجتماعي لمثل هذه الأخلاق الدينية أن تكون
واقعية . وأن يصاغ منها اليوم سلوك حتى : ؟؟

إن الاقتصاد والادخار من يوم نجد فيه ، ليوم قد لا نجد فيه .. يقف
على رأس فضائل عصرنا . بل ضروراته .. فهل نأخذ بهذه الفضيلة
أم نطرحها ونحمل فضيلة « العراء » التي يدعونا إليها المسيح فيقول :
« لا تفتنوا ذهبا ، ولا فضة ، ولا نحاسا في مناطقكم ، ولا مزودا
للطريق ولا ثوبين ، ولا أخذية ، ولا عصا » .. ١٢

إن المسيح وحده بما أودعه الله فيه من شموخ الروح ، وصلابة
الأرادة ، وربانية الرغبة .. هو وحده يستطيع أن يصوغ سلوكه وفق
تعاليمه هذه .. أما بقية الناس ، فلا ..

ونغادر المسيح إلى محمد عليه السلام لنأخذ أيضا منه مثلا ..
والحق أن الرسول أكثر واقعية .. والحق أيضا أنه كما وصفه ربه
« على خلق عظيم » شأن إخوانه المرسلين جميعا الذين اصطفاهم الله
واختارهم . بيد أن هذا لا ينفي أن بين تعاليمه أخلاقا كانت تلائم
روح العصر الذي ذهب . وهي اليوم أبعد ما تكون عن ملائمة عصرنا
ونحن نبادر ، فنحذر الدين قد ينكرون علينا وضع تباين العصور

موضع الاعتبار ، نعم نحذرهم ، لأنهم بأنكارهم هذا يزفون أنفسهم إلى موقف ذميم لا يطيقون تبعاته .

ذلك أننا سنسألهم : إذا لم يكن لاختلاف الأزمنة ، وتباين العصور شأن ؛ فلماذا أرسل الله موسى ، ولم يكتف بالذين سبقوه من الأنبياء والمرسلين . . ؟ ولماذا جاء المسيح بعد موسى مكملًا ناموسه ومنهاجه . . ؟ ثم لماذا لم يكتف الله بهذا ؟ فأرسل محمدا . . ؟ ؟

أليس ذلك احترامًا من الله ذاته للشيء الذى تنكرون علينا احترامه . . وهو تباين الزمان والعصر . . وبكلمة واحدة — التطور . . ؟ ؟

ولقد تسألون بدوركم : لماذا لم يرسل الله بعد محمد أحدا . . ؟ ؟ وعلى الرغم من أن هذا السؤال لا يفيدكم فيما نحن بصدده ، نجيبكم قائلين : لسبب بسيط جدا . هو أن العقل الإنسانى ، والحضارة البشرية ، بلغا من السمو والتفوق ما يجعلهما جديرين بالسير وحدهما مكتفيين من التجربة الدينية بما حققه موسى وعيسى ومحمد ، وإخوانهم الذين سبقوهم بإيمان .

لسائل أن يسأل ويقول : إن الدين يدعو لمكارم الأخلاق جميعا ، مثل الصدق والأمانة ، والشجاعة ، والعفة ، والوفاء ، وغير هذه من الفضائل . ، وهى كلها أخلاق دينية . . فهل نفهم من حديثك عن الأخلاق الدينية ، أن يتخلى الناس عن الصدق ، والعفة ، والشجاعة ، والأمانة ، وبقية الفضائل التى حث الدين جميعه عليها . . ؟ ؟

وجوابنا ، أن الصدق والأمانة والشجاعة إلى آخر ما ذكرنا ، ليست أخلاقا دينية . . بل أخلاقا إنسانية . . عرفها الإنسان قبل أن يعرف

الدين . وعلى أرضنا وفي عصرنا هذا ملايين من البشر لا دين لهم . ومع هذا فهم يعلمون أن الصدق والأمانة والعفة والسخاء فضائل . ولو أننا أخذنا مائة رضيع ، ونشأنهم بعيداً عن المجتمع الإنساني بمؤثراته من دين ومعرفة ، لتعلموا عن طريق التجربة جدوى هذه الفضائل وحتمتها . فدور الدين إذن في هذه المسئلة لم يتجاوز الحث والتزكية .. وهو دور عظيم جد عظيم . أجل ، إن الوحي لا يثبت للأفعال قيمتها .. بل يخير عنها فقط .. ثم إننا نلح في أن تفهم وجهة نظرنا في الموضوع على وجهها الصحيح فنحن لا نرفض الأخلاق الدينية ، بل نحدد صلتها بالدين . حتى إذا علمنا أنها ليست من عقائده التي يلحد منكرها ، زالت وطأتها المقدسة عنا ، وبهذا نستطيع أن نتقبل منها ما يسير العصر ، وننحى ما استنفذ غرضه ، وقد صلاحته .

وكذلك ، لا نتحدث عن مفردات الفضائل كالصدق ، والشجاعة والأمانة .. بل نحاول نظرة أكثر عمقاً ، وأبعد غوراً

أجل ، إن الذي يهمنا قبل سواه ، هي المعايير الخلقية التي تنتظم في اهتمام وعناية — الباعث الأخلاقي .. والوسيلة الخلقية ..

فالأخلاق الدينية مثلاً — قد ترى الطريق إلى فضيلة العفة ، الانفصال فلا ترى المرأة رجلاً ، ولا يراها رجل ..

ولربما كانت هذه الوسيلة أكثر إجداء من غيرها في العصور السالفة . أما اليوم ؛ فأخلاق المدنية ترى ، بل تؤكد ، أن الوسيلة المجدية لعفة صادقة ودائمة هي ، الاختلاط ... الاختلاط الهادف إلى إنشاء زمالة مؤنسة فاضلة بين الجنسين ، المرأة والرجل ..

فبأى النظرتين نأخذ .. ؟

إن هذا المثال يكشف عن ضرورة الاعتماد على أخلاق المدنية ، سيما وقد رأينا أن الأخلاق الدينية كانت تستلهم احتياجات البيئة ، وظروفها واستعدادها .. فلماذا نحظر اليوم على أنفسنا ذلك الذى أيسح بالأمس بغيرنا ؟ .

لنفهم هذا جيداً ، . إننا لا نستطيع أن نكون أخلاقيين حتى نعيش في زماننا .. .

وإن الدين لا يعنيه إلا أن يعيش الناس عيشة صالحة . وأن يرتفعوا بأنفسهم ، وبفضائلهم إلى الكمال الميسور .. أما وسيلتهم لهذا ؛ فلا يمكن أبداً أن تتحجر في نص ، أو أن تحتبس في منهاج .

إن الدين ينشد رعاية شاملة للخير ، وعزوفاً دائماً عن الشر .
ولقد وضعت المسيحية ذلك المبدأ حين قالت :

— « لا يغلبنك الشر » ، بل اغلب الشر بالخير » ووقف الإسلام نفس الموقف حين قال :

— « خالق الناس بخلق حسن ، فأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »
وعلىنا نحن . وعلى كل جيل من الناس أن يستمد من ظروف تطوره ، وإمكانيات حضارته ، الوسائل التى يغالب بها الشر ، ويخالق الآخرين بأحسن الأخلاق ،

وعندئذ نحقق مشيئة الدين ، وإن لم نحقق مشيئة الأخلاق الدينية ..
فالأخلاق فى الدين مبدأ ، وفكرة .. وهى فى الأخلاق الدينية سلوك ومنهج .

فإذا أراد الدين عفة . . وحددت الأخلاق الدينية طريقها بالفرار من المرأة ، وإلزامها قعر دارها . . فأن موقفنا يتمثل في أننا ننفذ مشيئة الدين ؛ فنؤثر العفة . . ثم نختار الوسيلة الناجعة ، والملائمة لسنن تطورتنا وتقدمنا وتجاربنا . وهنا نجد أنفسنا معرضين عن الأخلاق الدينية باسم الواجب ، وباسم الفضيلة ، بل وباسم الدين ذاته . . وسائر في زمالة الأخلاق الحضارية التي امتحنت الأشياء وقلبت وجوه النظر ، ثم جاءتنا تعلن في ثقة أن الانفصال بين الجنسين أقرب الطرق لكافة الرذائل الجنسية التي عرفها الإنسان من عهد الغابة حتى اليوم . . وأن الاختلاط سبيل قويم لفضائل الجنس ، وفضائل النفس (١) .

وهنا يتقدم إلينا سؤال آخر يقول :

— إذا أخذنا بوجهة نظرك التي سلفت ، فماذا يكون موقفنا من الوحي الذي حدد الوسائل واختار البواعث . ؟ ؟

وبعبارة أخرى : إن الدين هو الذي اختار الانفصال بين الجنسين كوسيلة للعفة والبعد عن مواطن الزلل والرذيلة . فإذا آثرنا اليوم وسيلة مغايرة ومضادة لتلك التي اختارها الدين ونزل بها الوحي . ألا نكون مهرطقين وضلالاً ؟ ؟

والدين أيضاً اعتبر الحتان من فضائل العادة الممهدة لفضيلة العفة بالذات . . فإذا رأت أخلاق المدنية العكس ، وآثرناها . . ألا نكون عصاة مذنبين ؟ ؟

(١) يراجع ما كتبناه بإفاضة وإسهاب عن المجتمع الانفصالي والمجتمع الاختلاطي وعن الاختلاط والتربية الجنسية في كتابنا « هذا . . أو الطوفان » .

ونجيب ، بأن الأخلاق الدينية تستمد غذاءها من مصادر ثلاثة .
- أولها - ، الدين الصحيح . أى التعاليم الصادقة التى نادى بها
الرسول ، ولم تنلها يد التبجريف والتزييف . .
- ثانيا - ، التعاليم المدخولة المدسوسة على الدين وليست منه .
وكلنا نعرف أن هناك عشرات الآلاف من الأحاديث المكذوبة الموضوعة .
نسبت إلى رسول الله عليه السلام زورا وبهتاناً . .
- ثالثها - ، التقاليد التى اختلطت بالحركة الدينية خلال تطورها
وفتوحاتها ، ودخول الأمم والجماعات فيها ، سواء فى المسيحية أو فى الإسلام . .
فأما مصدرها الأول ؟ فهو وحده الجدير باحترامنا . وموقفنا منه
ينبغي أن ينطوى على ما يستحقه من إعفاء وتوقير .
كيف . . ؟ ، وما السبيل . . ؟ ؟
قلنا من قبل ، إن ما يريده الدين بأصرار وحسم ، هو مزاملة الخير ،
ومقاطعة الشر . . وقلنا إن فى الدين جانباً لا يتغير . وكل تبديل فيه
يعتبر تسريحاً للدين وإنهاء له . . ذلك هو جانب العقيدة وما يلتحم بها
من فرائض العبادات . وفى الدين جانب آخر يخضع للتعديل والتطوير ،
هو جانب الفقه الذى ينظم للناس معيشتهم ، وسلوكهم . .
ولقد حدث كما ذكرنا من قبل ، أن الله ذاته غير فى القسم الثانى
وبدّل ، وهو العليم الخبير الذى يعلم ما كان وما سيكون . . والذى ليس
بحاجة إلى أن يضع علمه موضع التجربة والاختبار .
أليس ذلك أذ أن منه — سبحانه — إلى الناس كي يحسنوا تكيف
الشريعة وفق ظروفهم ، ومصالحهم ، واستعدادهم . ؟ ؟

أجل ، الأمر كذلك حقا . ولقد رأينا من كبار علماء الأسلام
وأكثرهم ورعا وتقوى من يقول : إذا تعارض النص من قرآن وسنة ،
مع المصلحة ، قدمت المصلحة على النص .. لأن النصوص إنما جاءت لرعاية
المصالح لا لتعطيلها . « ... !!

إذن ، فموقفنا من الأخلاق الدينية التي تركز على نص ديني صحيح
هو تفسير النص وتكييف وجهته بحيث يتواءم مع ضروراتنا التي يكشف
العلم والتطور عن حقيقتها ..

أما الأخلاق الدينية التي تستمد وجودها من المصدرين الآخرين —
الخرافة ، والتقاليد .. فمن البدهة أن ندرك مدى ما نسديه للدين ،
وللفضيلة من صنيع حين نحطمها ، ونسحقها ، ثم نذروها في الهواء ..
مرة أخرى أقول لكم : إن الدين يهتم بالاموضع لا بالشكل ، وبالمبدأ
لا بالتفاصيل ، خاصة حين يكون الأمر متصلا بشئون المجتمع والحياة ..
هذا هو المسيح يسأله رجل وهو يلقي موعظته :

— يا سيد ، قل لأخي يقاسمني الميراث .. فيجيبه يسوع :

— يا أنسان ، من أقامني عليك قاضيا ، وقاسما .. ؟؟

وهذا هو رسول الله محمد ، يقول لأمته :

— « إذا حدثتكم عن الله . فأني لا أ كذب على ربي . وإذا حدثتكم

بشيء من شئون الدنيا ، فأتم أعلم بشئون دنياكم » ..

والآن ، وقد نزعنا عن « الأخلاق الدينية » قداسها نريد أن نعرف

من خصائصها ما يجعلها جديرة بأن تترك مكانها — مشكورة — لأخلاق

أخرى جديدة ، أخلاق العلم ، والمدنية :

فصل في الأخلاق الدينية ..

• الأخلاق الدينية أمر مطلق ..

الأمور المطلقة ، ليست هي ما لا يناقش فحسب .. بل هي أيضا التي تبرز في غيبة أصحاب المصلحة الأولى في وضعها ..

فالدولة الفاشية ، أمر مطلق . بمعنى أن أوامرها فوق النقاش وإبداء الرأي . . . وبمعنى أن الدين يصطنعون هذه الأوامر ويبرمونهم ؛ ليسوا أصحاب الحق في إبرامها ، وهم أفراد الشعب وممثلوه في برلمان حر مريد . . .

والأخلاق الدينية ، كالفاشية ، أمر مطلق لا يناقش . وأيضاً لم يستشر فيه صاحب الحق الأول والمصلحة الأولى - وهو هنا ، الطبيعة الإنسانية . فللطبيعة الإنسانية حقوقها التي لا ينبغي أن تغفل أبداً عندما يراد انتهاج خطة لسلوك أصحابها (١) .

غير أن الأخلاق الدينية لم تعبأ بالإنسان ، ولا بطبيعته .
وأكد أسمع مهمة قوم يقولون : أليس الله خالق الإنسان ومصور طبيعته ، وهو أعلم بها وباحتياجاتها وبمصلحتها ؟؟

وأقول لهم : نعم ، ولكن لا تنسوا ما قلناه منذ قريب ، من أن الأخلاق الدينية بالمفهوم الذي ذكرنا ، ليست من عند الله . . . ولكنها

تكلّمنا عن حقوق الطبيعة الإنسانية واحتياجاتها في فصل « طبيعتنا الحرة . . .
أعلم » كتاب « هذا . . . أو الطوفان » .

ظاهرة اجتماعية تكونت خلال الأزمان من عناصر شتى .، وحين تناقشها ،
فنحن لا تناقش الله . .

نعود ؛ فنقول : إنها أمر مطلق ، تعتمد على الأوامر الناجز . وأخلاق
هذا شأنها لا تكون عوناً على الفضيلة والخير . . لماذا ؟ ، لأن الأوامر
والأكراه ، ينالان من الإرادة الإنسانية حتى يوهناها . . ونحن نعلم ،
أو ينبغي أن نعلم أن نصيينا من الفضيلة ، مساو لنصيينا من الشعور بقوة
إرادتنا ، وكما يقول العلامة « جويو » — « إننا حين نقوم بواجب
خلقى ، لا نفعل أكثر من الكشف عن حدود إرادتنا ، وقوتنا » .
إذن ، فكل تعويق للأرادة ، إساءة للفضيلة ذاتها ، والأوامر القاهر
تعويق ، أى تعويق . . . ! !

ولقد يسألنا سائل : ألم تدع للواجب كباعث قيمة . . ؟ . وأليس
الواجب إلزاما . . ؟

ونجيب بأن الواجب الذى دعونا إليه ، هو الواجب الأخلاقى .
فإلزامه سيكون أخلاقيا مثله . لأنه منطلق من الإرادة ، لا متسلط
عليها . . ثم إن الواجب الأخلاقى ليس أمرا مطلقا مقدسا . بل هو
فضيلة متطورة منبعثة من مدركات العصر ، وليس من أقاصى الغيب . .
ومثل هذا ، يقال عن الأوامر الطبيعى الذى ينطلق من طبيعتنا ،
ويدفعنا للواجب . . إنه هو الآخر مختلف عن الأوامر الهابط علينا
من الأخلاق الدينية . لأنه ، وهو جزء من طبيعتنا ، لن يكون مسيطرا
عليها . بل معين لها . .

ولكى يستبين الفارق أضرب لكم مثلا .

عندما تغزونا دولة أجنبية ، فأتنا نعتبر كل أوامرها وإلزاماتها
تسلطا يستحق التمرد . . .

فإذا قالت هذه الدولة ، لماذا لا تطيعون أوامري كما تطيعون أوامر
دولتكم . . ؟ يكون جوابنا : أن أوامر دولتنا ، أوامرنا نحن . لأنها منا ،
وإلينا . . أما أنت ، فقوة دخيلة متسلطة بغير حق . .

كذلك الالتزام المنبعث من طبيعتنا ، هو جزء منها ، جزء من دولة
هى نحن ، ونحن هى . . فلا يكون وطأة ثقيله على الإرادة . بل منها
لها بخلاف ذلك القادم من خارج ، فإنه يعطلها ، ويذلها . .

فأذا سئلنا : أليست أخلاق المدنية إلزاما بسلوك معين . . ؟ أحلنا
السائل على نفس الإجابة السالفة ، وزدناه بيانا قائلين : ان أخلاق
المدنية ، ليست أمرا مطلقا . وايسر لها قداسة لاهوتية تصد الناس
عن مناقشتها ، وتطويرها . . بل هى وليدة العصر ، وثمره التجربة
والعقل .

وليس يشفع للأخلاق الدينية ما قد نحسبه احتراماً للعقل تبذله
وتبديه . . فالدعوة إلى تحكيم العقل ، وإلى التفكير الحر ، غير مجدية
شيئا إذا كانت تنطوى على حرماننا من وسائل تحقيقها . .
وهل الأخلاق الدينية كذلك . .

نعم ، فهى باعتمادها على التحريم الدينى المقدس تسلبنى حق استعمال
العقل ، وفرصة التفكير الحر . . وهذا ينقلنا إلى خاصية أخرى
من خصائصها . .

• التحريم والتجريم ..

تعتمد الأخلاق الدينية على التحريم والتجريم اعتماداً غير صالح ..
فهي تحرم ما تشاء من ألوان السلوك . ثم تجرّم في غلظة من يرتكبون
محظوراتها ، وتسلسلهم في عداد المجرمين .. ١١

وإذا شئنا ضرب مثل يزيدنا اقتناعاً بوجود فارق شاسع بين الدين ،
والأخلاق الدينية . ؛ فهذه مناسبة طيبة للمثل المنشود ..
فالأخلاق الدينية ، تتخذ من التحريم للتواصل سوطاً تردع به الناس
عن الرذيلة . وإسرافها في التحريم مصحوب دائماً بتضخيم شأن الخطيئة ..
وهذا شيء نلاحظه ، عند كل دعاة الأخلاق الدينية كافة من وعاظ ،
وأئمة ، وكتاب ، ومؤلفين ، وشيوخ طرق ..

فهل الدين كذلك ؟ ..

أبداً . بل هو على النقيض عند من يحسن فهمه .
إن رجلاً يحبّ للرسول هلعاً مفرّجاً . من أجل ذنب ارتكبه .
فيسأله الرسول : هل شهدت معنا الصلاة . ؟ فيقول : نعم ..
فيقول له الرسول : إذن غفر الله لك . إن الحسنات يذهبن السيئات . ١١
بل أكثر من هذا يقول : « والذى نفس محمد بيده لو لم تذبوا
لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون ؛ فيغفر لهم » .. ١١
ماذا يفيد التحريم ما دام ليس له على بواعثنا الأخلاقية سلطان .. ؟
وماذا يفيد تجريمنا ، وتشويه أنفسنا أمام أنفسنا ، سوى الشعور
للقيت المذل باحتقار ذواتنا ، وسوى إشعال حرب أهلية بين المرء ونفسه

٠ أسلحتها اللوم ، والتفريع واليأس من التفوق والاكتمال . . . ؟ ؟
فهذا هو الطريق إلى مكارم الأخلاق . ١٢٢
على أن الأنصاف يقتضينا القول بأن الأخلاق الدينية في مسألة التحريم
هذه ، تعتمد على الدين في كثير من مظاهره - نعى مظاهر التحريم . .
بيد أنها مسئولة ، أو دعائها هم المسئولون عن عدم توجيه النصوص
المحرمة وجهة ترفع وطأتها عن الفضيلة والأخلاق ، وتمنع الخلط بين المسئلة
الأخلاقية ، وغيرها من أسباب ذلك التحريم . .
ونضرب لهذا مثلاً . .

ن الدين يحرم أكل لحم الخنزير . ويحرم ترك الصلاة . . ويحرم
التختم بالذهب على الرجال . . ويحرم شرب الخمر ، قليلها وكثيرها . .
وتجىء الأخلاق الدينية ؛ فتعطى هذا الحظر مفهوماً أخلاقياً ، وعله
أخلاقية . فتسئ إلى قضية الأخلاق إساءة كبيرة . .

ما علاقة لحم الخنزير بالفضيلة . . ؟
أليس يمكن أن يأكله إنسان في الصباح ، وفي المساء . ثم يكون
متحلياً بمكارم الأخلاق . صادقاً ، شجاعاً ، أميناً ، مستقيماً . . ؟ ؟
وأليس بين تارك الصلاة أناس فضلاء هم إلى الله والفضيلة أقرب
من بعض الذين يعانون الصلاة . . ؟ ؟
والخمر . . ؟ ؟

إن الأسراف في تعاطيها إلى حد العريضة ، هو الذي يجعل المسرف
غير أخلاقي . . أما الشرب الهين ، والتعاطى الوئيد . ما صلته بالأخلاق ؟
لا تحسبوا أنني أحرض على ترك الصلاة ، وتعاطى الخمر ، والتهام

شرائع التحذير . . . كما أن موضوع البحث ليس تحريم هذه الأشياء ،
أو عدم تحريمها . . . بل هو الكشف عن العيب الذي تقتضيه الأخلاق
الدينية حين تعطي كل تحريم ديني علة أخلاقية ، ومفهوماً أخلاقياً . .
وهو عيب نستطيع أن نلمح آثاره وعواقبه في رأينا العام الذي يقيس
أخلاق الناس بهذه التحريمات ، مما يسبب له ارتكاساً وخيماً في أحكامه
الفجة على الناس . . .

كان « أحمد ماهر » سياسياً نظيفاً ، وأخلاقياً ممتازاً . . . ومع
هذا ؛ فقد استطاع خصومه السياسيون إقناع العامة والجمهور ، بأنه
فاسد ومرذول .

أتدرون لماذا . . ؟

لأنه كان يشرب خمرآ . . . ويраهن على الخيل في حلبه السباق . . .
وفي هذه المثلية التافهة أغرقت فضائله الجليلة التي ينوء بحملها أولو
العزم من الرجال .

وفي كأس خمره الصغيرة ، تلاشت شجاعته الأدبية ، وإخلاصه الوطني
ونزاهته ، وحسن بلائه ، وذكاءه المتقد ، وإيمانه العميق .

أجل ، نسي العثماني كل هذا ، لرجل لا يمر طرازه بالجسار ،
إلا قليلاً . ولم يندكروا له . وعنه ، إلا أنه يشرب خمرآ . . . ويفشى حلبه
السباق (١١١) :

إن الأخلاق الدينية لا تعطي مفاهيم صحيحة متطورة للفضيلة ، والسلوك
القويم . وهذا يجعلها خطراً عليهما . . .

• إرهابية الباعث ، ورجعية الوسيلة :

وثالث خصائصها أنها تعتمد على باعث غير إنسانى ، وتهتدى بوسيلة غير متطورة ..

نحن نعلم ، أن أهم عناصر الفضيلة ، هو الباعث الذى يحفزنا إليها .. ولقد قلنا من قبل ، إن أعمالنا لا توصف بالحسن ، ولا بالقبح إلا تجاوزا . والذى ينعت بهما حقيقة هو الباعث على العمل . وضربنا لهذا مثلا — القتل .. فهو جريمة إذا كان الباعث عليه العدوان الشخصى للسلب ، أو الانتقام — وهو فضيلة إذا كان باعته الدفاع عن وطن ، أو حياة ..

وفى التربية الحديثة التى تقدمها لنا أخلاق المدنية والعصر ، نرى اهتماما واعياً بتطهير الباعث من الدعر والخوف .. بل ومن الرغبة أيضاً .. والاتجاه به نحو الواجب .. والأخلاق الدينية لا تستطيع أن تهبنا عوناً فى هذا السبيل .

إن باعثها يتمثل فى أمرين ..

الرجاء فى ثواب الله .. والخوف من عقابه ..

وطبيعة الناس أن يفعلوا بالخوف أكثر مما يفعلون بالرجاء ، الأمر الذى تحاول التربية الحديثة أن تصل إلى تقيضه ، والذى حققت فيه نجاحاً مبدئياً يبشر بنفوز عظيم .. ومن قديم الزمان ، حيث كانت الأخلاق الدينية تعمل فى الميدان وحدها . وحيث الناس القدامى يخافون أكثر مما يرجون .. ذهبت الأخلاق الدينية تصول وتجول مركزة . جل اهتمامها فى التخويف الشديد حتى صار هو باعثها للفضل ، وحافزها المحزب .

ولا بد من الاعتراف بأنها استمدت معظم خاماتها من الكتاب المقدس في المسيحية ، ومن القرآن والسنة في الإسلام .
ففى الكتاب المقدس نلتقى بآيات النذير والرعب .

— « ها أنذا ، جاعل كلامى فى فمك ناراً ، وهذا الشعب خطياً ،
فتأكلهم .. ها أنذا أجلب عليكم أمة . كلهم جبابرة يأكلون حصادك
وخبزك الذى يأكله بنوك وبناتك يأكلون غنمك وبقرك . يأكلون
جفنتك وتينتك . يهلكون بالسيف مدنك الحصينة ... إياى لا تخشون
يقول الرب ، ألا ترتعدون من وجهى .. »

إن التخويف هنا أقسى من التخويف بعذاب الآخرة لأنه آت فى
يوم قريب ..

« على بيت هكاريم ارفعوا علم نار ، لأن الشر أشرف من الشمال
وكسر عظيم ، الجميلة اللطيفة ابنة صهيون أهلكها ...
« الأشرار يبادون جميعاً ؛ وعقب الأشرار ينقطع » ..
« ويل لك يا كورزين .. ويل لك يا بيت صيدا ..
« وأنت يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء . ستهبطين فى الهاوية » ...
« .. قد اقترب منكم ملكوت الله . وأقول لكم إنه سيكون لسدوم
فى ذلك اليوم حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة » .

وفى القرآن نلتقى بآيات التخويف تسكاد تتأجج ..
« .. وذرنى والمكذبين أولى النعمة ؛ ومهلهم قليلاً .. إن لدينا
أنكالا وجحماً . وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً » ..
« كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » ..

« إن زلزلة الساعة شيء عظيم . . تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » . .

« خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فاسلكوه » . .

« إن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم . كالمهل يغلى في البطون . كغلي الحميم . . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم » . .

« من ورائه جهنم ، ويسقى من ماء صديد » . . ٢٢

« قوا أنفسكم وأهليكم نارا . ، وقودها الناس والحجارة . عليها ملائكة غلاظ شداد » . .

بعد عرض هذه الشواهد ، نعود لحديثنا قائلين إن الأخلاق الدينية تستمد بعض ترهيبها من الكتاب المقدس ومن القرآن . . ولكنها تقف من هذه النصوص موقفاً انتهازياً باطلاً . .

فالكتاب المقدس من ألفى عام ، أو أكثر ، لم يكن يستطيع أن يتفاهم مع تلك البشرية القديمة المتخلفة التي عاش بينها بغير أن ينذرها ويرهبها ويخوفها بطش الله . .

لم يكن تمت من الثقافة ، ومن التربية ، ومن التقدم الإنساني مثل الذي معنا اليوم مما يمكن أن يغنى عن التوسل بالزجر والتخويف . ، ومثل هذا يقال عن القرآن . . فتآيات التخويف فيهما . الكتاب المقدس والقرآن ، ذات مفهوم مجازي ودلالة وقتية . .

وإذا سألتني سائل : أتريد أن تحذف آيات العذاب من القرآن ،
وتستبعدها . . ؟؟

أجيبه : عفا الله عنك ، ما لهذا قصدنا . وإنما نقول إن دلالة هذه
الآيات مجازية تصويرية . تريد أن تحمل الناس الذين يخافون ولا ينجحون ،
على طاعة الله ، وترك السوء . .

وإننا لنعلم أن في القرآن آيات نسخ حكمها ، ونفذ غرضها . .
ومع هذا فهي باقية لمجرد التلاوة دون أن يكون لها حكم نافذ ، أى حكم . .
فآيات العذاب باقية للتلاوة ، وللتأريخ . تصور لنا حال مرحلة من
تطورنا الإنساني كان الخوف فيها هو المعراج الذي يصعد بالناس
إلى الكمال . .

أما أن نعتمد على التقريع الشديد ، والتخويف المدمدم في محاولاتنا
الأخلاقية اليوم ، كما تفعل الأخلاق الدينية فعلا ، فعمل غير صالح ، بقدر
ما هو غير ديني .

من هذا الذي قال : « ما أرسلت نعمة ، بل أرسلت رحمة » ؟ ؟

والقائل « إني أريد رحمة لا ذبيحة » ؟؟..

أليس هو المسيح . . ؟

ومن قال أيضا « إنما أنا رحمة مهداة » . . ؟ ؟

أليس هو محمد . . ؟

أجل ، إن آيات العذاب التي يتوسل بها دعاة الأخلاق الدينية اليوم
لستعمل استعمالا ظالما . وتسخر لمعركة لم تستشر فيها .

ولقد اعتمد عليها الدين في ذلك الزمن البعيد . يوم لم يكن منها بد . .

ومع هذا ، فقد كان يستعملها في جذر ورفق . .
هذا هو رسول الله عليه السلام ، يبصر أما تضم طفلها إلى صدرها .
فيسأل أصحابه الذين معه قائلاً : — أترون هذه الأم طارحة ولدها
في النار . ؟ ؟

فإذا أجابوه ، كلا ، يا رسول الله . .
قال لهم : « والذي نفسى بيده . إن الله لأرحم بعبده المؤمن من
هذه بولدها . . »

أى إنه لن يطرح إنساناً واحداً في النار . . أى اطمئنوا ، ليس
أمامكم نار ، ولا غسلين ، ولا مقامع من حديد
وهناك أبلغ من هذا دلالة على ما نقول : فذات يوم أُسِرَّ إلى معاذ
حديثاً ، فقال معاذ ووجهه يتهلل بشراً :
— ألا أبشر الناس يا رسول الله . ؟ ؟

— فأجابه عليه السلام : لا يا معاذ . حتى لا يتكاثروا . .
وتأملوا كلمة « لا يتكاثروا » تدركوا كل شيء
أما هذا الذى أسره الرسول لمعاذ . فهو « يا معاذ بن جبل . من
مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » .
ألا إن جميع الناس ليموتون غير مشركين بالله شيئاً وإن بدا لنا .
بل وإن بدا لهم أنفسهم أنهم مشركون . . .
إن استعمال الخوف كباعث في عصرنا هذا ، يعتبر عملاً غير إنسانى . .
مما يجرد الأخلاق الدينية من إنسانيتها . .

فاذا غادرنا الباعث إلى الوسيلة ، وجدنا رجعية ضارة معتاقة . .

بم تتوسل الأخلاق الدينية للفضيلة . . . ٢٢

إنها تتوسل بذات الوسائل التي كانت منذ ألفين من الأعوام . . . ١١
إن الله لم يكتف بموسى فبعث المسيح يكمل الناموس . . ثم لم يكتف
بالمسيح فبعث محمدا في أثره مجددا وهاديا إلى طريق جديد . .
أريد نحن اليوم أن نسير على المنهج الذي أكلته القرون
والدهور . . ٢٢

أجل ، هذا ما تريده الأخلاق الدينية . . وهي هنا أيضا تستغل
الآيات المقدسة استغلالا رجعيا جاهلا . .
فإن كتاب المقدس مثلا يرى من آداب السلوك أن تغطي المرأة
شعرها فيقول :

— « إن كانت المرأة لا تغطي ؛ فليقص شعرها » ويقول « حسن
للرجل ، ألا يمس امرأة » .

ويرى القرآن مثل ذلك فيقول :

« يا أيها النبي قل لأزواجك ، وبناتك ، ونساء المؤمنين يدنين عليهن
من جلابيبهن » .

ويقول الرسول : « إن المرأة إذا بلغت الحيض ، لم يحل أن يظهر
منها إلا هذا . . وهذا . . مشيرا إلى الوجه والكفين . . » .
وتتجاهل الأخلاق الدينية ، أن هذا تشريع خاص بمسائل اجتماعية ،
وليس ملتحما بالعقيدة . .

وتتجاهل أيضا ، أن الرسول قال « أتم أعلم بشئون دنياكم »
فتوغل في التشبث بنفس التفاصيل والوسائل التي كانت تصلح لزمان

غير زماننا ولقد أوقعها هذا في مأزق وبيل ، وأوقع معها ضحاياها . .
وذلك المأزق هو : حصرها المشكلة الأخلاقية في الجنس . . .
أجل ، إن الأخلاق الدينية لتنفعل بالجنس انفعالا مريباً . وتبالغ
في تصويره مبالغته تدفع حتماً إلى الولوغ في رذائله . وإنك لترى للمرأة
في بلادنا - بلاد الشرق العربي كله - مخلوقاً عجيباً . لا ينبغي لمسه ،
ولا النظر إليه ، ولا إفساح المجالس له ، ولا الاقتراب منه . . .
مع أن العقل الإنساني قد انتهى نهاية سعيدة ، إلى أن خير الفضائل
وأزكاها ، هي التي تترعرع في مجتمع زالت فواصل الجنس منه ، وتنفوق
على مركبات النقص التي ملأته بها الأخلاق الدينية . .
لا تستطيع الأخلاق الدينية إذن أن تهدي للفضيلة . ما دامت تعتمد
على الأرهاب وتتوسل بالرجعية فهي استبداد ، والأخلاق حرية . . وهي
جمود ، والفضيلة متطورة . .
وإرهاها هذا ، ورجعيتها تلك يزجيان لها نقيصة أخرى تمثل
شر خصائصها . .

• التعصب ، والانطواء . .

رأينا في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف يجيء التعصب ثمرة
حتمية لطغيان الحكومة . وقلنا هناك ، إنه يجيء كذلك نتيجة لازمة
لطغيان التقاليد والخرافة . ووعدنا بالحديث عن هذا في فصل قادم
والآن قد جاء أوان الوفاء . .
الأخلاق الدينية بطبيعتها تكوينها وفلسفتها لا تستطيع إلا أن تكون

متعصبة . لأنها مرتبطة بالماضى ، وكل ارتباط بالماضى وبالغيب وإهمال
ما عداها من مصدر وسبب . أمر يفضى قطعاً إلى التعصب . وأخلاق
متعصبة ، لا يمكن أن تكون فاضلة ، ولا طريقاً للفضيلة . .
فالتعصب كذب ، وظلم . . كذب ، لأنك بتعصبك تزعم أن وجهة
نظرك ، هى وحدها الحق الذى يجب أن يذعن الناس له . .
وظلم ، لأنك بتعصبك تتحكم فى تفكير الآخرين ، وفى مصائرهم .
وتعطى نفسك حقاً لم يعطه الله سبحانه لنفسه . . حق حبس المستقبل ،
ومنع الغد من الانبثاق ؛ والحجر على الحقيقة الوافدة المقبلة . . ١٢
إن التعصب يسلب ضحاياها أجل الفضائل الإنسانية ، وأزكاها . .
فهو يسلبهم فضيلة الصدق . لأنهم يعمنون فى الكذب والزور .
إذ يزعمون بتعصبهم ، أنهم وحدهم الذين يعرفون . . .
ويسلبهم فضيلة الثقة بالنفس ، لأن الذى لا يثق بغيره ، عاجز عن
أن يثق بنفسه . . ولأن التعصب فى الواقع دمار يغطى به المتعصب عريه
العقلى ، والأخلاقى . ويستر به ضعفه المستقر فى أعماقه . .
وهو يسلب ضحاياها أيضاً فضيلة الأمانة ، لأن الأمانة هى قدرتك
على صيانة حق الغير . . وحين تتعصب لرأيتك وحده ، ومصحتك وحدها ،
فإنك بتعصبك هذا ، تعنى نفسك نهائياً من تبعات الرعاية المطلوبة منك
لحقوق الآخرين . . حقوقهم فى اختيار الفكرة ، والرأى ، والمنهج . . .
وهو يسلبهم كذلك فضيلتى التسامح والحب . لأن الحب والتسامح ،
يقتضيان فهما . ، والتعصب جهل . . يقتضيان مشاركة . ، والتعصب
انطواء . . يقتضيان سلاماً . ، والتعصب حقد واضطراب . . ١٣

وهو يسلبهم فضيلة العدل . . لأن العدل هو أن تضع نفسك مكان
الغير ، ثم تكون حكمك . والمتعصب لا يغادر نفسه ، ولا يبصر سواها .
ومن ثم ، فهو عاجز عن الحس الصادق ، والنظر الثاقب ، والحكم العادل . .
وهو يسلبهم فضيلة الرحمة . . لأنه — أى التعصب — يمثل في
حقيقته أقصى مظاهر القسوة على النفس . . ١١ °

أجل ، إن المتعصب قاس على نفسه ، يحمن في القسوة والتشفي .
وحين نتعمق المتعصبين ، نجد كلا منهم يتعصب للرأى ، أو للوضع الذى
يستر نقصا فيه . ويوارى سوءا له . وهو فى « لاشعوره » مبغض
لعماءات نفسه ، ناظم عليها نظير اقترافها النقص ، هنا يختار عقلاء الكامن
والواعى نقطة التقاء يعبران خلالها عن تناقضهما . . فيكون التعصب
معبرا عن احتقار « اللاشعور » لنفس المتعصب وذاته . ويكون فى نفس
الوقت تعبيرا عن رغبة الشعور فى ستر العاهة النفسية ، ومواراة النقص . .
فكيف يستطيع قاس على نفسه . مذل لها ، أن يهب الآخرين
الرحمة والرفق . . ١٢ °

والتعصب كذلك ، يسلب ضحاياها فضيلة الشجاعة . لأنه يمثل جزع
العقل الباطن من الرأى المغاير وجبنه حياله ، وعجزه عن ملاقاته
ومواجهته . . ولعلنا بقليل من الفطنة نستطيع أن نرى أ. كثر المناضلين
جبننا وهلعا ، هم أولئك المتعصبين . . الذين لا ينبعثون عن إيمان فيه ضوء
المعرفة . . بل عن تعصب فيه ظلام الجهالة . . .

واقعد صدق « فون باين » حين قال فى مذكراته التى نشرها بعد
الحرب الأخيرة إن الألمان لم تهزمهم القوات المسلحة التى لقيتهم فى ميادين

الحرب . . . وإنما هزمتهم قوى الظلام التي هاجمتهم من داخل أنفسهم «
والتي هي . . . التعصب الذي راضتهم عليه النازية في غير شفقة وفي غير
فهم . . . »

فهل يستطيع أحد أن يخبرنا ، كيف تستطيع الأخلاق الدينية التي
تتعصب للتقديم وللخرافة . أن تهدينا إلى فضيلة وخلق . . . ؟؟

عندما كان « برنارد شو » يكتب ويقول : « إن أبانا الذي
في السموات يعطينا خبرنا . ، ولكنه لا يجري على طريقة الحباريين
في أوقات التوزيع » . . . ١٢

أو يقول « خير للإنسان أن يخطيء مع روح القدس ، من أن
يخطيء مع المال » . . .

أو يقول « حاذر من الإنسان الذي وضع إلهه في السماء » . . . ١٢
عندما كان يقول هذا ، لم يكن أحد يتميز من الغيظ سوى دعاة
الأخلاق الدينية . وهو لم يكن يكتب مثل ذلك إلا ليجهز نهائياً على
ضراوة التعصب الديني . . . وليضع الفهم للروح للأشياء ، مكان التزمت
الكثيب . . .

من أجل هذا ، كان أثره في أخلاق أمته . أمراً غير منكور . . .
ونحن لا نريد أن نستفز الأخلاق الدينية في بلادنا بمثل كلمات « شو »
وأسلوبه . . . وحسبنا فقط أن نناقشها بمنطق الدين نفسه ، الدين الذي
تظلمه ، وتشوّهه وتفسد ما بينه وبين الناس . . .

والتعصب يفيء على الخلق الديني انطوائية كالحة ، لأنه يحضر الإنسان

داخل نفسه ، وداخل خطاياها . . والأخلاق الدينية لهذا عاجزة عن بث حياة اجتماعية خلابة ..

إنها تلحق بنا في الكنائس والمساجد ، حيث يمكن أن نحاول حياة اجتماعية عابرة ، فتفرض سلوكا معينا يجعل الفرصة تفلت . . ولهذا فإن اجتماعات المعابد شكلية ، لا موضوعية ، وبتعبير أكثر صحة - دينية ، لا أخلاقية . .

أليست تطالبنا بالصمت التام في الكنيسة ، وفي المسجد ؟ ؟
أليست تكلفنا بأوضاع معينة ، وطقوس معينة ، وهدوء خاص ؟ ؟
إن الحكمة تتكون في العزلة . . أما الأخلاق كما يقول الفيلسوف « كانت » فتتكون في ضوضاء الحياة . . ومن هنا تصلح الكنيسة والمسجد لتخريج حكماء ، وحكماء لا غير . . ١٩
ثم إن الأخلاق الدينية تقوم على احتقار الشر ، وتدعو لمقاطعة الشرير كعلاج خلقي . . فكيف تكون اجتماعية إذن ، وهي تشجع القطيعة ، وتثيب عليها . . ٢٠

وننتقل الآن إلى خاصية أخرى من خصائصها .

• الجبرية ، والوعظية . .

تربطنا الأخلاق الدينية بمفهوم قدرى ، يفضى بنا أحيانا إلى تبرير الظلم فنقول « لا يقع في ملكة إلا ما يريد » . . وهي إذ تحس ضعفها أمام قوى التطور والعقل ، تتخذ موقفا لاهوتيا صامتا ، وتترفع إلى الجبرية المطلقة التي تكف بفلسفتها المضارة قوى الشئ والمحاولة عن العمل . .

فالأخلاق الدينية تمنعنا بأننا مجبورون على سلوك معين . . وأى سلوك آخر سواء مهما يحقق من فضائل وسعادة ، ليس منها ولا من الأخلاق في شيء . . لماذا . . ؟ لأن الطريق الواحد الأحد المفضى للفضيلة هو الذى ترسمه الأخلاق الدينية دون سواء . . . ١١

وقصر حيلتها يدفعها إلى الوعظ . فهى وعظية ، بمعنى أن الموعظة الزاجرة الراحبة هى وسيلة لتقويم السلوك . . أما دراسة النفس الإنسانية دراسة تجريبية . واعتبار الخطيئة ، عاطفة ضلت طريقها . . والمرضى الخلق ، عقدة تعالج بمعالجة ظروف نشوئها . ووضع الإنسان تحت مجهر العلم ، لا لسان الواعظ . . كل هذه معابثات لا تعترف بها الأخلاق الدينية ، ولا تعتمد عليها . . . ١١

ترى ماذا تستطيع الموعظة أن تفعل بطبيعتنا . . ؟ ؟
لا شيء سوى التخدير المؤقت . . وعلى أرض تاريخنا الإنسانى نبصر ركائماً لا ينتهى لضحايا الرذيلة والشر الذين أغرقوا فى طوفان من الموعظة الخلقية العاجزة . .

وهذا يشير فى صديق إلى عجز الأخلاق الدينية يوم كانت ظروف القوة والصلاحية تملأ عينيها ، فكيف ، وهى اليوم تعاني مطاردة وإخفاقاً . يزيدانها عجزاً . . ؟ ؟

الحق أن الأخلاق الدينية فاشلة فى أداء رسالة خلقية صحيحة . وهى بعيدة عن إدراك أى غرض أخلاقى ، بقدر بعدها عن الرسائل الفعالة اللازمة لبلوغ مثل هذا الغرض الرفيع . .

واعلمنا لو قمنا بعمل إحصاء بين الطوائف التى تخضع للأخلاق . .

الدينية ، وغيرها من الطوائف التي لا تخضع لها . ، لوجدنا الرذيلة بين الأولين ، أكثر منها بين الآخرين . .

وإن كتاب « الإحصاءات الصحية والحيوية » لعام — ١٩٤٩ —
ليقدم لنا إيماءة طريفة . .

فنحن نعتبر الأسراف في الطلاق رذيلة . لأنه يفضى إلى تدمير خلق
كبير ، خاصة في الحالات التي يكون فيها مصحوباً بطفولة يشرذم الطلاق
أمنها . ويهدد مستقبلها . .

وفي الكتاب المذكور وهو كتاب إحصاء حكومي . . وجدت نسبة
الطلاق بين رجال الدين ، والوعاظ ، والفقهاء ، وخدم المساجد ،
والمأذونين ، والمتعبدین « ٤٥ ٪ » .

بينما وجدت بين غيرهم من الأدباء ، وعلماء الفلك ، والطبيعة ، والكيمياء ،
والخبراء ، والزراعيين بنسبة « ٢٥ ٪ » . . . ١١٠٠

هل يمكن أن نعتبر الأخلاق الدينية واجبا أخلاقيا . . ؟ ؟

كلا . ، فهي واجب مطلق ، كما ذكرنا وأوضحنا . والواجب
المطلق لا يكون أخلاقيا بحال . إذا هو يحمل من دواعي الشر أضعاف
ما ذكرناه في حديثنا عن خواص الأخلاق الدينية . .

وبعد ، فلعل من الخير أن نوكد مرة أخرى أن هجومنا هذا على
الأخلاق لا يعنى الهجوم على الدين ذاته . .

وإننا لنقول هذا ، صادقين ، لاثائفين فنحن لا نتجاهل تلك
المسكارم السامية الرفيعة التي يدعو إليها الدين . . ونجند من المشقة
والحرج أمام الحقيقة ، إنكار ما للدين من دور بليغ في تمكين النفس

الانسانية من رحلتها الفوقية الصاعدة .

كيف نصم آذاننا عن الكتاب المقدس وهو يقول : ضمن وصايا الخلقية .

-- « لا تغرم من الأشرار ، ولا تحسد عمال الإثم . فانهم مثل الحشيش ، سريعاً يقطعون .. ومثل العشب الأخضر ، يذبلون » .. « اسكن الأرض واراع الأمانة ومنفعة الأرض للجميع » .. ١١ ؟

« اطرخوا عنكم الكذب ، وتكلموا بالصدق .. » اغضبوا ، ولا تخطئوا .. لا تغرب الشمس على غيظكم ، .. وكونوا لطفاء لبعضكم نحو بعض . شفوقين ، متسامحين » ..

« كونوا رجالاً .. تقوا .. لتصر كل أموركم في محبة » ..
« المحبة تتأني ، وترفق .. المحبة لا تتفاخر ، ولا تنتفخ ، ولا تقبح ، ولا تمتد ، ولا تظن السوء . ولا تفرح بالآثم . بل تفرح بالحق » .. ؟؟
وأيضاً ، كيف نصم السمع عن القرآن وهو يقول :
« ... وبإلوالدين إحساناً وبذي القربى والميتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » .

« يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم ، فلا تتناجوا بالإثم والعدوان » ..
« ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم » .

« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ... »
« وقولوا للناس حسناً ... »

« من قتل نفسا بغير نفس ، أوفساد في الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا . ومن أحياها . فكأنما أحيا الناس جميعا » . .

« ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مريحا . إن الله لا يحب كل مختال فخور » . « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . « وإذا قلتم ، فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى » . . « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

« وأوفوا الكيل واليزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

« ولا تطيعوا أمر المسرفين . . الدين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » . .

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » . « ولا تطع كل حلاف مهين . همار ، مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم » . .

« اجتنبوا كثيراً من الظن . إن بعض الظن إثم » . .
ولا تجسسوا . . .

ولا يغتب بعضكم بعضاً » .

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » .

« ولا تكرهوا قتياتكم على البغاء إن أردن تحصننا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » . .

« وكلوا . . واشربوا . . ولا تسرفوا . . إنه لا يحب المسرفين » . .

أفيسطيع إنسان منصف أمام هذه التوجيهات الخلقية الرفيعة التي عرضنا بعضها من الكتاب المقدس ومن القرآن . ، أن يقول ليس في الدين أخلاق . ؟ ؟

لا . . غير أنه يستطيع أن يقول إن الأخلاق الدينية بمفهومها الذي شرحناه ، قد ظلمت الدين وظلمت الأخلاق . وإن الدين وهو ينشد هذه الفضائل ، لا يلزم الناس بوسائل معينة محددة لبلوغها . .

ونحن مصممون على أن النهج الذي تقدمه المدنية اليوم ، هو على الرغم مما يلابسه من أخطاء ، النهج الأفضل بل الأوحى لتعلية السلوك والأخلاق . . فلماذا نحذرنا ونخشىها . ؟ ؟ ألا إنه كما وقف رسول الله يعلن ، أنه لبنة في بيت الفضيلة والخير . .

وكما وقف المسيح من قبله معلنا ، أنه ما جاء لينقض الناموس . بل ليكملها . .

فأن المدنية تستطيع أن تقول مثل هذا اليوم . . .
أنها لا تهدم . بل تبني . . إنها تواصل الزحف الطويل نحو الانهائي . .
وفي موضوع الأخلاق* ، كما في سواء نستطيع أن نضع أيدينا في يدها ونمضي . . .

والآن ، وقبل أن نتحدث عن المدنية كرائد ودليل ، أريد أن أقول لكم : إن للأخلاق الدينية في جذر قلوب الرجال وفي أقصى وجداننا المؤمن قاعدة ترتكز عليها . ولا بد لكي نخلص من وطأتها المرهقة ، أن نضفي قاعدتها ومستقرها . .

هذه القاعدة تتحمل في ولائنا العميق للتقاليد ، وفي إيماننا الساذج بالقدر .

إن ولاءنا ذلك . وإيماننا هذا يمهّدان طريق نفوسنا لكافة
الجرفات التي تأتيها منتحلة اسم الدين وصفته . وفي مقدمتها — خرافة
الأخلاق الدينية . .

فلماذا كل آلهتنا . . ولتحرر من القدر . .

هل أتاكم نبأ القوم الذين كانوا يصنعون من الحلوى آلهة يعبدونها ،
فاذا جاعوا أكلوها . . ؟ ؟
إن هؤلاء الشجعان قد قاموا بتجربة طيبة لنا . وحبذا لو انتفعنا بها
وحاكيناها . ، وآلهتنا التي حان قطاف رءوسها هي التقاليد . .
أجل ، لقد صنعناها ، وأقمناها ، ثم أذعنّا لها في إخبات منكر ،
وتقديس مرذول .

ولطالما أسأل نفسي :

لماذا لا نأكل في الجفان الذي كان يأكل فيها آبائنا البعيدون جداً ؟ ؟
لماذا لا ننام في المزاود التي كانوا ينامون فيها واضعين ساقاً فوق ساق ،
كأنهم على عرش عظيم . . ؟ ؟ ؟

لماذا لا تتمنّد بأقدامنا بعد الطعام ، نجفف بها دسم أفواهنا ،
وأيدينا ، كما كانوا يفعلون ؟ ؟ .

إن التقاليد التي خلفوها لنا ، دينية واجتماعية ، لتستحق منا عزوفاً .
كهذا العزوف الذي منحناه لعاداتهم في المأكل والملبس والحياة .

ترى هل تنادي بهدم العادات والتقاليد هدمًا تامًا . . ؟ ؟ كلا ،
فالعادات والتقاليد لا تنال منها على هذه الصورة قوة . ، وليس من

المصلحة أن تبديد . . فهي تمثل ضرورة من ضرورات التقدم ذاته :
إذ تقوم بوظيفة « مانعة الاصطدام » . . أجل إنها « الفرامل » التي
تأخذ قافلة المدنية عن الاندفاع المميت . .

بيد أنها تنقلب إلى « مانعة تقدم » حين تتجاوز حدها . . وهي
لا تتجاوز حدها بذاتها . بل بأسرافنا نحن في الولاء لها وتقديسها . .
منذ عام ، وتحت عنوان « مانت الخرافة . تحيا الحقيقة » كتبت
أتساءل : كيف تاهت جماهيرنا في زحمة الحياة ، وكيف زاغ نهاها ؟
كيف وقف نموها دهرًا طويلا ، وتعطلت ملكاتها حتى كادت تبديد ؟
كيف كانت تتقبل مساوئ حياتها ، وحكامها ، كأنها الصالحات
الباقيات . ؟

كيف ألفت عصاها ، وأناخت كبرياءها حتى سامنها كل مفلس ،
وحتى تسنمت ظهورها الغربان . ؟

ما الذي أسس قيادها . ، وأخنى ظهرها للهوان والخذلان . ؟
ماذا جعلها تجفل ، والعالم يتوالب . . وتحاذر ، والدنيا تخاطر . . ؟
ولماذا جعلت شعارها : حسي . . وجميع ما حولها ، ومن حولها
يطلبون المزيد . . ؟ ؟

وقلت إن هناك كلمة واحدة يتلخص فيها الجواب هي : التزييف . . .
تزييف الحقائق . ، تزييف القيم . ، تزييف الحياة . . !

وهذا حق ؟ فراء كثير من الهزائم الملاحقة التي شيعت إلى الفناء
دولا ، وحضارات . كان التزييف يقود المعركة في عنفوان وخبث

ولم يبق من تلك الحضارات سوى التي قامت على احترام الحياة ،
واستشراف حقائقها المضيئة .

وأیضا لم یبق من الدول والجماعات ما هو حی ونابض فی التاريخ سوى
تلك التي حصرت اهتمامها في نشدان الحقيقة ، وربطت وعيها وسلوكها
بكل ما حسبته فاضلا وحقا . .

أما بقية الحضارات ، والفلسفات ، والجماعات فقد ذهبت في سياق
النسيان والانتقراض . مخلفة العبرة للذين تسول لهم أهواؤهم أن يسكنوا
مثل ديارها ، ويركبوا مثل عثاها . .

ترى هل تسطع الحقيقة في سماء ملبدة بغيوم التقاليد ، والبلى ، والتعفن . . ؟
أبدا . . ومن ثم ، يسطع ضوء آخر صناعي خداع . . هو ضوء
التزييف الذي يزجيه حرصنا على التقاليد ، وولاؤنا المطلق لها ولسدنتها
النفعيين . .

وإنا لن نستطيع الخلاص من الأخلاق الدينية إلا بالخلاص من وطأة
التقاليد وضراوتها . هذه الضراوة التي تسلب ضحاياها نور العقل وجسارة
العزم ، وذكاء الفؤاد .

إن التقاليد وثن يقوم على حراسة الخرافة والباطل . . وتعوق تحولنا
المحتوم إلى سلوك المدنية وأخلاقها . وهي تستعين على استبقاء سلطانها
ونفوذها بمضى المدة أولا . . وبأيها منا أنها مشيئة الله وقدره المكتوب ثانيا .
وفي هذه المسألة كما في غيرها يظهر لنا فارق جلي بين الدين والأخلاق
الدينية . . فالأخلاق الدينية تتخذ من التقاليد القديمة قاعدة تستقر فوقها ،
ومن ثم فهي حريصة على بقائها ملقية في روع الناس دائما أنها مقدسة .

وباقية . . بيد أن الدين يدمدم على التقاليد بسخريته القاتلة فكيف تحدث القرآن عن الدين « قالوا إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » . . . !
وأيضاً يظهر فارق آخر يزيدنا اقتناعاً بأن الأخلاق الدينية ليست هي الدين . وذلك في مسألة القدر .

هل هناك قدر يسوقنا دون أن يكون لنا إرادة واختيار . . ؟
إن القدر مشكلة لعبت ، ولا تزال تلعب في حياة الناس دوراً كبيراً . . وكل امرئ منا تصادفه تلك الحالة التي نحس فيها كأن قوة غريبة عنا ، تدخلت بيننا وبين محاولاتنا لتغيير أسباب نجاحها ، فتخفق . أو أسباب إخفاقها فتنجح . . وعلى أية حال ؛ فلا يزال هناك قوانين كثيرة لم تكتشف بعد . فإذا كان لهذا الذي نحسه ونسميه قدراً ، قانون يزجيهِ ، فسيظهر يوماً ما . . وحق يظهر فأن واجبنا أن نمضي في الحياة كما لو كنا وحدنا .
والدفة في أيدينا . .

لقد سئل رسول الله عليه السلام من أصحابه الذين قالوا له :
يا رسول الله . أرايت أشياء تتداوى بها . هل ترد من قدر الله شيئاً . . ؟
فأجابهم : هي من قدر الله . .

وهذا الحديث لفظة بليغة تشير إلى أن الأسباب المفضية إلى عللها ، والمقدمات السائرة نحو نتائجها هي نفسها - قدر الله . . وليس القدر عبثاً يلغو ، ولا لغواً يعبث . .

على أن الذي يعنينا هنا ، هو نفي القدر الأخلاقي . .
فنحن نعتقد أن تمت إلزاماً قاهراً إلهياً يحكم علينا بالردى وسوء

المصير . ويدفعنا إلى الرذيلة مكرهين . وهو اعتقاد باطل لا يتواءم مع أبسط مبادئ التفكير . .

صحيح أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء . .
أليست هذه هي الآية التي نستمد منها عقيدتنا في القدر الأخلاقي . . ؟
حسن . . ولماذا نهمل آية أخرى تقول :
« فلما زاغوا . . أزاع الله قلوبهم » ؟ ؟
أى أن الناس هم الذين يخلقون الزيغ ويبدأون به مختارين . .
فيسلمهم الله لزيغهم الذي صنعوه . .

إن الدين في ساعات صحوه ويقظته ، لينفي القدر الأخلاقي نفياً قاطعاً . .
هذا هو الكتاب المقدس يقول على لسان الله عز وجل .
— « وضعت أمامك طريقين . طريق الحياة وطريق الموت . .
اختر الحياة لكي تحيا » . . ١١

« ها أنذا ، قد وضعت أمامكم البركة واللعنة . . فاخياروا البركة
لتعيشوا مباركين . وإن اخترتم اللعنة تكونوا ملعونين » . . ١١
والقرآن يقول :

« ولا تكن اختلافوا . فمنهم من آمن . ومنهم من كفر » . « وما ربك
بظلام للعبيد » . .

« هذا صراط ربك مستقيماً . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون »
« إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . .
« ولا يرضى لعباده الكفر » . .

« ويزيد الله الذين اهتدوا . هدى » . . .

أما الآيات الأخرى مثل :

— « إن الدين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » .

« ومن يضل الله فما له من هاد » ..

« فريقاً هدى ، وفريقاً حق عليهم الضلالة » ..

كل هذه الآيات ذات مفهوم مجازي لا يعنيه الله وإنما يرمز به إلى استغناؤه عن أولئك الذين يعصون تعاليمه ويخرجون عليها وإلا فكيف نتصور إنساناً عاقلاً وعادلاً فضلاً عن إله عظيم كامل ، يربط يديك ورجليك بالسلاسل والحبال ثم يلقيك في اليم الصاخب ويقول لك ، اسبح يا عبدى .. ١١١

إن الأخلاق الدينية — لا الدين — هي التي تحاول إقناعنا بأن مصيرنا الأخلاقي مخزن فينا بطريقة إلهية صارمة ..

إذن ، فم دعوة الرسل والمصلحين .. ؟ وكيف أمضى للخير . والله — بهذا الزعم — قد كتب على الرذيلة والشر ؟ ؟

إن الله قد كلفنا بفعل الفضيلة والخير . . والتكليف يقتضى قدرة على العمل . .

هذه أبجديات لامراء فيها .. فهل أكون قادراً على العمل . إذا كان الله ذاته سيرغمنى على سلوك معين . . هل أكون قادراً على الفضيلة إذا كان الله بكل قوته ومشيتته ونفوذه سيرغمنى على الرذيلة . وهل أكون مسئولاً أدنى مسئولية عن الرذيلة إذا كان كل دورى فيها أننى أنفذ مشيئة الله وقدرته . . ؟ ؟

إننا نعمل بقدرة من الله فقط ، وليس بأكرام منه . . أى أن الله وهبنا الإمكانيات التى نستطيع أن ننشئ بها لأنفسنا وحدها ، وبأنفسنا وحدها . فضائل الحق ، والخير ، والجمال . .

لقد وهبنا الله عقلاً نميز به ، ونعرف الطيب والخبيث . وأعطانا قدرة حرة نأنى بها أعمالنا ، فى الخير وفى الشر على حد سواء .

والذين روجوا لفكرة الأخلاق الدينية عن القدر ، هم أولئك الطغاة الذين مروا بأرضنا وتوسلوا بها على مدى القرون لتخديرنا وبث روح الاستسلام فى عزمننا

أما الله فبريء من هذا . . إنه يمكن جميع الكائنات من السير فى نطاق قوانينها الطبيعية .. وهو يساعد إرادتنا بتركها حرة ، وليس بتكيلها . ثم إن مسائل السلوك تكشفت اليوم بواسطة العلم . ولم نعد نرى فى زواياها شياطين توسوس لنا ، ولا قدراً يضلنا . .

ولعل من الخير أن نستشهد هنا بكلمة لرجل فاضل جمع إلى غزارة علمه ، رحابة إيمانه بالله القدير . ذلكم هو « هادفيلد » يقول :

« نحن لا نزال نتحدث عن الغواية على اعتبار أنها آتية من الخارج ، فى حين أنه لا يمكن أن يكون لأية غواية أقل أثر مما لم تنجذب إليها رغبة من رغباتنا الداخلية التى نطمعها فى العادة . .

» إننا لا نستغوى عن طريق ما فى العالم الخارجى من متع وملذات ومغريات الأبالة والشياطين ، وإنما نستغوى عن طريق أنفسنا . .

» وقديماً لام آدم حواء ، ولامت حواء الشيطان . . ولكن الله لم ينخدع بهذا . بل أخرجهما من الجنة . . . (؟)

« إنهما لم يحيطا علما بالمبدأ النفسى الداخلى ؛ فليست المسئلة فى علاج المصاب بانحراف خلقى مسألة إزالة غوايته ، بل إزالة رغبته . . .
ألا إنه ليس هناك من يحل محلنا ، لننجو نحن من تبعات أعمالنا . .
لا القدر ولا الشياطين . . ولو أن طرح المسئولية من اليسر كما يتصور المتعللون بالقدر ، لفستت السماوات ، والأرض ، وما فيهن . . فلنواجه أنفسنا فى شجاعة وفهم ، وما دامت الأخلاق الدينية قد اضطربت فى يدها الموازين ولم تعد صالحة لمهمتها كرائد ودليل ، فلنبحث عن دليل سواها .

المرئية ، هى الدليل . .

نخلص مما تقدم إلى أن المدنية هى اليوم دليل الناس إلى المستقبل الذى يوعدون . . لأن الأديان نفسها ، لم يكتب لها الفوز إلا لأنها كانت — كما أسلفنا — تمثل خطوة تقدمية فى موكب التاريخ . . ولأن المدنية هى التى تستطيع أن تقود عاداتنا ، ومعتقداتنا ، وتقاليدها إلى أعلى . .
إن المسئلة الأخلاقية فى بلادنا محفوفة بالمصاعب . ولا شئ سوى المدنية بتفكيرها الجرىء ، وتجربتها الرشيدة ، واستشرافها الواعى ، يستطيع أن يعاوننا ويمهد لنا الطريق . .
ذلك أنها فى كل نقلة من نقلها ، تمثل الحقيقة الجديدة التى تبرز إلى النور ، داعية الناس ، أن يعيدوا النظر فى قواعد حياتهم وتقاليدهم ، وعرفهم ، ليرتفعوا إلى مستوى الدورة التالية ، من دورات تطورهم « الحلزوني » الصاعد . .
ولقد يبدو لبعضنا أن يسأل : أين أخلاق المدنية التى تدعونا إليها ؟ . .

إن المدنية اليوم تصطلي بنارها . . والفضيلة فيها قد تحولت إلى عنوان ضخم ، أو إهاب فضفاض لرذائل شتى ، وموبقات كثيرة . .

لقد رفعت المدنية للناس وثناً خبيثاً ، اسمه النجاح . . وإنا لنرى طقوس العبادة والتقرب لهذا الآله المارق . . فهي الخداع ، والنفاق ، والدجل ، والاحتيال ، والكذب ، والغش ، والصلف ، والطغيان . . وإلى هنا . . أتفق اتفاقاً تاماً مع الدين سيزجون هذا الاعتراض ثم أخالفهم في أن تكون هذه هي المدنية . . .

إن المدنية توصينا بالنجاح حقاً ولكنها لم تنصبه وثناً ولا إلهاً . . بل نحن الدين جعلناه كذلك . .

إننا نحمل في أعماقنا رواسب تدفعنا كارهين إلى البحث عن إله أوقصر . . والدهر الطويل الذي قضيناه نحن بني الإنسان في رحى الآلهة الكثيرة التي شهدناها تاريخنا ، لا تزال بصماته على وعينا . . وهذه البصمات الدافعة هي المسئولة عن الأوثان المنصوبة في عصرنا هذا . سواء كانت النجاح ، أو شيئاً آخر معه . .

وطى أية حال ؛ فمن الخير أن نبدأ بالاتفاق على مفهوم المدنية . .

فما هي . . ، وما مفهومها . . ؟

إنها ، حركة التاريخ . . .

— هي خط التقدم المتجه في وعى نحو مصير أفضل — دائماً —

للإنسان ، وللمادة ، وللحياة . .

وحركة التاريخ تقتضى في كل مرحلة من مراحلها ، إنشاء أوضاع تتفق وحاجات العصر . ومن ثم ، فعملها المستمر تطوير المائل إلى المستقبل

وتسريح الماضي الذى فقد حقه فى الوجود ، كي يأخذ حقيقى جديد مكانه
ويبدأ دورة صاعدة نحو الغرض البعيد للتقدم ، وللتاريخ .
فالمدينة إذن تطور واع إلى أفضل .. وقد تنطوى على نقيض غايتها ..
ولكنه انطواء وبقى . ، ولا تلبث حتى تطرد هذا النقيض خارج ذاتها .
وإحساسنا بهذه النقائص التى تشوه بهاء مدينتنا ، برهان على صدقها
وقوتها .. ودليل على عميق أثرها فينا ..

فنحن نبصر أخطاءها مجسمة ضخمة . لأنها تعلمنا ، أن فى الأماكن
أبداع مما كان . . عكس الأخلاق الدينية تماما . . ومن ثم ، فإن ما تزجيه
فيها من تطلع زاخر إلى هذا الأبداع ، والأكمل .. يجعلنا نتخذ من
إبراز العيوب والأخطاء حافظا ملهبا يسوقنا إلى هذا الذى هو أبداع
مما كان ، وأبداع مما هو كائن ..

إننا نبصر فى جزع ، تلك الدوامات الهائلة من حوادث عصرنا ، فنخال
أن المدينة أخففت .. وأنها زادت الهوة الفاعرة اتساعا . . والخلاف
المشوب استعارا ، ولكن لا . فأينالنا فى السير الصاعد ،
وتحليقنا الجرىء فى الفضاء الحر . . والغاية التى تتبدى لنا ، فننتقل
صوبها فى شوق لاهب - كل ذلك يحتم وجود بعض المساوىء والأخطاء ،
تماما كما يفعل فرس الرهان عندما يشارف الهدف ، فتنتفض عضلاته ،
ويتصطب عرقه ، وتعصف حوافره بالأرض التى تكاد تميد تحت وثبه ،
فيملأ الأفق رمادا ..

إنه رماد الخطوات التى تهم لتعانق النصر . . وليس تراب الهزيمة
والانكسار . . ١٩

إن أخلاق المدنية هي وحدها ، الأخلاق التي تهيب بالإنسان إلى الصمود ، لا إلى الفناء والتداعي . . . وحسبها أنها تبدأ أعمالها باحترامها الكامل لطبيعتنا الإنسانية ، احتراماً يمكنها من استثمار كل مواهبنا وإمكانياتنا ، وبعثها جميعاً للعمل في سبيل التفوق والاكتمال .

إنها — مثلاً — لا تعرق شهواتنا في بصاقها المقدس ، كما تفعل الأخلاق الدينية . . بل تعلن ولها رنين كرنين الصدق . أن شهواتنا هي فضائلنا . . . وليس السعى الفاهم للفضيلة أن تطمس شهواتك . بل أن تضيئها . . أجل تضيئها . . .

فإذا شبهنا الإنسان بمصباح ، فشهواته هي الزيت . . وإذا أنت أهرقت زيت المصباح على الأرض ذهب بددا . . وإن احتبسته داخل المصباح ، استطعت أن تحوله إلى ضياء ونور . .

والاحتباس لا يعنى عند المدنية السكوت . بل الشوق . . وأخلاق المدنية تبدأ بنظرة صادقة واعية للإنسان ولطبيعته . وهذه النظرة طردت بعيداً عنها كل ما تميزت به الأخلاق الدينية من خصائص ذكرناها . . إن اعترافها بطبيعة الإنسان وفرعاً عليها القتال اليائس ضد هذه الطبيعة . . ولقد وضعت طبيعة الإنسان بين ظواهر الطبيعة الكبرى . وسألت نفسها :

— هل أستطيع أن أقف حركة الشمس ودوران الأرض ، وانبثاق النبات ، بالمواعظ ، أو بالأرهاب . ؟ أبدأ . . وإذن فخير ما أصنعه أن أتفاهم مع هذه القوى وأستثمرها قدر المستطاع . . وكذلك طبيعة الإنسان تماماً . . لا بد من التفاهم معها ، واستثمار طاقاتها الحية العارمة .

وهكذا تقرر مبدأ الحرية في أخلاق المدنية ، يقابله في الأخلاق الدينية الاستبداد . . .

وأخلاق المدنية لم تبدأ باحترام طبيعة الإنسان وحدها . بل وباحترام الحياة كلها . وإنها لتجعل من أسمى قوانين الأخلاق وأعمق قوانين الحياة شيئا واحدا . . . حتى إنها لتكاد تحصر الإنسان الأخلاقي في الإنسان الحي . وإذا نحن رجعنا البصر إلى نشوء الفضيلة والرذيلة لم يسعنا إلا إزجاء التهنئة لأخلاق المدنية على صدق نظرتها .

فالإنسان الأول لم يكن يعرف الفضيلة . بل كان يعرف الضرورة . . . كانت التضحية ، والصبر ، والمخاطرة ، ضرورات لازمة لحفظ حياته ، فمارسها ليبقى . . . ولما بدأ أناس ينجحون في ممارسة هذه الضرورات ، وأناس يخفقون . . . بدأ مفهوم الضرورة يتغير . فصار الفوز بها فضيلة ، والأخفاق فيها رذيلة .

فمن قوانين الحياة نشأت قوانين الأخلاق . وقوانين الحياة لا تهبط من اللاحياة . . . بل تنبعث انبعاثا تلقائيا من الحياة نفسها .

وإنا لنستطيع بموازنة عابرة بين الفضيلة القادمة من قوانين الحياة ، والفضيلة الموفدة من الأخلاق الدينية . أن نلحس مدى الصدق والأصالة والانسجام مع الحياة في كل منهما . . .

فالفضيلة الحضارية المنسجمة مع قانون الحياة تقول لنا مثلا : لا تسرفوا في احتساء الخمر . . . وهنا نجد كل وجوه المعرفة يزكي هذا التوجيه . . .

فعلم الأخلاق يقول : نعم ، لأن الأسراف يفضى إلى هذيان وسخرية وإدمان . .

وعلم الصحة يقول : أجل ، لأن الأسراف ضار بكبدك وأمعائك وعافيتك . .
وعلم الاقتصاد يقول : نعم ، لأن الأسراف يمتص ثروتك وينتهب مالك . .
وعلم النفس يقول : نعم ، لأن الأسراف يخلق عادة تستعبدك ،
وتعتاق تفوقك على نفسك . .

والكن عندما تقول لنا الأخلاق الدينية مثلاً لا تنظر إلى المرأة
ولا تختلط بها ، ففي هذا فتنة وضلال ، نجد تلك الوحدة الهادفة التي
يتمثل فيها وعى الحياة وقانونها تتخلف جميعاً وتتخذ موقفاً مناقضاً . .

فعلم النفس ، يقول : انظر في سمو ، واختلط في أمانة ، حتى لا تشيع
عقد الجنس في شخصيتك فتلوى زمامها عن الجادة . .

ويقول علم الاجتماع : انظر ، واختلط ، حتى لا يفضى بك انطواؤك
وانفصالك إلى انهزام مروع داخل كيائك .

ويقول علم الاقتصاد للمرأة : اختطى ، واعمل ، ولا تبالي ، فأنت
نصف الأمة . ونصف إنتاجها متوقف على عملك وجهدك . .

ويقول علم الأحصاء : انظروا ، واختلطوا ، وامرحوا . . فإن نسبة
الفضيلة بين الدين يفعلون هذا ، أعلى بكثير من نسبتها بين الدين
لا يفعلون . . . ١١١

وعندما تستمد أخلاق المدنية نهجها من قوانين الحياة ، تضع عنا
شر آصارنا — الاضطراب العقلي . . ذلك أنها لا تتحكم في العقل ،
ولا ترهقه بوصاية ما . بل تضع الزمام في يده هو ؛ فيتألق ويسير العقل

الحر ، مع الشعور الحر ، مع الإرادة الحرة ، في موكب ثابت الخطى نحو الفضيلة والكمال .

وأخلاق المدنية تطالبنا برفع مستوى وجودنا وحياتنا . فهمي تقول : لكي تظفروا بفضائي ، لا بد أن تعيشوا داخل نطاقى . .

وأنى لأرى كل يوم ظاهرة قد تكون ضئيلة لكنها تذكرنى بهذا المعنى وتزكّيه فى نفسى . . وتستطيع أنت أن تراها . .

هذه « الترامات » التى تملأ شوارع القاهرة . ولا يخلو سلم أحدها من عمال ، وشبان يتسلقونها تسلقاً هروياً ... كى لا يدفع بضع مليات . حاولت كثيراً أن أجد بين المتسلقين المتهرئين من أتفه تبعات الأمانة عاملاً واحداً ، أو شاباً واحداً ، من الأجانب المقيمين بمصر ، أو المولدين فيها ، فلم أجد أبداً .

وإنى لأرجع هذا إلى شىء واحد ، هو المستوى الحضارى التقدّمى الذى يعيش فى نطاقه هؤلاء الناس . فى بيوتهم ، وفى أنفسهم ؛ وفى يثئهم .

وأنا أكتفى بهذا المثال العادى ، مفضلاً أن تضع أنت بجواره مثات الشواهد والأمثلة التى تريك أن كل ارتقاء فى معيشتنا وتفكيرنا ، يرافقه ارتقاء فى سلوكنا وأخلاقنا .

ولقد ازددت اقتناعاً بهذا ، عند محاولت الوصول إلى موازنة خلقية بين المشتغلين بحرف شتى تنتظم أدنى هذه الحرف وأعلاها . .

ولقد يتشبه قوم بقول المتنبي :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

والكننا هنا نتحدث عن شيء أعمق، وأسمى من الحسن الذى تحدث عنه المتنبي وتلامذته . .

وليس ما يترأى لنا فى الريف ، البعيد عن المدنية من فضيلة وخلق سوى سراب عظيم . . .

أين فضائل الريف ، وأخلاقه ؟ ؟

أيمكن أن نعتبر هدوء المقابر وسكينة الموتى غنىا يرتجى . .

كلا ، لأن الموتى ، لا يعرفون سوى الهدوء . . وسلامهم ليس فضيلة لأنه سلام أموات كتب عليهم الصمت الطويل . . .

إن السلام الاجتماعى القائم فى ريفنا وقرانا ، لا يخفى وراءه فضيلة ما ، شأن كل سلام صادق ، . ولكنه يخفى عجزا ، وبلادة.. ثم هو يخفى كذلك كل سلوك الانسان البدائى الفج ، بغلظته ، وسذاجته ، وسوء تقديره . . ولو افترضنا وجود امرأتين ، حرمتا نعمة الأنجاب .. إحداها بدائية متبربرة . والثانية معها من مدنية العقل والحياة نصيب . ، فكيف تتصرفان . . ؟ ؟

ستنطوى الأولى على ألم ممض قاتل . وقد تسول لها نفسها خطف رضيع وإلحاقه بنفسها ، كما يحدث فعلا .

وأما الثانية ، فأن أخلاق المدنية تهب لنجدتها ، وتشبع فيها غريزة الأمومة بتوجيهها إلى أبناء المجتمع اللقطاء والتعساء. تحنو عليهم فى مؤسسة اجتماعية ، أو ثقافية ، حتى لا تحس قط بجزع ولا حرمان .

أجل ، إن المدنية لتسارع فتتعم كل نقص يعتور غرائزنا الطبيعية فى حنكة وبراعة .

وبعد :

فلن تصاب أمة برذيلة تنهش روحها ، وتجرف مصيرها مثل رذيلة
الانفصال عن التاريخ . .

فاحذروا أن تفعلوها . . ومهما يكن الثمن المبذول لكم ؛ فاحذروا . .
واعلموا أن بربرية الجسد ، والفكر ، والروح ، ضريبة التخلف .
والنكوص عن التقدم . .

ومهما تبذلوا من محاولات التفوق والنهوض ؛ فلن تستقيموا على
الطريق كسفينة أحسن الربان قيادتها حتى تولوا وجهكم شطر المدينة الإنسانية
ولا تحسبوا هذا عملاً هين التبعات . ؛ فإنه ليهيب بكل منا أن يبذل
من ذات نفسه أعظم ما يطيق . .

وفي بلاد كبلادنا حيث يمجّد الناس الألم ، والكذب ، والعجز . .
وحيث تغشاهم غواشى الوصولية ، وتحيط بهم مكائد الطامعين ، يجب أن
نزداد ارتباطاً بالقافلة ، حتى لا تتخطفنا ذئاب الطريق . .

إن كل تخلف ، انتحار وانقراض . والمدينة لن تحس بخسارة
إذا آثرتم أن تنقرضوا . .

وأيضاً ، لن تقدرُوا ، ولو كنتم ملء الأرض ، أن تطمسوا مشعلها
المغروس في عزيمة الزمان . . .
ألا وأن المدنية اليوم لتتألم وتثب وثبة قديرة نحو تطور أخلاقي أفضل
فلنساعدا أنفسنا لنظفر بمساعدتها وعونها .
هيا . . ضعوا أيمانكم في يمينها ، واعلموا أنكم إذ تمضون معها .
إنما تمضون مع عقل التاريخ وإرادته .

للؤلؤلف . .

- ١ — من هنا .. نبدأ
- ٢ — مواطنون .. لارعايا
- ٣ — الديمقراطية .. أبدا
- ٤ — الدين فى خدمة الشعب
- ٥ — هذا .. أو الضربان

التوزيع خارج القطر
شركة فرج الله

الثن ١٥ قرشا مصريا

Bibliotheca Alexandrina



مطبعة مخيمر
٢٩ شارع ابجيش ت ٤٧١٩٢